



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة ابن خلدون تيارت

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في تاريخ المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط،
والموسومة بـ:

العمارة والفنون بالمغرب الأوسط على العهد الزياني
- دراسة تاريخية أثرية -
(633 - 962 هـ / 1235 - 1555 م)

تحت إشراف الأستاذ:

- حاج عيسى إلياس

إعداد الطالبتين:

- بوسوار خيرة

- شريط خديجة

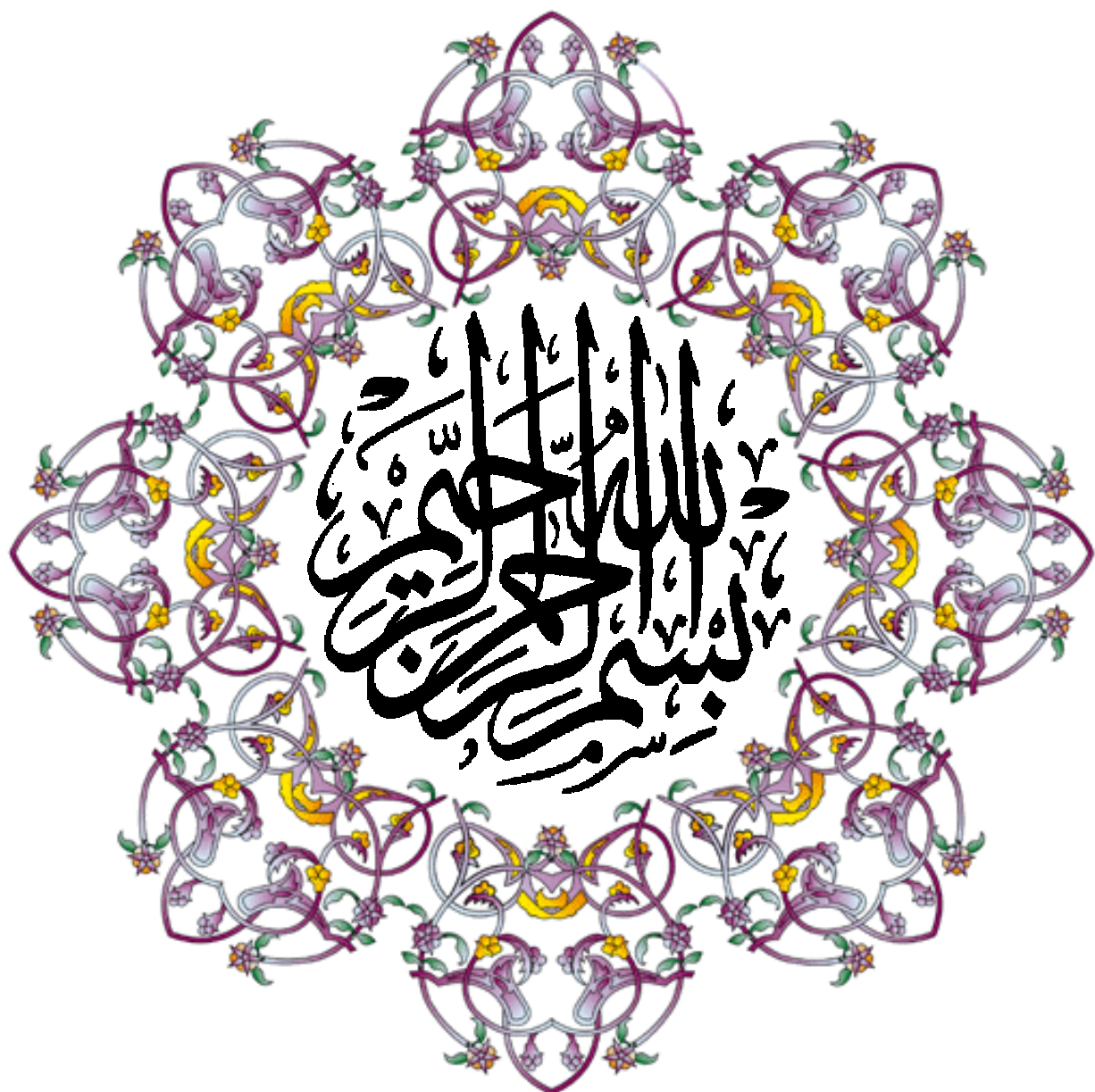
الأستاذ: كوريب عبد الرحمان..... رئيسا

الأستاذ: حاج عيسى إلياس..... مشرفا ومقررا

الأستاذة: شرقي نورة..... مناقشا

السنة الجامعية:

1437-1438 هـ / 2016-2017 م



شكر وعرفان

قال الله تعالى: «قُلْ أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون». سورة: التوبة، الآية: 105.

فالحمد لله أقصى مبلغ الحمد والشكر الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات.

الحمد لله الذي وفقنا لإتمام هذا العمل المتواضع، راجين منه أن

يجعله نافعا في الدنيا، ويجزينا ثوابه في الآخرة. وعلينا اللهم

وسلم وبارك على أشرفه الأنبياء والمرسلين وأفضل الخلق

نبي المدي والرحمة محمد عليه أفضل

الصلاة وأزكى التسليم.

ومن باب الاعتراف

بالجميل نتقدم بجزيل الشكر، وعظيم

الامتنان إلى فضيلة الأستاذ "حاج عيسى إلياس"

الذي تكرم بالإشراف على هذه المذكرة، وتحمل معنا

مناها طيلة فترة الإنجاز، ولم يبخل علينا بقويم النصح والإرشاد.

جزاك الله خيرا وجعلك دواما مفخرة وتاجا للعلم وأهله.

والشكر موصول إلى أعضاء لجنة المناقشة الأستاذ "كوريبة عبد الرحمن"،

والأستاذة "شرقي نواره" اللذين شرفونا بموافقتهم على قراءة

وتقييم هذه المذكرة، وتوجيهنا إلى ما نأبى

حنا سموا، أو سقط منا ههنا.

كما نتقدم وبفيض من الاحترام

والتقدير بجميل الشكر والعرفان إلى كل أساتذة

قسم التاريخ بجامعة "ابن خلدون" الذين رافقونا طيلة مشوارنا الجامعي،

وإلى كل من ساهم في إنماء رصيدنا المعرفي، والوصول بنا إلى هذه الدرجة العلمية.

فمن المأثور: "من علمك حرفا صرت له عبدا"

وإلى كل من ساعدنا في إنجاز هذا العمل، ونخص بالذكر موظفي

المكتبات سواء في جامعة ابن خلدون وجامعة أبي بكر بالقائد بتلمسان.

والحمد لله من قبل ومن بعد

تحقيق	تح
مراجعة	مرا
تقديم	تق
تعليق	تع
تصحيح	تص
نشر	نش
ترجمة	تر
ضبط	ضب
جمع	جم
إعداد	إع
دراسة	درا
إشراف	إشر
تسيير	تس
توفي	ت
رقم	رق
دون دار النشر	د.د.ن
طبعة	ط
دون طبعة	د.ط
دون تاريخ الطبع	د.ت
دون مكان النشر	د.م.ن
مجلد	مج
جزء	ج
السفر	سف
ميلادي	م

هـ	هجري
ص	الصفحة
ع	العدد
Opt	Opcit
P	Page

مقدمة

مقدمة:

لقد عاش المغرب الإسلامي، ومنذ الفتوحات الإسلامية فترات حاسمة في التاريخ، وخاصة وإذا اعتبرنا أنه كان منقسما إلى ثلاثة أقاليم جغرافية، كان كل إقليم يعبر عن نفسه بقيام دولة ترسم حدوده، ولا سيما المغرب الأوسط منه الذي عرف قيام دول عبر تاريخه، عرفت تطورا ملحوظا في كافة المجالات، بحيث سعى حكامها إلى تخليد أسمائهم من خلال إنجازاتهم المختلفة؛ العلمية، العسكرية، وحتى المعمارية وكذا الفنية، بعضها قد اندثر لعبث يد الإنسان والزمن معا، لكن والله الحمد قد حفظها لنا التاريخ في بطون أممها المصادر، وهذا طبعا لا يقلل شيئا من قيمتها، وبعضها الآخر لا يزال صامدا، يتحدى عوامل الدهر ليشهد على عظمة هؤلاء الملوك، الذين بلغو مبلغهم، وهذا بتضافر جملة من العوامل أهمها الاستقرار السياسي، الذي منحهم المجال لتطوير دولهم، والوصول بها إلى درجة كبيرة من التحضر.

والدولة الزيانية إحدى هاته الدول التي حملت معنى اسم الحضارة والتطور، ولا تزال آثارا معمارية كثيرة شاهدة على تطورها المذهل الذي شهدته عبر فترات التاريخ، رغم أنها لم تكن يوما، ولم تعرف وجها للاستقرار السياسي طيلة ثلاثة قرون مكثتها، خاصة وإذا أخذنا موقعها الجغرافي بعين الاعتبار، من حيث توسعها بين قوتين لا يستهان بكليهما. فالإشكال الذي يطرح نفسه هنا: كيف استطاعت هاته الدولة أن تخلف لنا إرثا حضاريا في ظل غياب الاستقرار الذي يعتبر شرطا من شروط الرقي والازدهار؟ والذي تفرعت عنه تساؤلات فرعية أهمها: إلى أي مدى ساهم التنافس الزياني المريني في تعمير المنطقة؟ وفيما تمثلت هاته العمائر؟ وهل احتوت على مظاهر الجمال والإبداع الفني؟ وهل حافظ الفن المغربي على أصالته؟ أم تأثر بعوامل خارجية؟ وهل اقتصر الجانب الفني على المجال العمراني فقط أم تعداه إلى ميادين أخرى؟

فإذا اعتبرنا أن كلا من الجانبين العمراني والفني يمثلان المرآة العاكسة للمستوى الحضاري لأي دولة، كان الأحرى بنا أن ندرس التطور العمراني والفني للمغرب الأوسط، لنسلط الضوء على فترة هامة من تاريخ بلادنا في وقت مضى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تركيز الباحثين في دراساتهم على الجانب السياسي والثقافي في غالب الأحيان، وإهمالهم لجانب مهم يستحق منا الوقوف عليه، والغرض الأسمى من وراء دراستنا هذه ليس تذكرا للأحداث والتحسّر عليها فحسب، بل سعيا منا إلى المحافظة على تراثنا في إطار تجديده بأساليب حديثة.

ومن أجل الإمام بجوانب الموضوع اتبعنا المنهج التاريخي بما يشتمل عليه من المنهج الوصفي؛ والذي يتمثل في وصفنا لأهم المنشآت التي عرفها المغرب الأوسط وقتئذ، والتحليلي من خلال تحليل بعض الأحداث التاريخية التي تحتاج منّا ذلك، وكذا المقارن من كون أنّ الدول المجاورة لها أبت إلا أن تخلّد اسمها هناك، فحاولنا إبراز أوجه التشابه والاختلاف الموجود بين مخطّفات الزيانيين ونظرائهم المرينيين.

وقد قسّمنا بحثنا هذا، وحسب ما يقتضيه عنوان الموضوع: "العمران والفنون في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني" إلى مدخل وفصلين: قمنا في المدخل بإعطاء نظرة عامة عن الدولة الزيانية تاريخيا وجغرافيا، فالتاريخي يكمن في معرفة الخارطة السياسية للمغرب الأوسط خلال السنوات الأخيرة من القرون الوسطى، أما الجانب الجغرافي فيتمثل في رسم حدود المغرب الأوسط إن صحّ التعبير خلال الفترة المدروسة.

ثمّ كان الفصل الأول بعنوان: "البناء والتعمير في المغرب الأوسط على العهد الزياني"؛ وينطوي تحته ثلاث مباحث: المبحث الأول خصّصناه للحديث عن المنشآت المدنية، وأولها المدن وما احتوته من العناصر المعمارية الأخرى، ومنها: المنازل والقصور، وكذا الحمامات والفنادق، والمبحث الثاني جمعنا فيه ما بين المنشآت الدينية والتعليمية من كون أن البعض منها تجمع بين الوظيفتين معا، والمتمثلة في: المساجد، المدارس، الزوايا والكتاتيب، كما أخذت الأضرحة نصيبها بين المنشآت الدينية، ثم انتقلنا في المبحث الثالث إلى المنشآت العسكرية بأنواعها من الأسوار والأبواب، إلى جانب الحصون والأبراج، إذ امتاز هؤلاء الملوك بإعطاء مدّهم نوعا من التحصين العسكري.

أمّا الفصل الثاني فعنوانه ب: "الفنون وتطورها خلال العهد الزياني" والذي تضمّن ثلاثة مباحث: يتمحور المبحث الأول حول الزخرفة المعمارية بأنواعها الثلاثة؛ الهندسية، النباتية والخطية، ودورها الجمالي في المنشآت المعمارية، وانتقلنا في المبحث الثاني إلى الحديث عن الفنون الصناعية، من زخرفة الأواني من الخزف والفخار، وكذا الملابس بأنواعها، إلى جانب الحلي والمعادن، وأما المبحث الثالث والأخير فيدور حول الفنون الصوتية بنوعها: الأدبي والموسيقي، يتمثل الجانب الأدبي في الشعر وأغراضه، أما الموسيقي فيكمن في الآلات الموسيقية والأغاني المتداولة آنذاك، وختمنا بحثنا بخاتمة كانت عبارة عن خلاصة وبعض الاستنتاجات لما تعرضنا له خلال الدراسة، وأتبعناها بمجموعة

من الملاحق تمثلت في خريطة للمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، وبعض الصور والأشكال التي قمنا من خلالها بتوضيح بعض الزخارف الزيانية والمرينية.

أما عن الدراسات المتخصصة في مثل هذا الموضوع فلم نجد ما يجمع بين الجانبين العمراني والفني، إلا ما جاء بصفة عامة عند عبد العزيز فيلالي: "تلمسان في العهد الزياني"، والذي تناول الموضوع من كل جوانبه تقريباً، غير أن دراسته تتمحور حول تلمسان فقط، وكذلك وليم وجورج مارسيه: "المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان"، والذي أورد دراسة مفصلة حول العمران بمدينة تلمسان، والجانب الفني منه.

وخلال إنجازنا لهذا الموضوع اعتمدنا على جملة من المصادر والمراجع، والتي أبرزها ما يلي:

1. أولها المؤرخ المنظر لعلم الاجتماع والعمران عبد الرحمان بن خلدون في كتابه: "العبر وديوان المبتدأ والخبر"، والذي لا يمكن لأي باحث في التاريخ الاستغناء عنه، فقد أفادنا من جانبين؛ أولهما التعريف بمصطلحي العمران والفنون وبعض أجزائه، وثانياً في دراسة الجانب العمراني بدقة، وبالخصوص خلال هذه الفترة.

2. يحيى بن خلدون في مؤلفه: "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، والذي ساعدنا في دراسة الموضوع من كونه عمل لدى أحد ملوكها، وبالتالي فهو بمثابة شاهد عيان لكثير من الأحداث، هذا فضلاً عن القصائد التي جاءت في ثنايا الكتاب، والتي عاجلت مختلف الأغراض، وكذا تعريفه بالعديد من الشخصيات التلمسانية، أو ممن وفدت إلى تلمسان سواءً للتدريس أو طلب العلم.

3. التنسي في كتابه: "تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" وسهّل لنا مهمة البحث باعتباره يتعرض إلى تاريخ الدولة بتسلسل ملوكها، بحيث تناول أهم إنجازاتهم السياسية والحضارية.

4. كتاب: "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لابن مريم التلمساني، والذي أفادنا في الجانب الديني من كون دراسته تتمحور حول ذلك، بالإضافة إلى تعريفه للعديد من الشخصيات الدينية.

5. كتاب: "المسند الصحيح الحسن في ذكر مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن" لمؤلفه: ابن مرزوق الخطيب، والذي تعرض إلى وصف أهم المنشآت المرينية، وخاصة التي شيدها السلطان أبي الحسن.

6. ابن أبي زرع الفاسي في مؤلفيه: "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، "الذخيرة السنّية في تاريخ الدولة المرينية"، واستفدنا منهما فيما يتعلق بتاريخ المرينيين، ومنشأهم بالمغرب الوسط.

7. لسان الدين بن الخطيب في مؤلفيه: "الإحاطة في أخبار غرناطة"، "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب"، وأفادتنا في الجانب الفني فيما يتعلق بالشعر.

8. أبو حمو موسى الثاني: "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وتكمن أهميته من كونه أحد ملوك الدولة الزيانية، ويعتبر هذا الكتاب من روائع الفن الأدبي خلال تلك الفترة، والذي جاء عبارة عن وصية من أبي حمو الثاني إلى ابنه أبي تاشفين كما تضمن العديد من قصائده الشعرية لاسيما في مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

9. العقباني: كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر"، وتعرض من خلال ما أورده من فتاوى العلماء حول بعض الظواهر الاجتماعية المتفشية في المجتمع، إلى بعض الجوانب الفنية بالمغرب الأوسط آنذاك.

أما المصادر الجغرافية فنجد من بينها: الإدريسي: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، مجهول: "الاستبصار في عجائب الأمصار"، واللذان كان لهما الفضل في تعريفنا بحدود المغرب الأوسط، وخاصة الحسن الوزان: "وصف إفريقيا" و"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لصاحبه العمري اللذين تمكنا من خلالهما من معرفة أهم المناطق التي شملتها الدولة الزيانية.

زد على ذلك ياقوت الحموي في كتابه: "معجم البلدان"، والحميري في مؤلفه: "الروض المعطار في خبر الأقطار"، ومن خلالهما تمكنا من التعرف على بعض المناطق التي تعرضنا لها في البحث.

وهذا إلى جانب بعض الرحالة أمثال: العبدري: "الرحلة المغربية"، والنميري: "فيض العباب"، وتكمن أهميتهم باعتبارهم زوّاراً للمنطقة، وبالتالي ساعدونا في وصفهم لبعض المنشآت المعمارية. هذا إلى جانب بعض المؤلفات المتخصصة في التعريف بالأعلام على سبيل المثال: التنبكي: "نيل الإبتهاج بتطريز الديباج"، و"كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج"، فقد ساعدتنا في إعطاء لمحة عن الشخصيات التي برز نجمها خلال هذه الفترة.

كما استعناّ بكثير من المراجع التي ساعدتنا كثيرا، وخاصة في مجال الوصف المعماري الدقيق الذي أغفلته جلّ المصادر، وأبرزها:

1. عبد العزيز فيلاي: "تلمسان في العهد الزياني"، والذي كشف لنا كثيرا من اللبس حول بعض العناصر التي كانت تبدو في نظرنا صعبة نوعا ما.

2. محمد بن رمضان شاوش: "باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان"، واستفدنا منه في مجال الوصف المعماري للمنشآت، وخاصة الدينية منها.

3. مبارك بوطارن: "الموروث الإسلامي لتلمسان"، وكذلك: "العناصر الدينية في المغرب الأوسط"، استطعنا بفضلها التعرف على أهم المنجزات الدينية المشيّدّة بالمنطقة.

4. حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الزياني "حياته وآثاره"، وركّز دراسته على مآثر أبي حمو، وخاصة الفنية منها.

5. عبد العزيز لعرج في كتاباته: "مدينة المنصورة المرينية بتلمسان"، وكان له الفضل في تعريفنا بمدينة عريقة في التاريخ، وأهم الجوانب الحضارية لها.

6. بلوط عمر: "فنادق مدينة تلمسان الزيانية"، وتمكنا من خلاله من الدراسة الأثرية لبعض الفنادق التي أغفلتها الكتابات الأخرى.

أما في مجال الفنون، فاستعنا إلى جانب المصادر المذكورة بجملة من المراجع، وخاصة الغناء منها، ومن كون أن الكتابات التاريخية لم تول اهتماما لذلك لجأنا إلى بعض الكتب المتخصصة في مجال الموسيقى والغناء، ومن خلال تصفحنا لها، فأغلبها حديثة، ولم تعط العصر الوسيط حظّه من ذلك، إلا أننا حاولنا استخلاص منها بعض النقاط، ومن بين هذه المؤلفات نجد:

1. سعد الله فوزي: "صفحات مجهولة من تاريخ الغناء الأندلسي بتلمسان ومدن أخرى"، والذي أولى اهتماما كبيرا إلى ذبوع الفن الغرناطي بتلمسان.

2. بهلول إبراهيم، الآلات الموسيقية التقليدية في الجزائر، وتعرض في حديثه إلى جميع الآلات المتداولة في الجزائر القديمة منها والحديثة، فأخذنا منها ما يناسب موضوع الدراسة.

أما ما يخص الزخرفة، فقد اعتمدنا بعض المراجع المتخصصة في العمران والآثار، وعلى رأسها: موساوي عبد المالك في مؤلفه: "فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان"، وكان له الفضل في تزويدنا بمعلومات هامة عن الزخرفة المعمارية بأنواعها الكتابية، الهندسية والنباتية، والمجسّدة على

الآثار الموجودة بتلمسان. وكذلك: "جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان" لصاحبه: عبد العزيز لعرج، والذي تمكنا من خلاله من وصف لما خلفه المرينيون بالمغرب الأوسط. وبما أن موضوعنا يتعلق بالجانب العمراني، فإننا نحتاج دون شك إلى بعض المعاجم التي تمكّنتنا من إعطاء نظرة على المصطلحات المعمارية، فكان منها: بيلول جمال، "المصطلحات المعمارية المدنية" نوّار سامي محمد: "الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم"، و"المعجم الوسيط"، والذين ساعدونا على معرفة بعض المصطلحات الغامضة التي ورد ذكرها في مجال البحث.

وقبل أن يخرج البحث بصورته الكاملة واجهتنا بعض من الصعوبات، لعل أولها اختلاف المؤرخين في المصطلحات المعمارية حول بعض المنجزات العمرانية، مما صعّب لنا مهمة الترجيح أحيانا، وكذلك تركيز جلّ الباحثين في دراساتهم على تلمسان عاصمة الدولة، وإهمالهم للمدن الأخرى من المغرب الأوسط.

مدخل:

نظرة عامة عن الدولة الزيرية

أولاً: الإطار الجغرافي

ثانياً: الإطار التاريخي

قبل الخوض في غمار موضوع بحثنا، وجب علينا أن نعطي نظرة عامة عن الدولة الزيانية جغرافيا وتاريخيا، فالموقع الجغرافي الهام والحصين لمدينة تلمسان جعلها تبوأ عاصمة ملك الزيانيين. أما الجانب التاريخي فيكمن في إعطاء لمحة وجيزة عن الدولة منذ بروزها إلى حيّز الوجود، وحتى اضمحلالها وانحيارها نهائيا، وهذا ما يساعدنا على دراسة حيثيات الموضوع دراسة تاريخية أثرية.

أولا: الإطار الجغرافي للدولة الزيانية:

بعد سقوط الدولة الموحدية وظهور الديولالات الثلاث: "الحفصية، الزيانية والمرينية" على أنقاضها، أصبح من الصعب تحديد المجال الجغرافي لكل واحدة من هاته الدول، الذي كان يخضع للتجاذبات السياسية، خاصة الدولة الزيانية من كونها تتوسطهم، فحدودها تتداخل مع جيرانها في الشرق والغرب.

ولكن إذا اعتبرنا أن الدولة الزيانية شملت حدود المغرب الأوسط تقريبا، الذي قاعدته تلمسان على حد تعبير المؤرخين،⁽¹⁾ كان الأحرى بنا أن نعريف حدود المغرب الأوسط، فالإدريسي يعطينا تحديدا نسبيا له؛ بحيث يجعل مدينة تلمسان نهايته من الغرب، ويتجلى ذلك في قوله: «ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج منها لا بد منها والاجتياز بها على كل حالة».⁽²⁾

بينما صاحب الاستبصار يفصل أكثر في حديثه عن حدود المغرب الأوسط فيقول: «وحدّ المغرب الأوسط من وادي مجمع، وهو في نصف الطريق بين مدينة مليانة ومدينة تلمسان بلاد تازة من بلاد المغرب في الطول، وفي العرض من البحر الذي على ساحل البلاد التي ذكرنا في البلاد الساحلية، مثل مدينة وهران ومليانة وغيرها من البلاد الساحلية إلى مدينة تنزل، وهي مدينة في أول الصحراء، وهي على الطريق إلى سجلماسة».⁽³⁾ وهو بهذا يكون قد رسم حدود المغرب الأوسط؛ بحيث يجعل وادي مجمع، والذي يقع ما بين مدينتي مليانة وتلمسان حدّه الشرقي

¹ _ البكري أبو عبيد (ت487هـ/1094م)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص: 76. مجهول (من علماء ق6هـ/12م)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نش وت: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (د.ط)، (د.ت)، ص: 176.

² _ الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (ت558هـ/1163م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (وهو جزء من كتاب: المسالك والممالك)، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، (د.ط)، (د.ت)، ص: 250.

³ _ مجهول، الاستبصار، ص: 176.

وبلاد تازة في المغرب الأقصى كحدّ غربي، ومن ساحل البحر المتوسط شمالا إلى بلاد تنزل الواقعة على طريق سجلماسة جنوبا. أما مارمول كبرخال فإنه يحصر الدولة الزيانية بين وادي ملوية غربا وجيجل شرقا، والتي تمثل آخر مدينة من إقليم بجاية.⁽¹⁾

وهناك من يجعل حدّ مملكة الحفصيين هو تدلس،⁽²⁾ وبالتالي فهي بداية المغرب الأوسط، وهذا وارد أيضا بحكم المدّ والجزر الذي كانت تخضع له الدولة الزيانية طيلة فترة حكمها، غير أن الحسن الوزان يعطينا تحديدا دقيقا نوعا ما، خاصة وأنه كان معاصرا للأحداث؛ بحيث يذكر أن حدّها الغربي هو نهر ملوية، والوادي الكبير الذي ينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب، ويصبّ في البحر المتوسط على بعد ثلاثة أميال من بجاية، وصحراء نوميديا جنوبا، وتمتد من الشرق إلى الغرب بثلاثمائة وثمانين ميلا، ولكنها تضيق جدا من الشمال إلى الجنوب في بعض النقاط؛ إذ لا تتعدى خمسة وعشرون ميلا ميلا، وذلك بسبب الأعراب القاطنين في الصحراء.⁽³⁾

أما عن المدن التي كانت تضمّها المملكة الزيانية فهي : تلمسان، وجدة ، مديونة، ندرومة، هنين،⁽⁴⁾ وهران، تمزگران،⁽⁵⁾ برشك،⁽⁶⁾ شرشال،⁽⁷⁾ تونت، مستغانم، تنس،⁽¹⁾ الجزائر، القصبات،

-
- ¹ _ كبرخال مارمول، إفريقيا، ج2، تر: عماد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، (د.ط)، 1984م، ص: 291.
 - ² _ العمري شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت 749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، سف4، تح: حمزة أحمد عباس، الجمع الثقافي، أبو ضبي، (د.ط)، 1423هـ/2002م، ص: 138.
 - ³ _ الوزان الحسن بن محمد الفاسي (ت 957هـ/1550م)، وصف إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ص ص: 7، 8.
 - ⁴ _ هنين: مدينة ساحلية بناه الأفارقة، تبعد عن تلمسان بأربعة عشر ميل، اشتهر مينائها بالتجارة الخارجية مع التجار البنادقة. ينظر: المصدر نفسه، ص: 15.
 - ⁵ _ تمزگران (تامزگران): هي مدينة بالمغرب بالقرب من مصب نهر شلف، بينها وبين مستغانم ثلاثة أميال. ينظر: الحميري محمد بن عبد المنعم (ت 900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت، ط2، 1984م، ص: 168.
 - ⁶ _ برشك (بريشك): مدينة تطل على البحر المتوسط، بناها الرومان، تبعد عن مدينة مستغانم بعدة أميال، غير أنها اندثرت. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 32.
 - ⁷ _ شرشال هي مدينة كبيرة عتيقة بناها الرومان، تقع بين مدينتي تنس والجزائر، تفصلها عن كل منهما مسافة خمسة عشر فرسخا في البحر. ينظر: كبرخال مارمول، المرجع السابق، ج2، ص: 355.

مازونة، تاحجحت، مليانة،⁽²⁾ المدية،⁽³⁾ أرشكول، تبحريت،⁽⁴⁾ تمززدكت، صحراء أنكاد، مدينة العباد، تفسرة، تسلة، إقليم بني راشد، البطحاء،⁽⁵⁾ المرسى الكبير، تمندفوست، دلس، تاؤدمت،⁽⁶⁾ أما إقليم بجاية فقد كان محلّ نزاعٍ بين الدولتين؛ فتارةً يتبع مملكة الزيانيين، وتارةً أخرى يتبع الحفصيين.⁽⁷⁾

ورغم اختلاف المصادر في تحديد الإطار الجغرافي للمغرب الأوسط بصفة عامة، والدولة الزيانية بصفة خاصة، فإنّ ما هو واضح من خلال تتبع المسار السياسي لهذه الدولة؛ هو أنّ حدودها كانت تتمدد وتتقلص خاضعة بذلك لميزان القوة والضعف، خاصة وإذا أخذنا بعين الاعتبار موقعها الوسط بين قوتين لا يستهان بهما؛ إذ كانت كل واحدة منهما ترى نفسها الوريث الشرعي لأمالك الدولة الموحدية.

¹ _ تنس: هي مدينة ساحلية تبعد عن البحر بنحو ميلين، عليها سور ولها أبواب، وهي من أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون التجار، وينهضون منها إلى ما سواها. ينظر: ابن حوقل أبو القاسم النّصّيبّي (ت 367هـ)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، 1992م، ص: 78.

² _ مليانة: هي مدينة قديمة بناها الرومان، تقع في آخر افريقية، بينها وبين تنس أربعة أيام. ينظر: الحموي ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي (ت 626هـ / 1228م)، معجم البلدان، مج5، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1397هـ/1977م، ص: 196.

³ _ العمري، المصدر السابق، ص: 187

⁴ _ تبحريت (تابحريت): موقعها على ساحل البحر، وبالقرب من وجدة، بينها وبين تارنانا عشرة أميال. ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص: 167.

⁵ _ البطحاء: كانت مدينة كبيرة متحضرة بناها الأفارقة على سهل كثير القمح، غير أنّها اندثرت نتيجة للحروب التي كانت بين ملوك تلمسان وسكان جبال الونشريس. ينظر: الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 27، 28.

⁶ _ المصدر نفسه، ج2، ص: 11_42.

⁷ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج1، ص: 31.

ثانياً: الإطار التاريخي:

1-1. أصل بني عبد الواد:

يرجع أصل بني عبد الواد إلى قبيلة زناتة البربرية، ومن هنا ارتأينا أن نعرّج على التعريف بالبربر،⁽¹⁾ والذي اختلف فيه المؤرخون، فيذكر ابن حزم أنّهم حاميون نسبة إلى حام بن نوح -عليه السلام-،⁽²⁾ بينما يذكر آخرون أنّهم ذو أصل سامي؛ من ولد تميلة بن مأرب بن قارن بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح -عليه السلام-؛⁽³⁾ أي أنّ أبناء سام عاشوا إلى جانب أبناء عموماتهم حام باليمن، وبعد الجفاف الذي أصاب المنطقة هاجر الساميون إلى إفريقيا. وإن اختلف المؤرخون في أصلهم ودخولهم إلى بلاد المغرب، فإنّهم يتفقون على أنّ البربر فرعان: برانس وبتر، البرانس نسبة إلى برنس، والبتر نسبة إلى مادغيس الأبتّر، غير أنّهم اختلفوا فيما إذا كانوا لأب واحد أم لا، فيذكر نسبة البربر أنّ البرانس هم من نسل مازيغ بن كنعان، والبتر هم بنو برّ بن قيس عيلان⁽⁴⁾ أنّ ابن حزم يقول أنّ كليهما ابنا برّ، فولد برنس قبائل منها: كتامة، صنهاجة، عجيسة، مصمودة، أوربة، أزداجة، أمّا هواره، زناتة، مكناسة، سدراتة، مطماطة، لماية، فهما من نسل مادغيس الأبتّر.⁽⁵⁾

¹ _ البربر: تسميتهم بهذا الاسم إلى أنّ إفريقيش بن قيس بن قيس بن صيفي لمّا غزا أرض المغرب، وقتل الملك جرجيس ورأى هذا الجيل قال: ما أكثر بريتكم؛ فسموا بالبربر، أي اختلاط الأصوات غير المفهومة. ينظر: ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808هـ/1406م)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، مرا: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 1421هـ/2000م، ص: 117.

² _ ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن سعيد (ت 456هـ/1064م)، جمهرة أنساب العرب، تح وت: ليفي بروفينسال، دار المعارف، مصر، (د.ط)، 1948م، ص: 461.

³ _ القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، فلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح وت: إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1402هـ/1982م، ص: 34.

⁴ _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج6، ص: 117.

⁵ _ ابن حزم، المصدر السابق، ص: 461-463.

وما يهمننا في الأمر هو بنو عبد الواد⁽¹⁾ الذين يعدّون فخذاً من زناتة،⁽²⁾ من ولد سجيح بن واسين بنت يصلتين بن مصرى بن زاكيا بن ورسيج بن مادغس الأبتّر بن برّ بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معبل بن عدنان، وقد ظلّوا ينتجعون الصحراء لطبيعتهم البدوية القائمة على الحلّ والترحال، إلى أن استوطنوا أحياء تلمسان وأحوازها.

شهد لهم التاريخ بأنهم آزرُوا الفتوحات الإسلامية في المغرب منذ بدايتها، ومن ذلك مناصرهم لعقبة بن نافع الفهري⁽³⁾ ضد كسيلة الذي ترأس جموع البربر آنذاك، وكذلك مساندتهم ليوسف بن تاشفين⁽⁴⁾ في واقعة الزلاقة بالأندلس.⁽⁵⁾

2-2. وصول بني عبد الواد إلى الحكم:

ظلّ بنو عبد الواد تحت حكم الموحدّين الذين أقطعوهم تلمسان كإقليم ثابت لهم، وجعلوهم حماة له، إلى أن دخلت الدولة الموحدية في مرحلة الشيخوخة، هنا بدأت أنظارهم تتجه إلى الاستقلال بحكم تلمسان، وذلك سنة 623هـ/1227م، وكان شيخهم آنذاك جابر بن يوسف

¹ _ بنو عبد الواد: ويتفرع إلى اثنا عشر قبيلة؛ خمسة في ولد عبد الوادي، وواحد في زردال، وستة في ولد القاسم، غير أنه غلبت عليهم تسمية عبد الوادي، والقاسم هذا يرجع أصله إلى آل البيت؛ فهو من ولد عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، والذي ينحدر منه بني زيان. ينظر: أبو راس الناصر (ت 1238هـ)، لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان ملوك تلمسان، درا وتح: حمدادو بن عمر، (د.د.ن)، (د.م.ن)، (د.ط)، 1432هـ/2011م، ص: 148.

² _ زناتة: نسبة إلى زانا بن يحيى بن ضري بن زحيك بن مادغس. ينظر: ابن حزم، المصدر السابق، ص: 462.

³ _ عقبة بن نافع: هو عقبة بن نافع القرشي، كان من كبار القادة الذين قادوا الفتوحات، ولاه معاوية إفريقية، وهو من أنشأ مدينة القيروان، كان مجاب الدعاء، توفي سنة 63هـ. ينظر: الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، ج3، تح: محمد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، إشر: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1417هـ/1996م، ص ص: 532_534.

⁴ _ يوسف بن تاشفين: هو يوسف بن تاشفين بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن واقلبي بن تاملت الحميري الصنهاجي اللمتوني، من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير، ولد سنة 400هـ، ملك المغرب من جزائر بني مزغنة إلى جبل الذهب في السودان والأندلس، وهو من بنى مدينة مراكش، وتلقب بأمر المسلمين وناصر الدين، توفي سنة 500هـ، ودفن بقصره بحاضرة مراكش. ينظر: السملالي العباس بن إبراهيم بن الحسن بن محمد للإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، ج10، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1413هـ/1993م، ص: 298_300، 306.

⁵ _ ابن خلدون أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن خلدون (ت 780هـ/1378م)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج1، تح: ألفرد بل، بيير فونطانة الشرقية، الجزائر، (د.ط)، 1321هـ/1903م، ص ص: 95، 96.

الذي كان له الفضل في كشف مؤامرة ابن علان الصنهاجي مع ابن غانية ضد الموحدين، وجزاءً له على هذا الصنيع أن ولاّه المأمون على تلمسان وسائر بلاد زناتة سنة 627هـ/1231م.⁽¹⁾

وبعد وفاته إثر سهم أصابه في حصاره لندرومة سنة 629هـ/1233م، خلفه ابنه الحسن لمدة ستة أشهر، ثم تنازل عن الولاية لعمه عثمان بن يوسف سنة 630هـ/1234م، والذي ثارت عليه الرعية نتيجة لتعسفه وجوره، جاء بعده أبو عزة زجدان بن زيان بن ثابت بن محمد سنة 631هـ/1235م، وشهد عهده نوعاً من الاضطرابات بسبب خروج بني مطهر وبني راشد عليه إلى أن قتلوه سنة 633هـ/1236م، وبموته خلفه أخوه يغمراسن بن زيان الذي أنهى ولاءه لبني عبد المؤمن، وهكذا علا صيت الدعوة العبد وادية.⁽²⁾

والدولة الزيانية كغيرها من الدول مرت بمراحل خلال الفترة التي مكثتها، أولها مرحلة التأسيس؛ التي تمثل البنية الأساسية التي تقوم عليها الدولة، ثم المرحلة الثانية؛ وفيها تبلغ قمة التطور والرقى، وأخيراً مرحلة الضعف؛ وهنا يكون مآل الدولة إلى السقوط.

1. مرحلة النشأة والتطور:

لما تولى يغمراسن بن زيان زمام أمور بني عبد الواد بدأت تظهر لديهم بوادر الانفصال عن الدولة المؤمنية، والاتجاه نحو تأسيس دولة تتمتع بكامل مظاهر السيادة، فشرع في إقامة النظم الإدارية من الوزارة والحجابه والكتابة، كما اهتم بتنظيم جيشه وتعيين القواد، حتى أصبح في فترة وجيزة جيشاً يعتدّ به، وبذلك أعلن العداوة لبني عبد المؤمن من خلال رفضه إعلان الخطبة لهم على المنابر، وكذا اعتراضه للهدية التي بعث بها أبو زكريا عبد الواحد بن أبي حفص المنتاقي إلى الخليفة الموحي السعيد بن المأمون،⁽³⁾ هذا ما أثار حفيظته، فجهّز جيوشاً من الموحدين وأحلافهم من العرب، ويّم وجهه صوب تلمسان في سنة 640هـ/1243م،⁽⁴⁾ ما أيقن بالهزيمة أمام جيوش أبي زكريا فرّ بأهله وماله

¹ _ ابن خلدون يحي، المصدر السابق، مج1، ص: 105-107.

² _ المصدر نفسه، مج1، ص: 107، 108.

³ _ التنسي محمد بن عبد الله (ت 899هـ/1494م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (تتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان)، تح وت: محمود آغا بوعيداد، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 115.

⁴ _ ابن عذارى المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)، تح: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1406هـ/1985م، ص: 361.

إلى جبل بني ورنيد، فاستولى أبو زكريا على تلمسان، غير أنه لم يجد من يولّه عليها، فاستقدمه وأقطعه أراضي من إفريقية تقدّر جبايتها بـ 100 ألف دينار، كان هذا الاتفاق بداية التحالف الزياني الحفصي ضد الموحيدين.⁽¹⁾

هنا أدرك السعيد الموحيدي مدى خطورة الوضع على دولته، فقرّر استرجاع أملاكه،⁽²⁾ فأعدّ العدة وقصد تلمسان في سنة 646هـ/1249م وضرب حصارا عليها، فخرج منها يغمراسن فارّا بأهله وماله، وتحصّن بقلعة تاجرت، ولكن السلطان السعيد تتبّع معه وقام بمحاصرة القلعة لمدة ثلاثة أيام، غير أنّ الدائرة انقلبت عليه، وتمكّن فارس من بني عبد الواد يدعى يوسف بن خزوون من قتله،⁽³⁾ وبمقتل سلطان الموحيدين السعيد في نفس السنة انهزم جيشه،⁽⁴⁾ وتمكّن بنو عبد الواد من الاستيلاء على ما كان بمحلته من نفائس منها: مصحف عثمان -رضي الله عنه-.⁽⁵⁾

وبانكسار الموحيدين هناك وجد المرينيون⁽⁶⁾ الفرصة سانحة للسيطرة على مدينة فاس،⁽⁷⁾ ومن ثمة ثمة إحكام السيطرة على كامل بلاد المغرب الأقصى،⁽¹⁾ فخرج أميرهم أبو بكر بن عبد الحق

¹ _ **الموحدون:** أصلهم من المصامدة، وهم من أصحاب المهدي بن تومرت الذي تولى أمر المغرب بعد المرابطين اللمتونيين. ينظر: القلقشندي، **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، ص: 169.

² _ ابن خلدون يحي، المصدر السابق، مج1، ص: 112، 113.

³ _ ابن عذارى، المصدر السابق، (قسم الموحيدين)، ص: 387.

⁴ _ ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (كان حيا ما بين 710هـ_731هـ / 1310_1331م)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، (د.ط)، 1972م، ص: 112، 113. ابن خلدون يحي، المصدر السابق، مج1، ص: 113، 114.

⁵ _ **مصحف عثمان -رضي الله عنه-**: هو من نسخ من طرف سيدنا عثمان -رضي الله عنه- وبعد وفاته صار من خزائن بني أمية في المشرق ثم في الأندلس، وبعد أن استولى عبد المؤمن بن علي على الأندلس نقله إلى حاضرة مراكش، وتأذّق هو وبنوه في زخرفته بالجواهر الفاخرة. ينظر: المراكشي عبد الواحد (ت 647هـ)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح: محمد سعيد العريان، (د.د.ن)، القاهرة، (د.ط)، 1383م/1963م، ص: 326. التنسي، المصدر السابق، ص: 123، 124.

⁶ _ **المرينيون:** هم فرع من زناتة، وهم بنو مريم بن ورتاجن بن ماحوخ بن جريج بن فاتن بن بدر بن يحفت بن عبد الله بن زرتيبص بن المعز بن ابراهيم بن رحيك بن واشين بن نصيب بن سرا بن إحياء بن ورسيك بن أديت بن جانا، ومنهم بنو عبد الحق ملوك فاس. ينظر: القلقشندي، **قلائد الجمان**، ص: 176، 177.

⁷ _ **فاس هي** مدينة كبيرة مشهورة على برّ المغرب من بلاد البربر، وهي مدينتان مفترقتان مسورتان، عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين، أسست عدوة الأندلسيين سنة 192هـ، وعدوة القرويين سنة 193هـ، ومنها إلى ستة عشرة أيام. ينظر: الحموي ياقوت، المصدر السابق، مج4، ص: 230، 231.

(642_656هـ/1244_1258م) من فاس لإخضاع المناطق المجاورة مستخلفا عليها مولاه السعود بن خرباش الحشمي، وفي أثناء غيابه اتفق مشيخة الموحدين مع بعض قواد الروم الذين كان الرشيد قد ولاّهم على قيادة فاس على خلع أبي بكر، وقتل قائده السعود، وإعلان البيعة للمرتضي (646_665هـ/1248_1266م) وبعد مقتل والي أبي بكر والتنكيل به، خرجت فاس عن طاعته، فاستغلّ يغمراسن هذه الأوضاع لصالحه، وتوجه إلى ضم تازا لملكه، وكان ذلك سنة 647هـ/1250م.⁽²⁾

ولمّا علم أبو بكر الذي يلقبه ابن خلدون بأبي يحيى لما آلت إليه الأمور في فاس شدّ الرحال إليها، وضرب حصارا عليها لعدة شهور، فاستنجد أهلها آنذاك بالمرتضي الذي استصرخ بدوره بيغمراسن، فاستشاط أبو بكر لذلك غضبا، ونهض للقاء يغمراسن، فالتحم الجيشان في موقعة إيسلي كانت الهزيمة فيها ليغمراسن الذي تراجع إلى تلمسان،⁽³⁾ وكانت هذه أول مواجهة بين بني عبد الواد وبني مرين، فاستغلّ محمد بن عبد القوي الفرصة، واستولى على بعض الأقاليم منها: برشك، شرشال والونشريس، وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد بن منديل المغراوي الذي سيطر على مليانة وغيرها من الأعمال الشرقية، أما عن أبي بكر فقد أفل راجعا وواصل حصاره لفاس، إلى أن استسلم أهلها وطلبوا منه الأمان، فاستولى عليها سنة 648هـ/1251م، ومنها واصل سيطرته على المناطق المغربية وحره ضدّ الموحدين،⁽⁴⁾ وفي سنة 655هـ/1258م نهض المرينيون لحرب يغمراسن انتقاما منه لتحالفه مع الموحدين، واستطاع أبو بكر إلحاق الهزيمة به بموضع يعرف بأبي سليط.

غير أنّ هذه الهزائم لم تحل دون رغباته في التوسع غربا على حساب ممتلكات الدولة الموحدية التي كانت آنذاك تelfض أنفاسها الأخيرة، فتوجه إلى سجلماسة⁽⁵⁾ علّه بهذا يعوّض شيئا من هزائمه المتوالية عليه على يد أبي بكر، غير أنّ بني مرين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين لملك

¹ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص ص: 111، 112.

² ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، (د.د.ن)، الرباط، (د.ط)، 1392هـ/1972م، ص ص: 74_76.

³ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 112.

⁴ حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، مج2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1398هـ/1978م، ص: 16.

⁵ سجلماسة: مدينة في جنوبي المغرب، في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهي في منقطع جبال درن، بينها وبين درعة أربعة أيام. ينظر: الحموي ياقوت، المصدر السابق، مج3، ص: 192.

الموحدين سارعوا إلى السيطرة على سجلماسة قبل وصول يغمراسن إليها،⁽¹⁾ لأنه لم يكتف بهذه المحاولة، بل أعاد الكرّة سنة 662هـ/1263م وتمكّن في هذه المرّة من إخضاعها له لمدة عشر سنوات، وظلّت تحت حكمه إلى أن استرجعها السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق.⁽²⁾

وظلّت الوقائع بين الطرفين طيلة فترة حكم يغمراسن، ومن أشهرها واقعة تلاغ 666هـ/1267م، فبعد وفاة المرتضى واعتلاء أبي دبوس الوثائق العرش الموحيدي (665_668هـ/1266_1270م)، أرسل يغمراسن بيعته لهذا الأخير، طالبا التحالف ضد المرينين، وبالفعل لما حاصر يعقوب المريني⁽³⁾ مراكش بعث أبو دبوس يغمراسن من أجل إثارة الفتن، وإشغال يعقوب، وبالفعل كان ذلك، والتقى أبناء العمومة في معركة أخرى كان ميدانها وادي تلاغ، والتي تمكّن فيها المرينيون من دحر بني عبد الواد مرة أخرى.⁽⁴⁾

ولم يتوقف الطرفان عند هذا الحد، بل تعدّاه إلى وقائع أخرى، نذكر منها واقعة إيسلي 670هـ/1272م والتي لم تختلف كثيرا عن سابقتها؛ بحيث حشد يعقوب قواته من بني مرين، العرب، الأغزاز وحامية من النصاري قاصدا تلمسان، وهنا وصله وفد من سلطان بني الأحمر، يستصرخه لنصرة المسلمين بالأندلس من الخطر الصليبي، فارتأى مهادنة يغمراسن، والتفرغ للجهاد بالأندلس، غير أن هذا الأخير رفض الصلح، فعزم السلطان المريني على المسير إليه، والتحم الجيشان

¹ _ الجليلي عبد الرحمان بن محمد، تاريخ الجزائر العام، ج2، مكتبة الشراكة الجزائرية، الجزائر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1385هـ/1965م، ص: 135.

² _ حاجيات عبد الحميد، تاريخ دولة بني زيان (مقتطف من كتاب ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر وكتاب تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان لابن الأحمر)، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م، ص ص: 81_83.

³ _ يعقوب المريني: هو يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمادة الزناتي المريني، ولد 607هـ، وبويع بالخلافة 656هـ وملك العدوتين، وتوفي سنة 685هـ. ينظر: المكناسي أحمد بن القاضي (ت 1025هـ) جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، (د.ط)، 1973م، ص ص: 656_858.

⁴ _ السّلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، ج3، تح وتعل: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء (المملكة المغربية)، (د.ط)، 1954م، ص ص: 25، 26.

في معركة حامية الوطيس بوادي إيسلي، كانت الغلبة فيها ليعقوب المريني، وانهمز يغمراسن هزيمة لا تقل عن الهزائم السابقة.⁽¹⁾

ونتيجة للانتصارات التي حققها يعقوب في الأندلس، توجهّ س بني الأحمر خيفة من زوال ملكهم على يده، فراسلوا يغمراسن يطلبون مساندته بإثارة الشغب في المغرب وتشيتت قوة بني مرين، هذا ما توافق مع مصالح يغمراسن الذي كان يسعى إلى توطيد أركان دولته في المغرب، غير أن السلطان المريني يعقوب لم يشأ فتح جبهة ثانية للقتال، فعمد لطلب الصلح منه، لكن سلطان تلمسان أبي إلاّ أن يدخل في مواجهات مع المرينين، مستغلا بذلك انشغالهم في الأندلس، فكانت بينهم واقعة تافنة؛ والتي كانت نكسة أخرى أصابت الجيش الزياني.⁽²⁾ هذا وغيرها من الوقائع التي جمعت الطرفين، وفي هذا الصدد يقول ابن الخطيب: «...ومن حروبه معهم الحرب بإيسلي، وبوجدة، وبتامسونت، وببني بهلول، ثم بتلاغ، ثم بوادي تافنة، ثم هلك يغمراسن».⁽³⁾

لما توفي يغمراسن كان قد ثبتّ أركان ملكه لبنيه من بعده، وبوصول الأمير عثمان إلى الحكم كان لزاما عليه أن يحافظ على الأقل على الحدود التي رسمها والده، أو زيادة توسيعها إذا ما أمكن ذلك، فالأمير يغمراسن قبل وفاته كان قد أوصى ولي عهده عثمان بمهادنة المرينيين نظرا لقوتهم، والتوسع شرقا على حساب الحفصيين الأقل قوة في ذلك الوقت، وبالفعل عزم أبو السعيد على تنفيذ وصية أبيه، فهادن بني مرين، وسعى لضم القبائل الشرقية،⁽⁴⁾ ومنها بني توجين، وبذلك تكون قد دانت له الونشريس والمدية، وكذا مغراوة، وما كان تحت أيديهم من مازونة، تنس وبرشك،⁽⁵⁾ وواصل السير حتى وصل بجاية، غير أنها استعصت عليه، وكان ذلك 686هـ/1287م.⁽⁶⁾

¹ _ ابن الأحمر أبو الوليد اسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي (ت 807هـ/1405م)، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تق وتح وتع: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، بور سعيد، ط1، 1421هـ/2001م، ص ص: 21-23.

² _ الجليلي عبد الرحمن، المرجع السابق، ج2، ص: 81.

³ _ ابن الخطيب لسان الدين ذي الوزارتين (ت 776هـ/1374م)، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، المحمدية (تونس)، (د.ط)، 1316هـ، ص: 72.

⁴ _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص: 123.

⁵ _ التنسي، المصدر السابق، ص: 127.

⁶ _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص: 125.

غير أن المرينين ظلّ ضمّ تلمسان شغلهم الشاغل، فسرعان ما تخلّوا لبني الأحمر عن غرناطة، وتفرغوا لحربهم مع بني عبد الواد، فقد قام يوسف أبي يعقوب بحصار تلمسان خمسة مرات⁽¹⁾ وقيل أربعة،⁽²⁾ تمكن في الأخيرة من فرض حصار طويل دام أكثر من ثماني سنين (698هـ_706هـ/1298_1306م)، ساءت فيها أحوال البلاد، وتفشى الجوع الذي حصد آلاف الأرواح، وهذا ما يعبر عنه يحيى ابن خلدون في قوله: «... فكانت مدة هذا الحصار الأكبر والخطب الشديد ثماني سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وبلغ فيها عدد موتى أهل تلمسان قتلا وجوعا زهاء مائة ألف وعشرين ألف»،⁽³⁾ وخلال هذا الحصار توفي السلطان أبو السعيد سنة 703هـ/1303م، وخلفه ابنه أبيزيان محمد، وكان الحصار لا يزال قائما على المنطقة، ولم ينفك عنها إلا بموت يوسف أبي يعقوب المريني سنة 706هـ/1306م، واستطاع السلطان الزياني بفضل عزمه وحزمه إخضاع مختلف القبائل العربية والزناطية المنشقة عنه (مغراوة وبني توجين)، وكذا أعراب سويد⁽⁴⁾ والديالم،⁽⁵⁾ كما قام بقطع الدعوة للحفصيين،⁽⁶⁾ وشرع في إصلاح بعض ما خلفه الحصار، إلى أن وفته المنية سنة 707هـ/1307م.⁽⁷⁾

وبعد وفاته ببيع أخوه أبو حمو موسى الأول، وهو أول ملوك زناتة الذي استطاع تنظيم أمور دولته بسنّه للقوانين، ووضع الأنظمة وصكّه للعملة، هذا فيما يخصّ الأمور الإدارية، أما الجانب السياسي فقد سار على نهج أسلافه، في تأمين الجانب الغربي لدولته، وتوسيع حدوده شرقا، فبدأ

¹ _ التنسي، المصدر السابق، ص: 130. ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص ص: 126، 127. ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 121.

² _ ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص ص: 68، 69.

³ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص ص: 124، 125.

⁴ _ سويد: هم فرع من عرب رياح الذين يرجع أصلهم إلى بني هلال، وتسكن الصحاري التي تمتد نحو مملكة تينيس، وهم أشرف وبواسل. ينظر: الوزان الحسن، المصدر السابق، ج1، ص: 49، 51.

⁵ _ الديالم: هم فرع من عرب المعقل تسكن صحراء ليبيا، ويذهبون إلى درعة ليستبدلوا التمر بأنعامهم. ينظر: المصدر نفسه، ص: 49، 64.

⁶ _ الحفصيون: نسبة إلى أبي حفص أحد العشرة أصحاب المهدي بن تومرت، وهم من قبيلة زناتة المصمودية. ينظر: القلقشندي، قلائد الجمان، ص: 169.

⁷ _ الدراجي بوزياني، أدباء وشعراء من تلمسان، ج1، دار الأمل للدراسات، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص ص: 186_190.

بإخضاع القبائل المعارضة حتى وصل إلى الزّاب جنوباً، ومدينة الجزائر شمالاً، وبجاية شرقاً، وعرف في آخر عهده معارضة من قبل ابنه أبي تاشفين، الذي تملكته الغيرة نتيجة تفضيل أبيه لابن عمه مسعود ابن أبي عامر، فعزم على قتله، وسجن أبيه، غير أن هذه المكيدة، راح ضحيتها أيضاً السلطان أبي حمو، وكان ذلك سنة 718هـ/1318م، واستأثر أبو تاشفين بالحكم.⁽¹⁾

هذا الأخير الذي كان مولعاً بالعمران والتزيين، مستعينا في ذلك بأسرى الروم الذين برعوا في مجال البناء، وشقّ طريقه في توسيع دائرة ملكه، وشرع في إخضاع القبائل حتى وصل بجاية التي حاصرها قرابة سنة، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل جدّ في السير متجاوزاً قسنطينة وبونة، حتى وصل تونس وهزم السلطان أبا يحيى هزيمة نكراء، وتمكّن من دخول تونس وظلّ فيها أربعين يوماً، مما جعل السلطان الحفصي يطلب العون من السلطان المريني أبي الحسن، غير أن أبا تاشفين ردّ شفاعته، فجهرّ ز جيشه وقصد تلمسان 735هـ/1334م، وقام بمحاصرتها سنتين إلى أن دخلها عنوة، وتمكّن من قتل السلطان أبي تاشفين، وهنا خرجت تلمسان عن حكم بني عبد الواد، لتخضع لبني مرين.⁽²⁾

تمكن السلاطين الزيانيون في هذه الفترة من تنظيم أمور دولتهم داخلياً، وكذا توسيع نفوذهم، هذا من جهة، وتطوير الجانب الحضاري من جهة أخرى، غير أن التحالف المريني الحفصي قضى على دولتهم. لتنتقل إلى الحكم المريني ردحا من الزمن.

2. مرحلة إعادة بعث الدولة:

ظلت تلمسان تحت الحكم المريني أكثر من عشر سنوات سعى فيها المرينيون إلى تقريب بني عبد الواد، فلما خرج للاستيلاء على تونس سحب معه جمع منهم بما فيهم أبو سعيد وأبو ثابت، وخلال سيطرته عليها لقي معارضة من قبل بني سليم الذين لقوا مساندة بني عبد الواد،⁽³⁾ ودارت بين الطرفين معركة سنة 749هـ/1348م انهزم فيها أبو الحسن وشاع خبر وفاته، وحينئذ خرج ابنه أبو عنان من تلمسان التي كان والياً عليها، قاصداً المغرب الأقصى لاعتلاء عرش المرينين.⁽⁴⁾

¹ _ الجليلي عبد الرحمن، المرجع السابق، ج2، ص ص: 144_147.

² _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص ص: 134_141.

³ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص ص: 144_146.

⁴ _ مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، مج1، تح: علي زواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، ص ص: 577، 578.

وهكذا تمكن أبو سعيد وأبو ثابت من استعادة ملك أجدادهم في نفس السنة، وعكف كلاهما على النهوض بالدولة، فتولى أبو سعيد الشؤون السياسية، بينما اهتم أبو ثابت بالجانب العسكري، فركز جهوده على الجزء الشرقي من المغرب الأوسط؛ بحيث تمكن من ضم برشك، مليانة، المدية، الجزائر، وكذا محاصرة مغراوة التي كانت من بين حلفاء بني مرين، فبعث إليه أبو عنان بأن يشفع له، غير أن أبا ثابت ردّ شفاعته، الأمر الذي أغضبه، فاتخذها ذريعة للهجوم على تلمسان، فالتقى الجمعان بإيسلي (وادي القصب)، ودارت بينهم معركة ضارية انهزم فيها الزيانيون هزيمة نكراء، وقتل فيها الأخوان أبو سعيد وأبو ثابت، لتسقط تلمسان مرة أخرى في يد المرينيين سنة 753هـ/1352م.⁽¹⁾

وفي هاته الأثناء ظهر أبو حمو على مسرح الأحداث في تونس سنة 753هـ/1352م، والذي كان من بين اللاجئين إليها خوفاً من بطش بني مرين، وهناك استطاع كسب عرب بني سباع من الدواودة إلى صفّه، وكان لهؤلاء الأعراب الفضل في إقناع السلطان الحفصي أبي إسحاق على تدعيم أبي حمو موسى الثاني من أجل استرجاع ملك أجداده،⁽²⁾ وبوفاة السلطان المريني أبي عنان واضطراب أمرهم وجد الفرصة مواتية للانقضاض عليهم، وانضمّت إليه عرب بني عامر، وبذلك تمكن من الدخول إلى تلمسان حاضرة ملكه سنة 760هـ/1358م،⁽³⁾ واستولى على كامل ذخائر بني مرين، ومنها الهدية التي جهّزها السلطان المريني إلى صاحب برشلونة.⁽⁴⁾

وقد بذل كل ما في وسعه من أجل إعادة إحياء مجد الدولة في تشكيل حكومة، وتنظيم إدارته، وتعين الوزراء،⁽⁵⁾ ومن بين أهم الأعمال التي أقرّها أبو حمو في دولته الاحتفال بالمولد النبوي؛ حيث استمرت سنة لدى خلفائه فيما بعد، كما اشتهر باعتنائه بالعلم والعلماء، وقتل إثر واقعة كانت بينه وبين بني مرين بمعونة ابنه أبي تاشفين سنة 791هـ/1388م.⁽⁶⁾ وعليه فإن السلطان أبا حمو كان ممن

¹ _ التنسي، المصدر السابق، ص: 150_155.

² _ الدراجي بوزياني، المرجع السابق، ج1، ص: 232_241.

³ _ السلاوي، المرجع السابق، ج4، ص: 4.

⁴ _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص: 400.

⁵ _ الدراجي بوزياني، المرجع السابق، ج1، ص: 244_245.

⁶ _ التنسي، المصدر السابق، ص: 162، 181.

ممن امتاز بالحنكة والدّهاء، وكادت دولته أن تصل إلى مصافّ الدول الكبرى، لولا استمرار الثورات في عهده، وخروج بعض أحلافه عنه من العرب والبربر، وغدر بعض رجال الدولة له. بعد استعادة بني عبد الواد لملكهم عملوا على بسط نفوذهم خاصة على الجهة الشرقية، حتى تجاوزوا بجاية، غير أن تدخل المرينين في الشؤون الداخلية للدولة، واستغلال الاضطرابات العائلية داخل البيت الزياني جعل الدولة تتجه نحو الانهيار والسقوط.

3. مرحلة الانحدار والسقوط:

بوفاة أبي حمو موسى الثاني دخلت الدولة الزيانية في دوامة من الحروب والصراعات؛ حيث انتصب أبو تاشفين الثاني على الحكم سنة 791هـ/1388م، ولكن تحت الوصاية المرينية بزعامة أبي العباس بن أبي سالم الذي وجد الفرصة مواتية للوثوب على تلمسان، وكان ذلك سنة 795هـ/1393م، وكان أبو تاشفين قد أصابه مرض توفي على إثره في نفس السنة،⁽¹⁾ فقام أحمد بن العزّ أحد أقارب أبي تاشفين بتعيين أحد أبناء السلطان، وتولىّ الوصاية عليه.

ولما علم يوسف بن أبي حمو بذلك سار إلى تلمسان مع أحلافه من العرب، وتمكّن من قتل أحمد بن العزّ وابن أخيه أبي تاشفين، غير أن السلطان أبا العباس لم يكن ليتركه يهنأ بهذا النصر؛ فقد بعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان التي ظلّت تحت حمايته إلى أن توفي أبوه، حيث عينّ عليها أبا زيان الذي كان معتقلا في فاس وذلك عام 796هـ/1393م، هذا الأخير الذي كان له اهتماما كبيرا بالعلم، وكان هو نفسه أديبا وشاعرا، ولعل أبرز دليل على ذلك تلك القصيدة التي نظمها في مدح سلطان مصر الظاهر برقوق، واستمرّ في الحكم إلى أن ثار عليه أخوه عبد الله سنة 801هـ/1398م ففرّ هاربا إلى أحياء العرب إلى أن توفي سنة 805هـ/1402م.⁽²⁾

وما يلاحظ في هذه الفترة هو تدخل بني مرين في السياسة الداخلية للدولة الزيانية؛ أو ما يعرف بسياسة العزل والتولية، فحاول السلطان أبو سعيد كسب عبد الله (شقيق أبي زيان) إلى صفّه، وبعثه في جيش إلى تلمسان لحصارها سنة 802هـ/1399م، ف وقعت معركة بين الأخوين قتل فيها أبو زيان، وحلّ محله أبو عبد الله مع استمرار التبعية لبني مرين.⁽³⁾

¹ _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص ص: 481_483.

² _ الجيلاي عبد الرحمان، المرجع السابق، ج2، ص ص: 183_186.

³ _ ابن الأحرر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص: 83.

وهكذا ظلّ السلاطين المرينيون يتحكمون في تعيين الأمراء الزيانيين وعزلهم وفق ما يتمشى ومصالحهم الخاصة، إلى أن ضعفت الدولة المرينية مع بداية القرن 9هـ/15م، وبرزت الدولة الحفصية على مسرح الأحداث، فحلّت محل المرينيين في التدخل في شؤون الدولة الزيانية؛ فكثر الخلع والتنصيب وعمّت الفوضى، فاغتنم الصليبيون الفرصة ليستولوا على سواحل المغرب الأوسط مع مستهل القرن 16/10م.⁽¹⁾

لقد تضافرت عدة عوامل جعلت الدولة الزيانية تفقد هيبتها ووجودها ككيان سياسي، منها الصراع بين أبناء البيت الحاكم وكثرة الثورات الداخلية، وإلحاح سلاطين الدول المجاورة لها على تطويقها، وتوسيع دائرة ملكهم على حسابها، هذا إضافة إلى تدخل الغزو الصليبي؛ حيث كادت أن تصبح أرض المغرب الأوسط مسيحية لولا تدخل العثمانيين وإنقاذهم للمسلمين.

¹ _ عموره عمار، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريجانه للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2002م، ص ص: 82، 83.

الفصل الأول:

البناء والتعمير في المغرب الأوسط على العهد الزياني

المبحث الأول: العمارة المدنية

أولاً: المدن

ثانياً: القصور والمنازل

ثالثاً: الحمامات والفنادق

المبحث الثاني: المنشآت الدينية والتعليمية

أولاً: المساجد والأضرحة

ثانياً: المدارس

ثالثاً: الكتاتيب والزوايا

المبحث الثالث: التحصينات العسكرية

أولاً: الأسوار والأبواب

ثانياً: الحصون والقلاع

ثالثاً: الأبراج

تعريف العمران:

رَّاءَ الرَّجُلِ، يَعْلَمُ رُ، لَغَةً رَّاءَ، عَمَّارَةً، وَقِيلَ يَعْمَرُ رُ، عَمَّارَةً تَوَالِمَارَةً مَا يَعْمَرُ بِهِ الْمَكَانَ. (1)

ب - اصطلاحاً لغيره ابن خلدون فيقول: «هو التنازل، والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشيرة، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش»؛ (2) أي أن العمران هو الاجتماع البشري الذي من خلاله يتمّ التعاون على شؤون الحياة، (3) وأيضاً يقصد به البناء، وما يَعْمَرُ بِهِ الْبَلَدَ وَيَحْسُنُ حَالَهُ بِفَضْلِ الْفَلَاحَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ، وَكَثْرَةِ الْأَهَالِي. (4)

والعمران عند ابن خلدون نوعان: العمران البدوي؛ وهو الذي يكون في الجبال والأماكن المقفرة والصحاري، أمّا العمران الحضاري فيكون في القرى والمدن، ويكثر في الجزء الشمالي من الأرض، وبالأخص بين خط الاستواء إلى 64 درجة شمالاً، بينما ينقطع العمران من 64 إلى 90 درجة؛ وذلك لشدة البرودة، أمّا فيما يخص الجزء الجنوبي فيقلّ العمران به في العموم، وذلك لارتفاع درجة الحرارة، وما يصحب ذلك من جفاف ومشقة في العيش. (5)

¹ _ ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، مج4، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص: 602، 604.

² _ ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون (وهي الجزء الأول من كتاب: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، مر: سهيل زكار، دار الفكر والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 1431هـ/2001م، ص: 53.

³ _ العبدّة محمد، نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، نصر (القاهرة)، ط1، 2009م، ص: 50.

⁴ _ المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ/2004م، ص: 627.

⁵ _ ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، ص ص: 64، 65.

المبحث الأول: العمارة المدنية

أولاً: المدن:

المدينة في تعريفها التاريخي هي وحدة تشكيلية قديمة يرجع تاريخها إلى حوالي سبعة آلاف سنة، وهي بذلك من بين السمات التي تدل على تطور الإنسان وتقدمه، وبمعنى آخر هي نتاج التطور التاريخي الذي بلغه الإنسان في حياته منذ أقدم العصور إلى اليوم، وبانتشار الإسلام واتساع رقعته الجغرافية زاد الاهتمام بتأسيس المدن، وطبعت بطابع إسلامي، فبعد هجرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة المنورة قام بتوسعتها؛ حيث جعل عناصرها أربعة: الجامع، وبجواره مسكنه، والسوق، ثم مساكن المسلمين، فأصبحت هذه المدينة نمطا ومثالا سار على نهجه القادة الفاتحون، ثم المسلمون بصفة عامة في بنائهم للمدن فيما بعد.⁽¹⁾

وأطلق على المدينة أيضا اسم القرية، وإنما نفرق بين الاثنين بأن لفظ القرية يطلق على ما هو أصغر من المدينة، إضافة إلى أن المدينة محاطة بسور، بينما القرية ليس لها أسوار وتعرف أيضا على أنها البنايات العمرانية الأصلية التي عرفها الإنسان منذ القديم، ولعبت دورا هاما في تشكيل تاريخه، وساهمت بقسط كبير في بلورة مقومات تراثه الحضاري العريق. أما ابن خلدون فيجعل المدينة تعبر عن تطور الدولة، ويربطها بالاجتماع البشري، فيقول: «أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم».⁽²⁾

وقد ورد ذكر المدينة في مواضع عدة من القرآن الكريم قد رت بأربعة عشر موضعا، ومنها قوله

قَبِيلُ لَقَانَ أَنْ يُعَاقِبَ فِي لَقَانٍ أَلَمَ يَكْرُمُ مَكْرُومُهُ فِي أَلَمَ دِينَةٍ لَتُخْرِجُوا هَهُنَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ 123. (3) ووردت أيضا بلفظ المدائن في قوله تعالى: ﴿فَرْعَوْنُ فِي أَلَمَ دَائِنِ حَاشِرِينَ﴾. (4)

¹ _ قرقوتي حنان، تخطيط المدن (العمارة والزخرفة)، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1427هـ/

2006م، ص: 13.

² _ ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص: 429.

³ _ سورة الأعراف، الآية: 123.

⁴ _ سورة الشعراء، الآية: 53.

وعرف المغرب الأوسط كغيره من الأقطار الإسلامية تأسيس مدن عدّة على مرّ العصور وتوالي الحضارات، ومنها:

1. تلمسان:

تلمسان هي كلمة بربرية مركبة من شقين: "تلم"؛ بمعنى تجمع، "سان"؛ ومعناه اثنان؛ أي الصحراء والتل، وذكرت أيضا باسم "تلشان"؛ وهي أيضا تتكون من لفظين: "تل"؛ أي لها، و"شان"؛ أي شأن عظيم.⁽¹⁾ ووردت عند ابن خرداذبة باسم "تلمسين"؛ وهي بمعنى عين؛ أي ينبوع الماء الذي تحيط به الأشجار.⁽²⁾

وتعتبر مدينة تلمسان من أهم مدن المغرب الأوسط، وذلك بفضل موقعها الجغرافي الممتاز، فهي تنتصب فوق سفح جبل، هواؤها منعش وفيه راحة للعليل،⁽³⁾ كما أنها مدينة ساحلية، تقع في أقصى الشمال الغربي من المغرب الأوسط،⁽⁴⁾ تطلّ على البحر المتوسط الذي تبعد عنه بحوالي ستين ميلا، وترتفع عن مستواه بثمانمائة وثلاثين مترا،⁽⁵⁾ متمركزة في أوائل الإقليم الرابع عند درجة طول أربعة عشر درجة و أربعون دقيقة، وفي العرض ثلاثة وثلاثون درجة واثنان وأربعون دقيقة.⁽⁶⁾ تحيط بها من الجنوب سفوح جبال الأطلس، وهي غنية بالجنان والكروم والبساتين والواحات،⁽⁷⁾ يجلب إليها الماء من عيون تسمى لوريط، تبعد عنها بحوالي ستة أميال،⁽⁸⁾ ويحيط بها من ناحية الشرق نهر ينبع من جبل يسمى الصخرتين، ويمر هذا النهر في شرق المدينة وجدت على حوافه طحونات، ومزارع

¹ _ ابن خلدون يحي، المصدر السابق، مج1، ص: 9.

² _ ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، مطبعة بريل المسيحية، ليدن المحروسة، (د.ط)، 1889م، ص: 88.

³ _ ابن خلدون يحي، المصدر السابق، مج1، ص: 9.

⁴ _ شامي يحي، موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1993م، ص: 162.

⁵ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 27.

⁶ _ ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى المغربي (ت 673هـ/1274م)، كتاب الجغرافيا، تح وت: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1970م، ص: 140.

⁷ _ شامي يحي، المرجع السابق، ص: 162.

⁸ _ البكري، المصدر السابق، ص: 76.

وجنات شاسعة تسقى من هذا النهر،⁽¹⁾ أما من ناحية الغرب فتحدّها مدينتي وجدة وتازا في المغرب الأقصى.⁽²⁾

ومما يضاف لأهميتها الجغرافية أيضا هو أنها تربط بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، فهي تقع في تقاطع الطريق الممتد من إفريقية شرقا إلى فاس غربا، والطريق الممتد من ساحل البحر المتوسط شمالا إلى سجلماسة والسودان جنوبا، وهذا ما أهّلها لتصبح أهم مركز تجاري في المغرب الأوسط آنذاك.⁽³⁾

وزيادة على هذا وذاك فتلمسان من بين المدن الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، والتي أخذ موقعها تسميات مختلفة على مرّ العصور، فمن خلال الأبحاث التي توصّل إلّا إليها المؤرخون نستنتج أنّ هذه المنطقة قد سكنها الإنسان خلال فترة ما قبل التاريخ، وهذا التجمع السكاني أطلق عليه اسم أقادير (أجادير، أغادير)؛ وتعني بالعربية جدار قديم،⁽⁴⁾ ويذكر أنّ لها علاقة بالفينيقيين.⁽⁵⁾ ومع الاحتلال الروماني للمنطقة قاموا بإنشاء مدينة بجوارها عرفت بـ"بوماريا"؛ والتي تعني البساتين أو المراعي،⁽⁶⁾ بينما جعلوا أقادير قلعة عسكرية لمراقبة القبائل الزناتية الخارجية عن سيطرتهم، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على الموقع الإستراتيجي المهم للمنطقة الذي جعل أعظم القوى آنذاك تسعى لفرض السيطرة عليها، وبانتهاء التواجد الروماني أعيد لها تسميتها القديمة أقادير.⁽⁷⁾

1 _ الإدريسي، المصدر السابق، مج1، ص: 248.

2 _ الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت أواسط ق 6هـ)، كتاب الجغرافية، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، الدّينية، بور سعيد (الظاهر)، (د.ط)، (د.ت)، ص: 114.

3 _ جورج مرسية، بلاد المغرب وعلاقاتها بالشرق الإسلامي في القرون الوسطى، تر: محمود عبد الصمد هيكّل، مرا: مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، 1999م، ص: 329.

4 _ طه ذنون عبد الواحد، التطور العمراني لمدينة تلمسان الإسلامية (دراسة في النصوص الخاصة بأغادير، تآكرات، المنصورة)، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، أيام: 3، 4،

5 أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص: 9.

5 _ بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ج1، ص: 44، 45.

6 _ المرجع نفسه، ص: 46.

7 _ براهامي نصر الدين، تلمسان الذاكرة، منشورات شالة، الأبيار (الجزائر)، ط2، 2010م، ص: 9، 48.

وبدخول الإسلام إلى أرض المغرب كان أبو المهاجر دينار أول من وطأت أقدامه أرض المغرب الأوسط، وبالضبط عند عيون تلمسان؛ والتي أخذت اسمه فيما بعد،⁽¹⁾ ومن بين القبائل التي استوطنت المنطقة بنو يفرن الزناتية، وكان قائدهم أبو قرّة آنذاك، والذي تبنى المذهب الصفري أثناء دخول الخوارج إلى المغرب، وقام بتأسيس إمارة زناتية هناك، غير أنّ هذه الأخيرة لم تعمّر طويلاً.⁽²⁾ فبقيام دولة الأدارسة في المغرب الأقصى تمكّن زعيمهم إدريس الأول⁽³⁾ من ضمّها إلى ملكه سنة 174هـ/790م، وقام بأعمال عمرانية إسلامية تعتبر الأولى من نوعها في أفادير، فقد بنى فيها مسجداً، وقام ابنه إدريس الثاني ببعض الترميمات على أسوار المدينة، وعلى الجامع،⁽⁴⁾ وبوفاة هذا الأخير انقسمت دولة الأدارسة إلى عدّة إمارات كان زوالها على يد الفاطميين الذين سيطروا على أفادير، وظلّت المنطقة محل صراع بين الفاطميين والأمويين في الأندلس، ومن ثمة الصراع الصنهاجي الزناتي.

وفي ظلّ كل هذه الظروف لم تشهد المنطقة أي إضافات عمرانية تذكر، إلى أن ظهرت دولة المرابطيين التي شملت المغرب الأقصى والجزء الغربي من المغرب الأوسط، فقام قائدهم يوسف بن تاشفين باختطاط مدينة بالقرب من أفادير وأسمّاها تافزرت⁽⁵⁾ (تافرات)؛ ومعناها المحلة⁽⁶⁾ "المعسكر"؛ والتي شهدت توسيعات عمرانية في أواخر القرن 5هـ/11م، وبداية القرن 6هـ/12م، تمثّلت في توسيع الحي السكني، وإنشاء سوق عمومية بالقرب منه، وكذا بناء مسجد جامع، والعديد من الإنجازات الحضارية التي جعلتها تتفوق على أفادير، وحتى في عهد الموحيدين لقيت المنطقة اهتماماً

¹ _ ابن عذاري المراكشي (كان حياً سنة 712هـ/1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تح ومرار: ج. س كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1982م، ص: 68.

² _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج3، منشورات الحضارة، الجزائر، (د.ط)، 2009م، ص: 133، 134.

³ _ إدريس الأول: هو إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، مؤسس دولة الأدارسة في المغرب سنة 172هـ/788م، توفي سنة 177هـ/793م. ينظر: الزركلي خير الدين، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، ص: 279.

⁴ _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص: 102، 103.

⁵ _ الحموي ياقوت، المصدر السابق، مج2، ص: 44.

⁶ _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج6، ص: 247.

واسعا في المجال العمراني؛ حيث قام عبد المؤمن بن علي⁽¹⁾ ببناء سور حول المدينة، وبناء مرفأ هنين الذي كان له الدور الفعال في تنشيط الحياة الاقتصادية.⁽²⁾

فمن خلال ما سبق التطرق إليه نستنتج أن هذه المنطقة عرفت تسميات عدة، إلا أنه ظلّ الاسم الغالب عليها هو تلمسان منذ القرون الإسلامية الأولى على حدّ تعبير المؤرخين، غير أننا لم نجد إشارات تدلّنا على تاريخ اتخاذها لهذه التسمية.

ويمكننا القول أن مدينة تلمسان تدرّجت في تطورها العمراني إلى أن بلغت أوج ازدهارها في العهد الزياني؛ بحيث أصبحت عاصمة لهم، لذا اهتمّ الزيانيون بتعميرها وتحسينها كونها كانت مستهدفة من قبل المرينيين تارة، ومن الحفصيين تارة أخرى، وخاصة في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، وابنه أبي تاشفين، هذا الأخير الذي وسّع عمرائها، وأتقن بناءها، وغرس بها البساتين والجنات،⁽³⁾ وفي ذلك يقول ابن خلدون: «إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها داراً لملكهم، وكرسيا لسلطانهم، فاختطّوا بها القصور المؤنقة، والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب».⁽⁴⁾

وإذا أردنا إعطاء مخطط للمدينة في العهد الزياني سنجد أنّها تقوم على ثلاث أحياء رئيسية: أولها الحي المركزي؛ ويضم المسجد الكبير شمالا، والمشور جنوبا، والمدرسة اليعقوبية غربا. ثمّ حي النشاطات التجارية والحرفية؛ ويحتوي على الفنادق والكثير من الدكاكين التي تحيط بشوارعه الضيقة، ويتخلّل هذا الحي سوق الغزل الذي تباع فيه النساء منتجاتهم النسيجية. وأخيرا الحي السكني؛ وهو أكبر دائرة تحيط بالمدينة، يضمّ عددا كبيرا من المنازل والدروب التي تربط بين الحارات، كما أنّهم وضعوا طرقا خاصة بالنساء، طبعا للمحافظة على الحياء وعدم الاختلاط، وهذا ما يدعو إليه ديننا

¹ _ عبد المؤمن بن علي: هو عبد المؤمن بن علي بن يعلى بن مروان بن مروان بن مادغيس بن بر بن قيس عيلان، مؤسس الدولة الموحدية، ولد في تاجرت قرب تلمسان سنة 487هـ/1094م، بويغ بعد وفاة المهدي سنة 524هـ، وتوفي سنة 558هـ/1163م. ينظر: المكناسي أحمد بن القاضي، المصدر السابق، ص: 447. الزركلي، المرجع السابق، ج4، ص: 170.

² _ براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 57، 58.

³ _ العمري، المصدر السابق، ص: 203، 204.

⁴ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 105.

الحنيف.⁽¹⁾ وبهذا نجد أن تلمسان هي إحدى أهم المدن المغربية التي كانت ولا زالت تشهد على عراقة الحضارة الإسلامية، وذلك من خلال الإنجازات العمرانية التي خلّفتها الممالك التي سيطرت عليها.

2. المنصورة:

تأسست هذه المدينة على يد المرينيين، وذلك نتيجة للصراع القائم بينهم وبين بني زيان،⁽²⁾ وتمّ بناؤها من طرف السلطان يوسف المريني⁽³⁾. وافقت المصادر⁽⁴⁾ على أنّها تأسست سنة 698هـ/ 1298م في المكان الذي نزلت فيه جيوش المرينيين، وبالضبط إلى الغرب من تلمسان، وانتهى منها سنة 702هـ/ 1302م،⁽⁵⁾ وإذا تمعنا أكثر في موقعها نجد أن المنطقة غنيّة بالمياه الجوفية والينابيع، والعيون الجارية، وذلك لقربها من هضبة لالا ستي التي تمثل خزّاناً للمياه،⁽⁶⁾ وابن خلدون يشير إلى مدى أهمية الماء كشرط أساسي من شروط تأسيس المدن في قوله: «وأما جلب المنافع والمرافق للبلد، فيراعي فيه أمور منها الماء لأن يكون البلد على نهر، أو بإزائها عيون عذبة ثرّة، فإنّ وجود الماء قريباً من البلد يسهّل على الساكن حاجة الماء، وهي ضرورة فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة».⁽⁷⁾

ويظهر من خلال الهجمات المتكررة ليوسف المريني على تلمسان أنّ بناءه للمنصورة كان ذو هدف عسكري؛ أي حتى يتمكن من حماية جيوشه المحاصرة للمنطقة،⁽⁸⁾ ولعلّ ما يؤكّد ذلك هو

¹ _ براهامي نصر الدين، المرجع السابق، ص: 124، 125.

² _ وسبب ذلك خروج أبي عامر عن والده يوسف بن عبد الحق، ولجؤه إلى بني زيان. ينظر: ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 125، 126. السلاوي، المرجع السابق، ج3، ص: 68، 69.

³ _ يوسف بن يعقوب: هو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، أحد ملوك الدولة المرينية، بويع في غرة صفر سنة 685هـ، وقتل عام 706هـ، ودفن بشالة. ينظر: ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي (ت 807هـ/ 1405م)، روضة النسر في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، (د.ط)، 1382هـ/ 1962م، ص: 21.

⁴ _ ابن بن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 127. ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 120. التنسي، المصدر السابق، ص: 131. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 387.

⁵ _ السلاوي، المرجع السابق، ج3، ص: 69. ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص: 387.

⁶ _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان (دراسة في الفكر العمراني الإسلامي وتطبيقاته العملية "عمرانا وعمارة وفنا")، وفنا"، شركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، ط2، 2011م، ص: 62.

⁷ _ ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص: 434.

⁸ _ الجيلالي عبد الرحمان، المرجع السابق، ج2، ص: 140.

إحاطتها بسور، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «فأناخوا بها [أي تلمسان] في شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة، وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها، وضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجا من الأسوار محيطة بها وفتح فيه أبواب مداخل لحربها واختط بنزله إلى جانب الأسوار مدينة سماها المنصورة»⁽¹⁾ وهناك من يضيف لذلك عدة أسباب؛ فالجانب السياسي يكمن في محاولة المرينيين ضمَّ أكبر جزء ممكن من إقليم المغرب الأوسط؛ فمنها استطاعوا إحكام السيطرة على قبائل مغراوة وبني توجين،⁽²⁾ أمّا من الناحية الطبيعية؛ فالظروف المناخية القاسية التي تعانيها المنطقة في فصلي الشتاء والصيف، هي ما دفعت بالسلطان يوسف إلى بناء المدينة لحماية جيوشه من الحرِّ والقرِّ، هذا إلى جانب سيطرة القبائل الواقعة على الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة والسودان الغربي، وسطوها على القوافل التجارية، هو ما جعل يوسف يفكر في استغلال الطريق الذي يربط تلمسان بالسودان عبر منطقة توات.⁽³⁾ وعليه فقد تعددت الأسباب التي أدت بالمرينيين إلى بناء هذه المدينة، غير أنّها فيما يبدو كان الهدف عسكريا بالدرجة الأولى.⁽⁴⁾

وحسب ما جاء في وصفها من طرف المؤرخين، فهي من المدن الإسلامية التي اشتملت على ثلاثة أقسام أساسية: الأوسط؛ ويمثّل نبض المدينة، ويضمّ الجامع الذي يمثّل مركز المدينة، والسوق الرئيسي لها، ودار الإمارة، وفي هذا القسم تلتقي الشوارع والطرق الرئيسية. ثم يأتي القسم الثاني؛ وهو أقل أهمية من القسم الأول، لكنّه أكثر اتساعا، ويشتمل على المساكن والأحياء، والطرق الفرعية والدورب المتعرجة، وكذا المساجد والحمامات والدكاكين وغيرها ممّا يسهّل حياة السكان، وهذا القسم يمثّل المساحة المحصورة ما بين مركز المدينة والأسوار المحيطة بها. أمّا القسم

¹ ابن بن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 127.

² المصدر نفسه، ص: 127.

³ عياش محمد، الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان "دراسة تاريخية وأثرية"، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، إشر: صالح يوسف بن قرية، جامعة الجزائر، 2006م، ص: 77، 78، 80، 81.

⁴ نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي، الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني (685_706هـ/ 1286_1306م) "دراسة سياسية حضارية"، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، إشر: عبد الواحد ذنون طه، جامعة الموصل، 1425هـ/ 2004م، ص: 116.

الثالث؛ فهو بمثابة حماية للأقسام السابقة الذكر؛ كونه يمثل الأسوار التي تحيط بالمدينة، وما تحويه من أبواب تسهّل الدخول إليها والخروج منها دون ازدحام. (1)

واتخذت هذه المدينة عاصمة ثانية للخليفة يوسف بن يعقوب، ويجعلها ابن خلدون غاية في التطور والعمران، فيقول: «واستفحل ملك يوسف بمكانه من حصارها واتسعت خطة مدينة المنصورة المشيّد عليها، ورحل إليها التجار بالبضائع من آفاق، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة». (2)

وقد وردت في المصادر بعدة أسماء؛ فيتفق يحيى ابن خلدون مع أخيه عبد الرحمن في تسميتها بـ"المنصورة"، (3) بينما يذكرها التنسي وابن الأحمر بـ"تلمسان الجديدة". (4)

وبمهلك السلطان أبي يعقوب سنة 706هـ/1360م انتهى الحصار المريني المضروب على تلمسان، وعاد المرينيون إلى ديارهم الأولى المغرب الأقصى، وخرج الزيانيون إلى تخريب ما شيّد به بنو مرين في المنصورهق وإن كانت المنصورة قد خربت من طرف الزيانيين إلا أن السلطان المريني أبا الحسن أعاد الكرّة في ضمّه لتلمسان، وباشر في إحياء وتجديد ما خرب منها. (5)

وعلى الممرّغان هذه المدينة اندثرت جلّ معالمها، إلا أن المؤرخين أعطونا صورة تقريبية لبعض الطرق التي كانت تمثل الشبكة التي توصل بين أقسام المدينة التي سبق التطرق إليها، ومن بين هاته الطرق، هناك طريق مبلّط، يمتد على طول امتداد الجدول المائي المنحدر من هضبة لالا ستي، ويربط هذا الطريق البوابة الشرقية للمدينة بالبوابة الغربية. كما أن هناك طرق تربط بين الشوارع الرئيسية بالبوابات الأربعة للمدينة وتتقاطع في مركزها، وإحدى هذه الطرق يربط بين الشرق والغرب، والثاني يمتد من الجنوب إلى الشمال، هذا الأخير طمست معالمه ولم يعد موجوداً الآن. (6)

ومما سبق التطرق إليه يتضح لنا أن المنصورة كانت من أهم المدن المرينية؛ بحيث سعوا ليعوّضوا بها مدينة تلمسان، ولم يوفّروا أي جهد في سبيل تطويرها، فإلى جانب تزويدها بشبكة من الطرق اهتموا

1 _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 86، 87، 90.

2 _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص: 128.

3 _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 121. ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص: 127.

4 _ التنسي، المصدر السابق، ص: 130. ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص: 69.

5 _ عياش محمد، المرجع السابق، ص: 73.

6 _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 104.

أيضا بتغذيتها بالمياه، والتي مرّت بمرحلتين: المرحلة الأولى، يتم جلب الماء من مصادره الطبيعية سواءً عن طريق السواقي أو القنوات، أما المرحلة الثانية؛ ففيها يتم إيصال الماء إلى جميع أنحاء المدينة بواسطة شبكة من الأنابيب الفخارية.⁽¹⁾

من الملاحظ أن المنصورة في بادئ الأمر أنشئت كحصن منه تنطلق العمليات العسكرية المرينية على تلمسان، لتتطور وتتسع فيما بعد، لتصبح مدينة من أهم المدن الإسلامية آنذاك.

3. العباد:

هي مدينة تقع جنوب شرق تلمسان في سفح جبل يسمى البعل، وتبعد عنها بنحو ميل،⁽²⁾ أما فيما يخص التحديد الفلكي فهي على درجة طول اثنتي عشرة درجة وخمسين دقيقة واثنتين وثلاثين درجة وعشر دقائق عرضاً،⁽³⁾ ومما جعلها تتمتع بمناظر خلابة هو إطلالتها على وادي الصفصيف، وما على ضفافه من بساتين وحدائق.⁽⁴⁾

ويقال أنها تأسست في القديم من طرف الرومان، وكان أسمها "إيميناريا"،⁽⁵⁾ وفيما بعد أخذت تسمية العباد لكثرة الزهاد والمتعبدين بها،⁽⁶⁾ لهذا نجدها تحوي العديد من الأضرحة والقبور لهؤلاء الصالحين، وعلى رأسهم أبي مدين شعيب، وهذا ما يشير إليه العبدري في قوله: «موضع يعرف بالعباد؛ وهو مدفن الصالحين وأهل الخير وبه مزارات كثيرة، ومن أعظمها وأشهرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين رحمه الله».⁽⁷⁾

وتنقسم هذه المدينة أيضا إلى قسمين: العباد السفلي؛ والذي يمثل المنطقة الممتدة ما بين عين وانزوتة إلى سيدي أبي إسحاق الطيار، واحتوت هاته المنطقة على العديد من المساجد والحمامات والأسواق، غير أنها اندثرت واختفت معالمها، ولكن لا ندري متى كان ذلك، ولا على يد من. أما

¹ _ المرجع نفسه، ص: 108.

² _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 234. ينظر: الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 24.

³ _ كريخال مارمول، المرجع السابق، ج2، ص: 323.

⁴ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 234.

⁵ _ كريخال مارمول، المرجع السابق، ج2، ص: 323.

⁶ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 234.

⁷ _ العبدري أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود (ت 725هـ/1325م)، الرحلة المغربية، منشورات بونة

للبحوث والدراسات، بونة (الجزائر)، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 28.

العباد العلوي فهو الآخر يضمّ العديد من المساجد، وأهمها مسجد أبي مدين شعيب، ومنازلها قديمة وطرقها ضيقة كثيرة التعرّجات والعقبات، وتحيط بها البساتين من جميع جوانبها.⁽¹⁾

وعليه فإنّ مدينة العبدّاد زيادة على الموقع الاستراتيجي، والجمال الطبيعي الذي تزخر به، حظيت بشرف ديني من كونها مرقدًا للعديد من العبدّاد والزهاد.

هذا فيما يخصّ المدن التي أوردت فيها المصادر تفاصيل حول أهم المنشآت المعمارية التي شهدتها المغرب الأوسط على العهد الزياني، غير أنّ هناك بعض المدن أغفلت وصفها جلّ الكتابات التاريخية، ومنها مدينة أقبو التي شيدها السلطان أبو حمو موسى الأول بنواحي بجاية، والتي لم تزل آثارها باقية إلى اليوم فلم يُذكر عنها غير هذا، إلّا أنّه وحسب التسلسل التاريخي للأحداث يظهر أنّ تأسيسها كان ما بين سنتي (714هـ/1314م _ 717هـ/1317م)؛ أي بعد تأسيس قصره المعروف "حمو موسى"، وإخضاعه لمدينتي مليانة والمدينة.⁽³⁾ ومدن أخرى أمثال: وهران، مستغانم، وغيرها من المدن التي كانت تابعة للدولة الزيانية، فبالأكيد أنّها شهدت ولو قليلا من اهتمامات الزيانيين، وربما حتى المرينيين.

¹ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 234، 235.

² _ الجيلالي عبد الرحمان، المرجع السابق، ج2، ص: 146.

³ _ بوطبل عبد القادر، تاريخ مدينة حمو موسى في الماضي والحاضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1986م، ص: 28.

ثانياً: القصور والمنازل:

1-2. القصور:

تعتبر القصور مسكن الملوك والأمراء، لذا نجدهم أولوا عناية خاصة بتزيينه بأروع التحف الفنية والزخارف؛ ليحاكي فخامة الملوك والسلاطين، والزيانيون كغيرهم من الملوك شيّدوا العديد من القصور التي كانت آية في الفن المعماري عكست تذوّقهم للفن الإسلامي الراقى، ومنها:

1. القصر القديم:

أنشئ من طرف الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين في الموقع الذي كان قد عسكر فيه لمحاصرة تلمسان سنة 474هـ/1081م، وهو بمثابة حصن يشتمل على دار الإمارة، ومستودعات وحمامات، كما ألحق به المسجد الأعظم،⁽¹⁾ وتم توسيعه على حساب القصر، هذا الأخير الذي يسمى أيضا القصر البالي، أو قصر تافرات، واتخذ الملك الزياني يغمراسن مقرا لإقامته في بادئ الأمر، إلى أن شيّد قصره المشور.

كما عرفت مدينة ندرومة قصرا يعود إلى عهد عبد المؤمن بن علي الموحدي، والذي بناه سنة 556هـ/1160م واتخذ الأمير الزياني أبو يعقوب يوسف مقرا يتعبّد فيه لمدة أربع سنوات.⁽²⁾

2. قصر المشور:

أسّسه أول السلاطين الزيانيين يغمراسن بن زيان كما ذكرنا آنفا، وكان قبل ذلك يقيم في القصر القديم "تافرات"،⁽³⁾ وأما عن سبب تأسيسه فيقال أنّه بعد إنشائه لمنارة الجامع الأعظم أصبح القصر القديم مكشوفاً، وبالتالي يمكن للمؤدّن وغيره ممن يصعد الصومعة أن يكشف عمّا يدور بداخل القصر، فوقع اختياره على المنطقة الجنوبية للمدينة، وشيّد قصره هناك، واتخذ مقرا لإقامته، وإقامة

¹ _ عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى (عصر دولة المرابطين)، ج2، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1993م، ص: 106.

² _ قدور منصورية، ندرومة دراسة تاريخية وحضارية بين القرون السابع والعاشر الهجرية (633هـ/1236م_962هـ/1554م)، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، إشر: مكوي محمد، 1433هـ/2012م، ص: 104.

³ _ ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص: 49.

خلفائه من بعده،⁽¹⁾ ولم يأخذ اسم الخليفة الذي بناه، وإنما سمّاه "المشور"،⁽²⁾ ولم تذكر المصادر تاريخ تأسيسه، إلا أنه وحسب ما ذكر تمّ ذلك بعد تجديده للمسجد الجامع.

وهو عبارة عن قلعة محصّنة مساحتها حوالي 137200م²، وله بابان؛ باب داخلي معروف بباب "المشور"، والثاني خارجي يسمى باب "التويّة"، وكان يحتوي على عدّة دور أنيقة، وحدائق بديعة، ونافورات⁽³⁾ للمياه، ومسجدا فخما، وساعة نادرة المثل "المنقّانة"، أضافه له فيما بعد السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 717هـ/1317م.⁽⁴⁾

وقد جاء وصفه لدى الحسن الوزان بنوع من الدقة: «والقصر الملكي الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير على شكل قلعة، ويضمّ قصورا أخرى صغيرة ببساتينها وسقاياتها، وكلها مبنية بكامل العناية وبأسلوب فني رائع. للقصر بابان؛ يفضي أحدهما إلى البادية تجاه الجبل، والآخر إلى قلب المدينة حيث يقيم رئيس الحرس».⁽⁵⁾

والظاهر أنّ هذا القصر الملكي يتميز عن غيره من القصور من حيث الشكل والمساحة والزخرفة؛ فقد كان مزخرفا بأساليب فنية رائعة من الرخام⁽⁶⁾ والفسيفساء⁽⁷⁾ وكذلك الثريات النحاسية التي تحمل قناديل الزيت والشموع، كما تزيّن هذا القصر نافورات للمياه، وبعض الأشجار والزهور، وقد

¹ _ فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني "دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية"، ج1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفتون المطبعية، (د.ط)، 2002م، ص: 114.

² _ المشور: سمي المشور نسبة إلى المكان الذي يعقد فيه السلطان اجتماعاته مع موظفيه لمناقشة أمور الدولة، والتشاور في أمور الرعية وقت السلم ووقت الحرب. ينظر: المرجع نفسه، ص: 115.

³ _ النافورة (Fontaine): وتسمى أيضا الفوّارة أو الفسقية؛ وهي عبارة عن حوض يتوسطه أنبوب ضيق متصل بخزان ماء مرتفع يجعل الماء يرتفع بقوة من النافورة. ينظر: بيلول جمال، المصطلحات المعمارية المدنية (عربي، فرنسي، أمازيغي)، أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، 2014م، ص: 139. أميلي حسن، معجم البناء والمعمار (عربي-فرنسي-مغربي)، (فرنسي مغربي)، دار أبي رقرق، الدار البيضاء، ط1، 2014م، ص: 98.

⁴ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 202.

⁵ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج1، ص: 20.

⁶ _ الرخام: نوع من الحجر يتكون من كربونات الكالسيوم المتبلور الموجودة في الطبيعة ويمكن صقل سطحه بسهولة. ينظر: المعجم الوسيط، ص: 336.

⁷ _ الفسيفساء هي قطع صغار ملونة من الرخام أو الحصباء أو الخرز، يضم بعضها إلى بعض فيكون منها صور ورسوم، وتستخدم للتزيين. ينظر: المصدر نفسه، ص: 688.

تأثر فيها الزيانيون بأساليب فنية أندلسية،⁽¹⁾ خاصة ذلك الحوض المبنى بالرخام، الذي يتوسط الفناء، له أربع زوايا مثلت مساحات خضراء، وأرضيته كلها مبلطة بالزليج، وهو بهذا يشبه قصور الأندلس. وشهد هذا القصر تعديلات عديدة طيلة العهد الزياني، وذلك لطبيعة الغارات المرينية المتتالية على تلمسان، ومن ذلك السلطان أحمد بن أبي حمو الثاني (834_866هـ/1430_1464م) الذي قام بتوسيعه وإعادة بناء سور عام 850هـ/1446م واضطرّ في ذلك إلى تهديم الكثير من دور الرعية التي كانت بجوار القصر.⁽²⁾

وحسب إشارات بعض المؤرخين فإنّ مهام هذا القصر اختلفت من سلطان إلى آخر، فإلى جانب وظيفته كسكن لإقامتهم، كان مقرا تعقد به الاجتماعات الخاصة بأمور الدولة، ومركزا لاستقبال السفراء والأجانب، وكذلك قاعة لتنظيم حفلات الاستقبال والسهر، وخاصة المتعلقة بالمولد النبوي،⁽³⁾ كما أنّه اتخذ في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول بمثابة معتقل لبعض القبائل التي تشكل خطرا على الدولة في نظره، وسمح لهم ببناء مساكن هناك،⁽⁴⁾ كما كان أيضا مركزا لدفن الصالحين؛ فلما توفي أبو بكر بن مرزوق دفنه يغمراسن بقصره.⁽⁵⁾

3. قصر أبي حمو:

بعد قيام الدولة الزيانية سعى ملوكها إلى إحكام السيطرة على مختلف القبائل سواءً العربية منها أو البربرية، وعلى رأسهم السلطان أبي حمو موسى الأول الذي قدم إلى منطقة الشرق الجزائري، وبالضبط في منطقة شلف لإخضاع قبائل مغراوة، فنزل بوادي نخل، وابتنى قصره المعروف باسمه "حمو

¹ _ فيلالي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 115.

² _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج3، ص: 138. فيلالي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 115.

³ _ M.l'ablé J-L. Bargès, **Complément de l'histoire Des Beni zeïyan Rois de telmcen**, Enag Edition, Algérie, 2011, p p: 154, 155 .

⁴ _ بوطارن مبارك، الموروث الإسلامي لتلمسان، (د.د.ن)، (د.م.ن)، ط1، 2011م، ص: 150.

⁵ _ ابن خلدون عبد الرحمان، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، 1979م، ص: 150.

موسى"، والذي حرّف من طرف العامة إلى "عمي موسى"، وموقعه قرب مدينة مازونة بين قبائل مغراوة شمالاً، وبني توجين جنوباً، والثعالب شرقاً (الجنوب الشرقي للموقع المعروف بعين كرمان).⁽²⁾ ولم تذكر المصادر سنة تأسيسه على وجه التحديد، إلا أنّ بعض المراجع تشير إلى أنّه بني سنة 711هـ/1311م،⁽³⁾ ولكي إذا رجعنا إلى يحيى ابن خلدون نجد أنّه يذكر أنّ أبا حمو قد زار مدينة شلف مرتين؛ الأولى سنة 712هـ/1312م وحاصر متيجة، والثانية سنة 714هـ/1314م، وذلك لما ثار راشد بن محمد المغراوي، وحينئذ ابنتى قصره هذا،⁽⁴⁾ ما عن وصفه فلم تقدم لنا المصادر أي شيء عن ذلك، إلا أنّ بعض الشعراء أجادوا في التغني به؛ فقامحمد بن يوسف الثغري:⁽⁵⁾

عَدَّ الدُّخُولَ زَهْنًا تَمَّ بِهَ وَاعْدَدَ إِلَى قَصْرِ الْإِمَامِ الْأَعْدَلِ⁽⁶⁾

4. دار السلطان:

وهو قصر صغير بناه السلطان المريني أبو الحسن بعد استيلائه على تلمسان سنة 740هـ/1339م، يقع في الجهة الشرقية لضريح سيدي بومدين، ويشتمل على ثلاثة غرف أسقفها تشكّل قبوة أسطوانية مزينة بنقوش جصّية، وفي صحن الدار حوض مستطيل الشكل يصل إليه الماء من عين في الغرفة الرئيسية، ويلحق أيضا بالقصر حمام خاص بالسلطان يحتوي على البيت الساخن، والقاعة الباردة، وحجرة تحت الأرض لتسخين المياه، كما نجد دار الحزب وهي غرفة محاطة ببوائك⁽⁷⁾ ما عدا

¹ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 129.

² _ بوطبل عبد القادر، المرجع السابق، ص: 24، 28.

³ _ المرجع نفسه، ص: 24. بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ج1، ص: 193. ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، مج7، ص: 137.

⁴ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص ص: 128، 129.

⁵ _ محمد بن يوسف الثغري: هو محمد بن يوسف القيسي التلمساني، يكنى بأبي عبد الله، والمعروف بالثغري، أديب وشاعر وكاتب، عاش أواخر القرن الثامن هجري، وكان من شعراء البلاط الزياني في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني. ينظر: نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط2، 1400هـ/1980م، ص: 62.

⁶ _ المقرئ أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج7، ص: 7، تح: إحسان عباس، دار الصادر، بيروت، (د.ط)، 1408هـ/1988م، ص: 128.

⁷ _ البوائك: هي سلسلة من العقود المتتالية في صف واحد من أجل حمل السقف. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 20.

الجهة الشرقية؛ فهي على شكل محراب يجلس فيها السلطان، وخصّصت أيضا هذه القاعة للمجالس العلمية التي كان يترأسها أبو الحسن.⁽¹⁾

5. قصر المنصورة:

بعدما فرض يوسف بن عبد الحق حصاره على تلمسان كان أول ما بدأ به بناء قصر له، إذ وصفه السلطان أبو عنان أثناء زيارته للمنصورة سنة 758/1358م بأنه من أبهى القصور وأروعها، ويذكر أنه كان به حوضين متقابلين طول أحدهما 35 متر، وعرضه ستة أمتار، فرشت أرضيته وحواشيه بالزليج،⁽²⁾ ويصفه ابن مرزوق بأنه من أحسن القصور في المشرق والمغرب والأندلس.⁽³⁾ كما بنى أيضا أيضا قصرا لزوجته الحفصية في المنصورة سنة 736/1335م.⁽⁴⁾

وحسب ما جاء في الكتابات التاريخية، فإنّ أبا الحسن المريني لمّا تمكّن من بسط نفوذه على المدينة تلمسان، اتخذ من قصر السلطان الزياني أبي تاشفين الأول مركزا يتعبد فيه، وأمر بترميمه في إثر تجديد المنصورة.⁽⁵⁾

وبصفة عامة فقد أخذ السلاطين الزيانيون على عاتقهم مهمة تشييد القصور طيلة تواجدهم هناك، وخاصة في الفترات التي عرفت الاستقرار الداخلي، ولعلّ هذا ما عبر عنه المقرئ في قوله: «وبها للملك قصور زهرات اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة».⁽⁶⁾

هذا غير أنّ المؤرخين لم يقدّموا لنا أي شيء عن هذه القصور، لا عن شكلها، ولا بنائها ولا زخرفتها، فلم تذكر غالبا إلاّ أسماؤها، وأحيانا لم تذكر إلاّ تبعا لاسم خليفة في خضم الحديث عن مساره التاريخي، والسبب في ذلك واضح؛ وهو أنّ هذه المنشآت بصفة عامة، ولا سيما القصور

¹ _ براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 195.

² _ طه ذنون عبد الواحد، المرجع السابق، ص: 26.

³ _ ابن مرزوق أبي عبد الله محمد الخطيب (ت781هـ)، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، درا وتح: ماريّا خيسوس بغيرا، تنجّمود بوعباد، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، (د.ط)، 1401/1981م، ص: 447.

⁴ _ براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 181.

⁵ _ طه ذنون عبد الواحد، المرجع السابق، ص: 25.

⁶ _ المقرئ، نفح الطيب، مج7، ص: 134.

كانت معرّضة للدمار من قبل أعدائهم المرينيين، فلم يجد المؤرخون ما يصفونه غير تلك التي لا تزال آثارها باقية أو اندثرت بعدهم.

فمثلا السلطان أبو تاشفين الأول قلحّر طاقة كبيرة من أهل الأندلس من نجّارين وبنّائين وزوّاقين للبناء والتشييد،⁽¹⁾ فكما يقول عنه يحيى بن خلدون: «ولع ببناء الدور وتججير القصور»،⁽²⁾ ومن هذه القصور نجد: دار الملك،⁽³⁾ الدار البيضاء ودار السرور، كما أسّس قصرا يعرف بـ"أبي فهر" بموقع تفرغينو على أنقاض مسجد كان هناك.⁽⁴⁾ وقد سبقه أبوه أبو حمو في الاهتمام ببناء القصور، فبالإضافة إلى قصره السالف الذكر "حمو موسى" لا شكّ في أنّه عرف عصره تشييد قصور أخرى، بحيث استدعى إلى ذلك المهرة والصنّاع من الأندلس، فأجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين، غير أنّ هذه القصور أسرع إليها الخراب من طرف أبي العباس صاحب المغرب بعد استيلائه على تلمسان.⁽⁵⁾ تلمسان.⁽⁵⁾ ما عن رجال الدولة من الولاة والوزراء والكتّاب وغيرهم فقد كانت قصورهم أصغر من القصور الملكية، لا من حيث الشكل ولا من حيث الزخرفة.⁽⁶⁾

وهكذا فقد تنافس الزيانيون والمرينيون على ترسيخ نفوذهم بالمنطقة انعكس عليها إيجابا؛ بحيث حفلت عاصمة الدولة الزيانية بالعديد من المنجزات المعمارية، وعلى رأسها القصور لما تحمله هاته الأخيرة من عناصر جمالية تعبرّ عن تطور كلا الدولتين في المجال العمراني.

2-2. المنازل:

إن حاجة الإنسان إلى المأوى جعلته يفكر في اتخاذ بعض الأماكن كمسكن له يقيه من قساوة الطبيعة، وهذا ما ندلّل عليه بقول ابن خلدون: «وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في

¹ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 115، 116. الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، تق وتض: محمد الميلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د.ط)، (د.ت)، ص: 485، 486.

² _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 134.

³ _ النميري ابن الحاج أبو القاسم برهان الدين إبراهيم بن عبد الله الغرناطي (ت بعد 774هـ)، فيض العباب وإفاضة قدّاح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قسنطينة والزّآب، درا وإع: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1990م، ص: 486.

⁴ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 116، 117. التنسي، المصدر السابق، ص: 140.

⁵ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 190، 191.

⁶ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 115.

عواقب أحواله لا بدّ أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحرّ والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها»⁽¹⁾.

ومع مرور الزمن عمل الإنسان على تطوير مسكنه ليتماشى مع متطلباته، ويوفّر له أكبر قدر من الراحة، وطبيعة البشر الاجتماعية فرضت عليهم العيش في مجتمعات سكنية، أصبحت فيما بعد مدن يرتبط تطوّرها بمدى اتساع عمرانها، بينما البدو الرحل ضلوا يسكنون الخيم، هذا لطبيعة ترحالهم التي ترتبط أشد الارتباط بمواطن الكلاء، لاعتمادهم على الرعي بالدرجة الأولى.

ومدينة تلمسان باعتبارها عاصمة المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة، شهدت اتساعا كبيرا في مجال العمران، حتى أصبحت تضمّ ستة عشر ألف منزل في عهد السلطان أبي تاشفين، غير أن الحروب المتتالية التي شنها بنو مرين على تلمسان، والحصار الذي ضيق الخناق على سكّانها، وما ترتّب عنه من كوارث بشرية، أثّر سلبا على عمرانها فتراجع إلى حد كبير، وانخفض عدد السكان، ولكن بضعف بني مرين انتعشت المنطقة من جديد، وازداد سكّانها حتى بلغ ثلاثة عشر ألف منزل⁽²⁾.

فعلى الرغم من الاضطرابات السياسية التي عانت منها المنطقة، إلّا أنّها عرفت تطورا ملحوظا في بناء المنازل؛ وهذا إنّما راجع إلى حنكة السلاطين الزيانيين الذين عملوا جاهدين على توسيع عمران المدينة وتطويره، لتضاهي بذلك تلمسان كبرى الحواضر الإسلامية بالرغم من كل المعوّقات.

ومن بين الانجازات التي انفرد بها بنو زيان هي القصبة، التي قال عنها ابن خلدون: «وهي الغور الفسيح الخطة تماثل بعض الأمصار العظيمة اتّخذها للرهن»⁽³⁾ فالقصبة إذن هي حي بناه السلطان أبو حمو موسى الأول، وأسكنه بالرهائن الذين جلبهم من مختلف القبائل والتجمعات السكنية، ليضمن بذلك ولاءهم له،⁽⁴⁾ وسمح لهم ببناء المنازل والمساجد، وممارسة المهن المختلفة لكسب العيش، كما زوّده أيضا بالأسواق⁽⁵⁾.

¹ _ ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص ص: 509، 510.

² _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج1، ص ص: 17_19.

³ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 139.

⁴ _ براهيمى نصر الدين، المرجع السابق، ص: 66.

⁵ _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص: 139.

وبهذا الوصف تكون قطيبة من أغرب السجون في تلك الفترة، وهذا ما صرح به ابن خلدون عندما قال: «وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكى في العصور عن السجن»⁽¹⁾ غير أن المصادر لم تتحدث عن موقع هذه القسبة، ولكن يبدو أنها بالقرب من قصر المشور من الجهة الغربية ناحية حي المطمر ليسهل مراقبتها من طرف الجند.⁽²⁾

كما عرفت مختلف العناصر الوافدة إلى المنطقة بناء مساكن لإيوائهم، فهذا السلطان يغمراسن قد أجاز لليهود إقامة حي مخصص لهم، وكذا بناء ثلاث بيعة لممارسة شعائرهم الدينية، واقتدى به السلطان أبو سعيد عندما منح المسيحيين الحق في بناء كنيسة داخل القيصارية سنة 685هـ/1286م، وكل هذا يدخل في إطار توسيع المدينة من خلال زيادة عمرائها وعدد سكانها، وإن لم يكونوا من أهل المنطقة، فارتفاع عدد السكان يتطلب المزيد من المنشآت العمرانية تماشياً مع متطلباتهم.

وإذا أردنا الغوص أكثر في المنجزات المعمارية خلال هذه الفترة، نتحدث عن المنازل من كونها أهم عناصر المدينة وأكثرها عددا مقارنة بالمنشآت الأخرى، ومن أجل إيضاح الصورة أكثر رأينا أن نعرض على ذكر أهم مكونات المنزل الإسلامي؛ لأنها تتماثل من حيث ملامحها العامة سواء في المشرق أو المغرب، وهي كالآتي:

المدخل؛ ويسمى أيضا الدهليز، ويكون في الغالب مستطيل الشكل منكسرا، وذلك من أجل حجب أهل المنزل من الداخل عن أعين المارة، وقمته في العادة مقوسة محمولة على مقرنصات.⁽³⁾

الفناء؛ وهو المكان غير المسقوف تحيط به الغرف والحمام، ومنه تستمد الضوء والتهوية، ويتوسطه في الغالب بئر أو نافورة لتزويد المبنى بالماء، وتغرس مساحة منه من أجل تلطيف الجو.⁽⁴⁾ الأروقة؛ وهي ممرات مكشوفة الوجه مغطاة بسقف يحتوي على مجموعة من العقود توضع أمام الغرف، سواء في

¹ _ المصدر نفسه، ص: 139.

² _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 118.

³ _ بريشي درويش، تطور المسكن الإسلامي في مدينة تلمسان "دراسة فنية أثرية"، رسالة ماجستير، إشر: معروف بالحاج، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2012م، ص: 23.

⁴ _ فريد محمود الشافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، (د.د.ن)، (د.م.ن)، (د.ط)، (د.ت)، ص: 9، 10، 254.

الطابق الأرضي أو العلوي.⁽¹⁾ **الغرف** تكون في الغالب واسعة يزيّن سقفها بالخشب المنقوش، طبعاً هذا يتوقف على الحالة الاجتماعية لصاحب المنزل، فإذا كان فقيراً فسقفه سيغطي بالقش والطين، وأعشاب النباتات،⁽²⁾ ولجرت العادة أيضاً أن تبنى غرف على سطح المنزل تطلّ على المدينة تخصّص في الغالب للنسوة ليستريحن بها.⁽³⁾ **المشربيات**؛ وهي نوعان؛ منها ما هو بارز عن الجدار كالشرفات، أو تكون على مستوى الجدار، وتصنع من الخشب والزجاج لرد البرد في فصل الشتاء، وتكمن أهميتها أيضاً في إدخال الهواء وتلطيف الجو.⁽⁴⁾

وهناك بعض العناصر التي تتوفر عليها بعض المنازل، في حين تفتقد إليها أخرى، ومنها: **الإيوان** وهو مساحة مسقوفة تطلّ على الفناء، ليس لها واجهة أمامية، يكون في الغالب مربع الشكل، يستعمل للقليلة في أيام الحر. **القبو**؛ ويوجد في العادة في مستوى أقل عن البيت، وغرضه الرئيسي هو أنه يعطينا مساحة تقل فيها درجة الحرارة، ويزوّد بنوافذ لهذا الغرض.⁽⁵⁾

كما نجد أيضاً بعض القوانين التي كانت تحكم بناء المنازل ومنها مثلاً: إذا أراد الجار أن يرفع بنيانه إلى طابقين أو ثلاثة عليه أن لا يضع نوافذ وأبواب يستطيع من خلالها أن يكشف حرمة جاره،⁽⁶⁾ وهذا ما تمليه الشريعة الإسلامية التي تدعو للحفاظ على الحرمات، والدليل على ذلك هو أمر الخليفة عمر بن الخطاب والي مصر عمر بن العاص أن يراعى في بناء المساكن إذ زاد ارتفاعها عن طابقين، أن ترفع النوافذ في الطابق الثاني على مستوى عالٍ؛ حتى لا يستطيع صاحب البيت أن يطلّ على جاره.⁽⁷⁾

1 _ بريشي درويش، المرجع السابق، ص: 26.

2 _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 120.

3 _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج1، ص: 223.

4 _ فريد محمود الشافعي، المرجع السابق، ص: 256، 257.

5 _ بريشي درويش، المرجع السابق، ص: 26.

6 _ ابن الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي (ت 486هـ)، وثائق في شؤون العمران في الأندلس (المساجد والدور مستخرجة

مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى)، تح: محمد عبد الوهاب خلاف، مرا: محمود علي مكّي ومصطفى كامل إسماعيل، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ط1، 1983م، ص: 104.

7 _ فريد محمود الشافعي، المرجع السابق، ص: 9.

ومن أجل إعطاء صورة تقريبية لتخطيط المنازل في المغرب الأوسط خلال القرون الوسطى، حاولنا إدراج بعض النماذج لبيوت من مدينة تلمسان، والمناطق المجاورة لها:

1. منزل بالرحيبة⁽¹⁾

ويعود إلى القرن 7هـ/13م؛ أي في عهد السلطان يغمراسن؛ وهو مستطيل الشكل له مدخل منكسر، والغرض منه الحفاظ على حرمة أهل الدار، أما فناءه فهو الآخر مستطيل الشكل تبلغ مساحته 26.98م² مفروش ببلاطات مربعة⁽²⁾، ويحفّ بالفناء خمس غرف تختلف مساحاتها، وفي الجهة الشمالية الشرقية من الفناء نجد بئرا، وهذا شائع في جل المنازل القديمة، ومدخل إحدى الغرف قد زيّن بعقد حداوي⁽³⁾، كما وضعت كوة⁽⁴⁾ على أحد جدران الغرفة من الداخل، ربما كانت توضع عليها القناديل أو الشموع.

ويلاحظ وجود رواق بين غرف الجهة الشرقية مرفوع على عمود مربع الشكل، ويجاوره جدارين، وقد زيّن في الأعلى بعقدين⁽⁵⁾ أحدهما كبير، والآخر أصغر حجما يعلو مدخل السلم المؤدي إلى السطح، وفي الجهة الغربية أيضا نجد رواق بني بنفس الشكل.

والملاحظ أن الغقفزو⁽⁶⁾ دت بنوافذ تطلّ على الفناء، من أجل تهويتها وإنارتها، ويتكون البيت من طابقين، يوصل إلى الطابق العلوي سلم، وبعد ثلاث درجات من السلم نجد غرفة صغيرة يمكن الوصول إليها بعتبة تستخدم لتخزين المؤونة⁽⁶⁾ وهذا أمرا طبيعيا أملت الظروف القاسية التي تعرّض إليها تلمسان من جراء الحصار الذي فرضه بنو مرين عليها⁽⁷⁾. وفي الطابق الثاني نجد أيضا فناء

¹ _ الرحيبة: هي الساحة التي يتجمع فيها الناس بهدف البيع والشراء، وربما الرحيبة هي تصغير لكلمة الرحبة. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 57.

² _ بلاط: ويقصد به ما تفرش به الأرض من الحجارة، وبلّط الجدار؛ جعله أملس. ينظر: المرجع نفسه، ص: 24.

³ _ عقد حداوي: هو عقد مستدير يتجاوز محيطه نصف محيط الدائرة سادة اعتماده في العمارة المغربية الأندلسية. ينظر: المرجع نفسه، ص: 87.

⁴ _ كوة (Niche, Bais): هي عبارة عن فتحات حائطية غائرة تستخدم في خزن الكتب أو وضع بعض الأواني للترزين. ينظر: المرجع نفسه، ص: 105.

⁵ _ عقد: هو عنصر معماري مقوس من قطع حجرية ملتصقة، يعتمد على نقطتي ارتكاز، ويشكل عادة فتحات البناء أو يحيط بها، وهو نوعين؛ أحدهما نصف دائري، والآخر حاد الرأس. ينظر: المرجع نفسه، ص: 86، 87.

⁶ _ بريشي درويش، المرجع السابق، ص: 77-91.

⁷ _ التنسي، المصدر السابق، ص: 132، 133.

تبلغ مساحته 91.34م²؟ يشتمل على غرفتين، ويحيط به جدار يقدّر ارتفاعه بحوالي 1.10متر، تتخلله ثلاث فتحات من جهاته الأربع للزينة والتهوية.⁽¹⁾

2. إحدى منازل المنصورة:

وهو من المكتشفات المعمارية التي كشفت عنها إحدى الحفريات، وعلى الرغم من أن الحفارة هدّمت جزءاً منها، إلا أنّ هذا لا يمنع من إعطاء الشكل العام لهذا المنزل؛ فهو مستطيل الشكل، بني بالطابية والحجارة، ويحتوي على فناء تحيط به أروقة من جميع جهاته، ويبلغ اتساع كل رواق ما بين 1.50متر إلى 1.85متر، ورواقان آخران؛ شمالي وجنوبي، واللذان يطلان على الفناء بعقدتين، كما يشتمل البيت على أربع غرف موزعة على جهاته الأربعة، يفصلها عن الفناء الأروقة السابقة الذكر، وعلى ثمانية أبواب داخلية، فالأبواب الأساسية يقدر اتساعها بـ 1.60متر، أما الأبواب الثانوية فتكون أقل اتساعاً أي 1متر.

كما كشفت الحفريات على وجود غرف ملحقة للبيت يرجّح أنّها مطبخ وغرفة للغسيل، وربما حمام منزلي،⁽²⁾ والكنيف،⁽³⁾ أما فيما يخص تبليط الأرضيات، فقد بلطت بالزليج خاصة عتبات الأبواب.⁽⁴⁾

ومن خلال هذه النماذج نستنتج أنّ هناك تشابهاً من حيث تخطيطها العام، فكلها تحتوي على صحن تحيط به الغرف، ويتقدم هذه الغرف أروقة مسقوفة مرفوعة بدعامات، كما يتوفر الصحن على بئر في الغالب، ونجد الممرّ المؤدي إلى داخل البيت منكسراً دائماً حفاظاً على حرمة أهل البيت، وهذا إن دلّ على شيء، إنّما يدل على أنّ المجتمعات في العصر الوسيط كانت محافظة على التقاليد الإسلامية في مختلف منجزاتها المعمارية.

¹ _ بريشي درويش، المرجع السابق، ص: 93، 94

² _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 205، 207_209، 230.

³ _ الكنيف: هو مرحاض، كما يطلق أيضاً على حظيرة لإيواء الماشية. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 105.

⁴ _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 231.

ثالثا: الحمامات والفنادق:

3-1. الحمامات:

يعتبر الحمامّ من المرافق العامة التي عرفت بها البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب، وذلك لما له من علاقة كبيرة بالطهارة في الدّين الإسلامي، فقد أخذ ملوك الدول الإسلامية على عاتقهم مهمة بناء الحمامات، وصولا بذلك إلى أواخر القرون الوسطى الذي تزامن مع الدول الزيانية في المغرب الأوسط، بحيث لم يخرج هؤلاء عن الإطار العام للدول السابقة؛ لذا نجد العديد من الحمامات منها:

1. حمام سيدي أبي مدين: ويتكون من سقيفة⁽¹⁾ بها قاعة مستطيلة الشكل، طولها 8 متر، وعرضها 6 متر، وثلاث غرف متوازية يعلوها سقف أسطواني الشكل.⁽²⁾

2. حمام العالية:

وهو بالقرب من باب الحديد، وتمّ ذكره في وثائق الأوقاف التي وضعها السلطان أبو حمو موسى الثاني،⁽³⁾ ويصفه الرحالة العبدري الذي وفد إلى تلمسان عام 688هـ/1289م وأقام به على أنّه من أجمل الحمامات في ذلك العصر فيقول: «وبه حمامات نظيفة، ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية، وهو مشهور قلّ أن يرى له نظير».⁽⁴⁾

3. حمام الطبول: ورد ذكره في الأوقاف التي أصدرها أبو حمو موسى الثاني في شأن المدرسة اليعقوبية.⁽⁵⁾

3-2. الفنادق:

نظرا لما تتمتع به مدن المغرب الأوسط بصفة عامة من أهمية حضارية واقتصادية، ومدينة تلمسان خاصة وإذا اعتبرناها عاصمة له آنذاك، فهي حاضرة علمية يقصدها الطلبة والعلماء للدراسة والتحصيل، وكذلك مركزا تجاريا هاما تربط بين الشرق والغرب، إضافة إلى موقعها السياحي الهام،

¹ _ سقيفة (porticustempli): هي مكان مسقوف أو رواق في مسجد أو دار. ينظر: سالم عبد العزيز، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص: 347.

² _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 140.

³ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج3، ص: 142.

⁴ _ العبدري للرّحلة المغربية، ص: 21، 28.

⁵ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 140.

فبال تأكيد سوف تشهد قيام فنادق ومراكز لإيواء الغرباء من العلماء والتجار سواءً كانوا مسلمين أو مسيحيين.

وهكذا فقد عرفت تلمسان وغيرها من المدن المجاورة لها بناء الفنادق خلال العهد الزياني منذ قيامها على يد الخليفة يغمراسن بن زيان؛ إذ قام بتوسيع الدولة من الجهة الشرقية تحسباً لاستقبال العائلات الأندلسية،⁽¹⁾ وقام ابنه عثمان من بعده بعقد معاهدة تجارية سنة 685/1286م بينه وبين ألفونس ملك أراغون تم بموجبها منح المسيحيين خاناً⁽²⁾ يقع بمدينة وهران،⁽³⁾ وربما يكن هو الذي ذكر باسم فندق "مرسيليا"،⁽⁴⁾ وهذا ما يؤكد الحسن الوزان عندما يتحدث عن مدينة وهران بأنها تتوفر على فنادق محاطة بأسوار عالية.⁽⁵⁾

ومع الازدهار التجاري الذي عرفته المدينة خلال القرن الثامن 8هـ/14م قام السلطان أبو حمو الأول بتهيئة المدينة عمرانياً مع تخصيص جزء كبير من الجزء الشمالي والجنوبي للتجار الوافدين إليها.⁽⁶⁾ وتنتهي الإقامة بانتهاء أشغالهم. ومع أواخر العهد الزياني ظهر بأوربا عدة شركات اقتضت وجود ممثلين لها في الدول المتعاملة معها، ومن ذلك القطالوينوالجنوبيين والبنادقة والميورقيين الذين كانت لهم مؤسسات تجارية لاحتكار تجارة الذهب والعبود التي يتم جلبها من السودان، والدولة الزيانية من أهم الدول التي حرصوا على توطيد العلاقات التجارية معها.⁽⁷⁾

ونظراً لارتباط اسم الفندق بالتجارة خاصة؛ فقد كانت تبنى الفنادق بالقرب من الأحياء التجارية وبعيدة عن السكان، ولقد احتفظت لنا الوثائق بذكر بعض الفنادق؛ ومنها فندق "الشماعين"؛⁽⁸⁾ وربما سمي بذلك لوجوده بسوق مخصصة لصناعة الشمع، وكذلك فندق

¹ _ نقادي سيدي محمد، التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي، مجلة أفكار وآفاق، ع3، جانفي-جوان 2012م، ص: 170.

² _ الخان: لفظة فارسية؛ تفيد مكان مبيت المسافرين. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 46.

³ _ صاري جيلالي، تلمسان الزيانية، دار القصبة للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 49.

⁴ _ شقدان بسام كامل عبد الرزاق، تلمسان في العصر الزياني (633-962هـ/1235-1555م)، رسالة ماجستير في

التاريخ، إشر: هشام أبو رميله، جامعة النجاح الوطنية، نابلس (فلسطين)، 1422هـ/2002م، ص: 206.

⁵ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 30.

⁶ _ نقادي سيدي محمد، المرجع السابق، ص: 170.

⁷ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 53.

⁸ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 136.

"المجاري"، والذي يقع بالقرب من مسجد ابن البناء،⁽¹⁾ وفندقين آخرين، ولكن دون ذكر لاسمهما؛ وهما مخصصان لتجّار جنوة والبندقية، كما يذكر يحيى بن خلدون كذلك في معرض حديثه عن ابن خميس الذي أقام بأحد فنادقها مع ضيف له، والذي يصفه بأنّه من أحسن الفنادق، ولكن دون ذكر لاسمه.⁽²⁾

ولقد جاءت بعض الدراسات المتخصصة في الفترة الزيانية بوصف هذه الفنادق، وذكر نماذج غير تلك المتناولة في دراسات أخرى، وعلى ما نظنّ هي التي ذكر أنّها للتجار الجنوبيين والبنداقية، والتجار الاسبانيين الذين جمعهم معاهدات تجارية بالملوك الزيانيين وهي:

1. فندق الرمانة:

أقامه التجار الإسبانيون بمحاذاة السوق القيسارية بمقتضى معاهدة تجارية أقامها السلطان عثمان بن يغمراسن مع مملكة الأرقون سنة 685هـ/1286م التي سمحت لهم بإقامة فندق من أجل تسويق منتوجاتهم النسيجية،⁽³⁾ ومساحته حوالي 20متر، وسمي بذلك نسبة إلى شجرة رمان كانت تتوسط مسطبة المركزية، وكانت هذه الأخيرة تستعمل لعرض منتوجات دور الدباغة.⁽⁴⁾ أما فيما يخصّ الوصف العام له؛ فهو يشتمل على مدخل ضيّق مقارنة بالفنادق الأخرى، ولا وجود للإسطبل به، ويتكون من طابقين: الطابق الأرضي؛ وبه رواق واحد فقط، الجهة اليسرى منه بها دكانا يعتبر امتدادا لدكانات المدخل، أما الجهة اليمنى منه فتحتوي على الوجاق،⁽⁵⁾ أما الحوانيت الحوانيت الموجودة به فهي تطلّ مباشرة على الساحة الوسطى للفندق. ويتوفر على سلّم حجري للصعود إلى الطابق العلوي، ويتكون هذا الطابق من حجرتين كبيرتين مخصصتين للنوم الجماعي؛ واحدة على يسار الدرج، والثانية على يمينه؛ والتي طولها يساوي عرض المبنى كلّها، وعرضها مساوٍ

¹ _ حساني مختار، تاريخ الجزائر الوسيط، ج5، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، (د.ط)، 2013م، ص: 226.

² _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 40.

³ _ بلعربي خالد، الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، دورية كان التاريخية، ع6، ذو الحجة 1430هـ/ ديسمبر

2009م، ص: 33. براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 65.

⁴ _ بلوط عمر، فنادق مدينة تلمسان الزيانية "دراسة أثرية"، مؤسسة الضحى للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م، ص:

98.

⁵ _ الوجاق: هو موقد يستخدم لطهي المشروبات كالقهوة والشاي. ينظر: المرجع نفسه، ص: 100.

لعرض سقيفة المدخل والرواق معا، ولها ثلاثة نوافذ؛ واحدة تطلّ على الشارع، والأخرتان تطلان على الساحة الوسطى.⁽¹⁾

2. فندق أبي علي:

وهو أكبر فندق يعود إلى الفترة الزيانية، مساحته 200م²، يفتح مدخله على سقيفة سقفها من الخشب، وأرضيتها شبه ترابية، وفي آخر الجهة الجنوبية لهذا الجدار انكسار به غرفة تؤدي بنا إلى النزول إلى دكان، وأمّا الجدار الشمالي فينكسر في آخره على باب يؤدي بنا إلى غرفة تستخدم لحفظ السلع. ويحتوي الطابق الأرضي منه على سبع غرف من الجهتين الغربية والشمالية كانت تستخدم لحفظ سلع التجار، وبالجهة المقابلة لها مرابط للحيوانات. ثمّ نصل إلى الطابق العلوي عن طريق سلم به ستة عشر درجة تتوزع به غرف لإقامة التجار على جهاته الثلاث الجنوبية، الشرقية والغربية.⁽²⁾ وكما قام المرينيون أيضا بإنشاء فندقين؛ الأول بمدينةهم المشهورة المنصورة،⁽³⁾ والثاني في قرية العباد على حسب ما وجد منقوشا على رخامة كانت في الفندق؛ والذي اشتهر خاصة بإقامة طلبه العلم به الذين يزاولون دراستهم بمدرسة سيدي بومدين.⁽⁴⁾

وما يمكن قوله هو أنه، ولو أن هذه الدراسات جاءتنا بالجديد على ما هو متناول، وقامت بدراسته دراسة وصفية تحليلية، إلا أن عدم ذكر الفترة الزمنية من عمر هذه الدولة جعلتنا نطرح الكثير من التساؤلات: من قام بهذه المنشآت؟ وما علاقتها بتلك التي ذكرتها الدراسات الأخرى؟

¹ _ بلوط عمر، المرجع السابق: 98، 99.

² _ المرجع نفسه، ص: 103، 104.

³ _ التنسي، المصدر السابق، ص: 130.

⁴ _ حساني مختار، تاريخ الجزائر الوسيط، ج5، ص: 227. الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 24.

المبحث الثاني: المنشآت الدينية والتعليمية

أولاً: المساجد والأضرحة:

1-1. المساجد:

للمساجد مكانة خاصة لدى المسلمين؛ فهي بيوت الله التي ورد ذكرها في مواضع عدة من القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قِيمُ حُكْمِهِ فِي اللَّهِ﴾ (1) لَمْ يَجِدْ أُسُسَ عَلَى التَّقْوَى

فهي بحق تمثل رمزا من رموز الإسلام، فلا يكاد يخلو مصر من الأمصار من ذلك المبنى الراقي بمئذنته الشاهقة، والتي تجعل منه معلما من خلاله يهتدي به زائر المدينة إلى وجهته.

والمغرب الأوسط كغيره من الأقطار عرفت على أرضه العديد من المساجد، سواء كانت من إنجاز الزيانيين أو المرينيين أو في فترات سبقتهم، إلا أن تذوقهم للفن المعماري جعلهم يضعون بصماتهم على هاته العمارة المقدسة، ومنها:

1. المسجد الجامع بأفادير:

يعود تأسيسه إلى عهد دولة الأدارسة على يد أول ملوكها إدريس بن عبد الله (إدريس الأكبر)، لما تم له فتح تلمسان سنة 173هـ/789م، (2) بينما يذكر ابن أبي زرع أن دخوله إلى المدينة وبناء المسجد كان سنة 174هـ/790م، وحسب الاختلاف الطفيف بين الروايتين أنه ابتداء أمر بنائه سنة 173هـ/789م، وانتهى منه سنة 174هـ/790م وذلك من خلال ما يصرح به في قوله: «وبنى مسجدها وأتقنه، وصنع فيه منبرا وكتب عليه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك في شهر صفر

¹ سورة التوبة، الآية: 108.

² ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج4، ص: 17. ابن الخطيب لسان الدين ذي الوزارتين (ت 776هـ/1374م)، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام)، تعجم مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، (د.ط)، 1964م، ص: 192.

سنة أربعة وسبعين ومئة»⁽¹⁾ وقام من بعده ابنه إدريس الثاني (إدريس الأصغر) بتجديده سنة 199هـ/814م وأعاد منبره، وكتب عليه اسمه.⁽²⁾

ولم يعرف هذا المسجد أي إضافات في عهد الموحيدين إلى أن تولى الزيانيون الحكم، بحيث حظي بعناية أول سلاطينهم يغمراسن بن زيان الذي قام ببناء صومعته،⁽³⁾ إلا أن المصادر لم تذكر السنة التي تم فيها ذلك، وبلغ ارتفاعها 40متر، وهي من طراز مغربي.⁽⁴⁾

2. المسجد الأعظم بتاقرارت:

لما تولى يوسف بن تاشفين أمور المرابطين شرع في التوسع شرقا على حساب أراضي بني حماد حتى وصل إلى الجزائر، وهكذا انقسم المغرب الأوسط إلى قسمين؛ قسم شرقي تحت حكم بني حماد، وقسم غربي تحت حكم المرابطين، وفي هذه الفترة بنى يوسف بن تاشفين العديد من المساجد التي مازالت تخلّد حضارة المرابطين في المنطقة.⁽⁵⁾

ومن بين هاته المساجد المسجد الأعظم بتاقرارت الذي بناه سنة 473هـ/1080م عند استيلائه على تلمسان وتأسيسه لمدينة تاقرارت،⁽⁶⁾ يقع بالضبط في وسط مدينة تلمسان غرب قلعة المشور على أرض شبه مائلة،⁽⁷⁾ وقام ابنه علي⁽¹⁾ بإعادة ترميمه وتزيينه سنة 530هـ/1135م الذي أضفى عليه الصبغة الأندلسية.⁽²⁾

¹ _ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 21.

² _ الجزنائي علي (من علماء ق 8هـ)، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تح: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1411هـ/1991م، ص: 27. ينظر: ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 102، 103. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 50.

Evocation sur son Passé, Enag Edition, Algérie, ³ _ R.P.Gthéry.O.P, Telmcen 2011, P P: 65, 66.

⁴ _ ابن الأحرر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص: 49.

⁵ _ سالم عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1999م، ص: 629.

⁶ _ بالأعرج عبد الرحمن علاقات دول المغرب الإسلامي بدول الممالك سياسيا وثقافيا بين القرنين السابع والثامن هجريين (7_9هـ/13_15م)، أطروحة دكتوراه في المغرب الإسلامي، إشر: مبخوت بودواية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1434هـ/2013م، ص: 149.

⁷ _ بوعزيز يحي، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، منشورات ANEP، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 111.

وهو مستطيل الشكل يقدّر طوله 55 متر، وعرضه 50 متر، وببيت صلاته أيضا مستطيل، يشتمل على ثلاثة عشر بلاطة⁽³⁾ عمودية على جدار القبلة، والبلاطة الوسطى أكثر اتساعا، إذا ما قورنت بباقي البلاطات، تعلوها قبّتان؛ الأولى فوق المحراب،⁽⁴⁾ والثانية شمال المسجد،⁽⁵⁾ وتقوم عقود المسجد على خمسة صفوف من الدعائم، يحتوي كل صف على اثني عشر دعامة،⁽⁶⁾ هاته الدعائم قسّمت بيت الصلاة إلى ستة أساكيب،⁽⁷⁾ يفصل بين كل ثلاثة أساكيب دعائم تستند عليها عقود متعددة الفصوص،⁽⁸⁾ وسقفه مصنوع من الخشب يشبه مسجد قرطبة.⁽⁹⁾

أما صحنه فهو مربع الشكل، وفي الجهة الغربية له توجد محبنة⁽¹⁰⁾ تتكون من أربع بلاطات، والمحبنة الشرقية فتتكون من ثلاث بلاطات، وهي امتدادا لبيت الصلاة،⁽¹¹⁾ ووراء قاعة الصلاة نجد

¹ _ علي بن يوسف بن تاشفين: ولد بسبّطة سنة 477هـ، ويوبع يوم موت أبيه سنة 500هـ، سيطر على الكثير من مدن المغرب والأندلس، وفي سنة 514هـ ظهر عليه أمر الموحدين، فاضطرب عليه الأمر إلى أن توفي بمراكش سنة 537هـ. ينظر: السملالي، المرجع السابق، ج9، ص: 44_47.

² _ لعرج عبد العزيز محمود، جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجامعي تلمسان الكبير وسيدي بلحسن، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال ملتقى دولي بتلمسان، أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، (د.ط)، ص: 211.

³ _ **البلاطة**: وهي الممر العمودي على جدار القبلة. ينظر: الحداد محمد حمزة إسماعيل، دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، زهراء الشرق، القاهرة، ط3، 2008م، ص: 43.

⁴ _ **المحراب**: هو التجويف الموجود في جدار القبلة على بمين المنبر. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 113.

⁵ _ عثمان عثمان إسماعيل، المرجع السابق، ج2، ص: 146، 147.

⁶ _ **دعامات**: هي المساند والأكتاف، وتكون مربعة أو مستطيلة أو دائرية أو نصف دائرية، تستند عليها أسقف العمائر. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 53.

⁷ _ **الأساكيب**: وهي الممرات الموازية لجدار القبلة، تمتد من الجدار الشرقي إلى الغربي. ينظر: الحداد محمد حمزة إسماعيل، المرجع السابق، ص: 43.

⁸ _ سالم عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص: 664.

⁹ _ الصلابي علي محمد، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، ج2، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 293.

¹⁰ _ **محبنة**: يقصد بها ميمنة وميسرة الصحن، ويطلق عليهما الظلّتان الجانبيتان أو الجناحان. ينظر: الحداد محمد حمزة إسماعيل، المرجع السابق، ص: 41.

¹¹ _ عثمان عثمان إسماعيل، المرجع السابق، ج2، ص: 146، 147.

المئذنة التي شيدها السلطان الزياني يغمراسن في منتصف القرن 7هـ/13م،⁽¹⁾ وهي مئذنة الأضلاع يقدر ارتفاعها بـ: 35 متر و132 درجة،⁽²⁾ وهي على شكل برج مربع كبير في الأسفل، ويعلوه برج أصغر حجما فوقه قبة صغيرة، ويتوسط المئذنة دعامة مربعة الشكل يبلغ طولها 2.85 متر، يلتف حولها درج يحوي مائة وعشرون درجة،⁽³⁾ كما قام بتوسيع بيت الصلاة من الناحية الشمالية والصحن، وقام بإضافة القبلة الثانية أيضا، ويبدو أنه هو الآخر متأثرا بالعمارة الأندلسية، من كون أن التيجان التي أضافها تشبه تيجان مسجد قرطبة.⁽⁴⁾

كما شهد المسجد إضافات أخرى ترجع إلى فترة أبي حمو موسى الثاني كخزانة الكتب التي أهداها للجامع، وهذا ما جاء منقوشا على اللوحة الخشبية يمين المحراب التي تحمل اسمه وتاريخ الانتهاء من الإنشاء 760هـ/1359م، ومكتبة يعود تاريخها إلى عهد الأمير أبي زيان بن أبي حمو الثاني (797_802هـ/1394_1399م).⁽⁵⁾

3. مسجد جزائر بني مزغنة (المسجد الكبير):

هو الآخر شيده يوسف بن تاشفين سنة 475هـ/1082م، وتم الانتهاء منه سنة 490هـ/1096م، وهذا التاريخ وجد منحوتا على منبره، له إطلالة رائعة فهو يطل على شاطئ البحر، شكله مستطيل، قياساته كالاتي: 46.30 متر في العرض و38.20 متر في العمق، أما بيت الصلاة فعرضه 46.30 متر، وعمقه 22.30 متر،⁽⁶⁾ ويتكون من إحدى عشر بلاطة وخمسة أساكيب،⁽⁷⁾ ومما يلاحظ أن بلاطة المحراب وأسكوبه أكبر مساحة، وصحنه تحيط به ثلاث مجنبات شرقية وغربية،

¹ - R.P.Gthéry.O.P, opt, p: 66.

² _ بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص: 112.

³ _ بوطارن مبارك، العماثر الدينية في المغرب الأوسط، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 118، 119.

⁴ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 146.

⁵ _ دهاني صبرينة، المساجد المرابطية "دراسة تنميطية"، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجية وذاكرة، ج2، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 482.

⁶ _ منصور محمد، مقارنة بين مسجدين مرابطين الجامع الكبير بندرومة والجزائر، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجيا وذاكرة، ج1، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2011م، ص: 586_588.

⁷ _ عثمان عثمان إسماعيل، المرجع السابق، ج2، ص: 144.

تشتمل كل منها على ثلاثة أروقة تمثّل امتدادا لبית الصلاة، أما الجنبه التي في الشمال فتضمّ رواقا واحدا.⁽¹⁾

ويقوم هذا المسجد على اثنين وسبعين دعامة تحمل عقودا حدّوية، أو مفصصة⁽²⁾ منها ما يحتوي على ثلاثة عشر فصّا وآخر خمسة عشر فصّا، وهناك عقدا يصل إلى خمسة وعشرون فصّا، أما سقفه الخشبي فيعلوه قرميد مسنّم، أما منبره فقد ر عرضه بـ 60سم، وعمقه 2.60م، ويحتوي على سبع درجات، وله ستة أبواب خشبية؛ أربعة منها في الجزء الشمالي الغربي، واثنان في الجهة الشمالية الشرقية.⁽³⁾

وفي الجزء الجنوبي من المسجد تقع المئذنة التي بناها السلطان أبو تاشفين ما بين سنتي (722_723هـ/1322_1323م) التي تقوم على قاعدة شبه مربعة، طول كل ضلع منها حوالي 6متر، وارتفاعها حوالي 17متر،⁽⁴⁾ وهكذا فقد اقتدى بيغمراسن الذي بنى مئذنتي المسجد الأعظم بأفادير والمسجد الجامع في تافارارت.

4. المسجد الكبير بندرومة:

وهو من أعرق المساجد في الجزائر، فهو من المكاسب الأثرية القليلة للمرابطين في المغرب الأوسط، تمّ بناؤه على يد يوسف بن تاشفين⁽⁵⁾ في الجهة الغربية للمدينة، بالضبط في حيّ التربيعة، شكله مستطيل يبلغ طوله 28.30متر وعرضه 20متر،⁽⁶⁾ ويشتمل على قاعة صلاة مربعة الشكل، تضم ثلاثين سارية معتدلة الطول تحمل سقف المسجد الخشبي المتموج، وهناك فراغ مربع يلي المحراب كانت تعلوه قبة في العصر المرابطي غير أنها أزيلت، وخلف قاعة الصلاة صحن تتوسطه

¹ _ سالم عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص: 666.

² _ عقد مفصص من تكون من أنصاف دوائر، تلتفّ حول بطن العقد، وتتراوح هذه الفصوص ما بين ثلاثة وواحد وعشرون فصّا. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 87.

³ _ منصوري محمد، المرجع السابق، ص: 589_592.

⁴ _ بن حموش مصطفى، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولوكس والوثائق العثمانية، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007م، ص: 21.

⁵ - Mohamed benamar Djebbare, **Nedroma et ses grande noons**, Dar essabil, 2011, p: 28.

⁶ _ ميدون عز الدين، ندرومة مدينة الفن والتاريخ، دار السبيل للنشر والتوزيع، (د.م.ن)، ط1، 2011م، ص: 16.

نافورة، وعلى جانبيه يمينا ويسارا رواقان يمثلان امتدادا لقاعة الصلاة، فهو بهذا التصميم يشبه تصميم المسجد الكبير، ومسجد العباد.⁽¹⁾

ويحتوي المسجد على ثلاثة أبواب؛ الأول على يسار المحراب، والثاني في الركن الشمالي الغربي، والثالث بجوار المئذنة⁽²⁾ التي تقع شمال المسجد من الجهة اليسرى، وهي مربعة الشكل،⁽³⁾ بنيت سنة 749هـ/1348م في ظرف خمسين يوما، حسب ما جاء في اللوحة الرخامية الموجودة على الجدار الداخلي للمسجد.⁽⁴⁾

وتعتبر هذه الصومعة من الإضافات الزيانية التي شهدتها المسجد، اتخذت شكل برج مربع، طابقه الأول يبلغ ارتفاعه 19.80 متر، أما الطابق الثاني فهو الآخر مربع أقل حجما من الطابق الأول، ويجعل من سطحه قاعدة له، وارتفاعه 4.24 متر، وفي وسط البرج يوجد سلم ينتهي في أعلاه باب يؤدي إلى سطح البرج، وهذا الشكل من المآذن أختص به الزيانيون، بحيث كل المآذن الزيانية اتخذت شكل برج مربع يتكون من طابقين.⁽⁵⁾

5. مسجد أبي الحسن التنسي⁽⁶⁾:

شيّد هذا المسجد السلطان الزياني أبي سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696هـ/1296م⁽⁷⁾ لذكرى الأمير الزياني أبي عمر إبراهيم بن أبي يحيى يغمراسن بن زيان، حسب ما جاء في الكتابة الموجودة على جدار القبلة، وصيغتها: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، بني هذا المسجد للأمير أبي عامر إبراهيم ابن السلطان أبي

¹ _ بوعزيز يحيى، المرجع السابق، ص: 179.

² _ ميدون عز الدين، المرجع السابق، ص: 16.

³ _ بوعزيز يحيى، المرجع السابق، ص: 180. دحماني صبرينة، المرجع السابق، ص: 483، 484.

⁴ _ ميدون عز الدين، المرجع السابق، ص: 27.

⁵ _ مبارك بوطارن، العماثر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 77، 78.

⁶ _ أبو الحسن التنسي: أبو إسحاق بن يخلف بن عبد السلام التنسي، كان من كبار العلماء والأولياء، له العديد من الكرامات، الكرامات، ألف كتب كثيرة، أقام في تلمسان إلى أن توفي بها سنة 680هـ، ودفن بالعباد. ينظر: ابن خلدون يحيى، المصدر السابق،

مج1، ص: 48.

⁷ _ المصدر نفسه، ص: 119.

يحيي يغمراسن بن زيان، في سنة ستة وتسعين وستمائة من بعد وفاته رحمه الله⁽¹⁾ وفيما بعد نسب إلى أحد مشاهير العلماء بتلمسان؛ وهؤوبو الحسن بن يخلف التنسي الذي كان أحد المدرّسين به⁽²⁾.

يقع هذا المسجد شرق جنوب المسجد الكبير، يتميز بصغر حجمه مقارنة بالمساجد التلمسانية الأخرى، فقاعة صلاته تبلغ مساحتها 100م²، وهي مربعة الشكل⁽³⁾ تتكون من ثلاث بلاطات، وستة سواري⁽⁴⁾ وتيجان تجمع بينها أقوا، ومغطّى بسقف مصنوع من خشب الأرز مموّج من الشرق إلى الغرب، وله ثلاثة أروقة، كما أن محرابه يقع في الجدار القبلي يقابل الرواق الأوسط، وهو تحويف خماسي الأضلاع تعلوه قبة صغيرة مثمّنة، وفي الجهة الجنوبية الشرقية نجد المئذنة؛ وهي معتدلة الطول⁽⁵⁾ بحيث يقدّر ارتفاعها بـ 14.25 متر، تتألف هي الأخرى من طابقين مربعي الشكل، يتخلل الطابق الثاني أربع نوافذ في جوانبه الأربعة⁽⁶⁾.

6. مسجد المنصورة:

بني هذا المسجد بأمر من السلطان المريني يوسف أبي يعقوب سنة 702هـ/1302م أثناء الحصار الطويل الذي ضربه على تلمسان، وبنائه لمدينة المنصورة⁽⁷⁾. يعتبر هذا المسجد أكبر مسجد شيّده المرينيون في المغرب الأقصى والأوسط، وشكله مستطيل تقدّر مساحته بحوالي 5100م²، وقيل 5600م²، تتكون قاعة صلاته من تسع بلاطات، وثلاثة عشر أسكوبا⁽⁸⁾ ويتوسط حائط القبلة محراب شكله مضلع خماسي أو سداسي، وهو بهذا يشبه

¹ _ لعرج عبد العزيز محمود، جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجامعة تلمسان الكبير وسيدى بلحسن، ص: 219.

² _ بالأعرج عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 149.

³ _ فيلالى عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 147.

⁴ _ براهيمى نصر الدين، المرجع السابق، ص: 169. بوعزيز يحيى، المرجع السابق، ص: 145.

⁵ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 187.

⁶ _ بوطران مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 151، 152.

⁷ _ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 387.

⁸ _ أبو رحاب محمد السيد، ملامح تخطيط العمائر الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط،

"دراسة أثرية مقارنة"، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، أيام:

3، 4، 5 أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص: 147_149. بكاي هوارية،

جامع قرطبة، وهو متسع نوعاً ما؛ بحيث يبلغ اتساعه 2.48 متر، وطول جوانبه 2 متر، وفيما يخص مادة بنائه فقد بني بالآجر والطابية، وزود بنافذتين من أجل الإضاءة، ومدخلان ضيقان يربطان قاعة الصلاة بغرفة الجنائز،⁽¹⁾ إضافة إلى ذلك نجد رواق القبلة؛ وهو الجزء الذي يلي المحراب؛ وهو الأكثر اتساعاً، فقد بلغ عرضه 60 متر وعمقه 55 متر.⁽²⁾

وينفرد هذا المسجد بميزة خاصة، وهي كثرة الأبواب أربعة شرقاً، وأربعة غرباً، واثنان قبلة على جانبي المحراب، وثلاثة شمالاً أوسطهم تحت المئذنة، والآخرين بجانبيهما الأيمن والأيسر،⁽³⁾ ويتصل بقاعة الصلاة غرفة الجنائز؛ وهي مستطيلة الشكل يبلغ طولها 12.70 متر وعرضها 6 متر، وإلى جانب وظيفتها الجنائزية، يرجح أنه كان لها مهام أخرى، فيمكن أن تكون حجرة يستريح فيها السلطان المريني أو الإمام.⁽⁴⁾ أما المئذنة فقد بلغ ارتفاعها حوالي 45 متر بنيت بالحجارة المهذبة، وهي متوازية السطوح صمّم لها ممرّاً حلزونياً واسعاً للصعود لشرفة المؤذن بدلاً من الدرج.⁽⁵⁾

7. مسجد أولاد الإمام:

تم تشييده من طرف السلطان أبي حمو موسى الأول سنة 1310/710م،⁽⁶⁾ وأضيف إلى المدرسة القديمة التي أنشأها هذا السلطان لابني الإمام؛⁽⁷⁾ أبو زيد عبد الرحمان وأبو موسى عيسى،⁽⁸⁾

العلاقات الزيانية المرينية سياسياً وثقافياً، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشر: بودواية مبخوت، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2008م، ص: 244، 245.

¹ _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 134_136.

² _ المرجع نفسه، ص: 138، 139.

³ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 127.

⁴ _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 136_138.

⁵ _ براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 180.

⁶ _ فيلال عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 147.

⁷ _ ابني الإمام: هما الأخوان عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن الإمام المكنى بأبي زيد، وأخوه أبو موسى عيسى، من الفقهاء العظام، تخرج عليهم العديد من العلماء،

وحظيا بمكانة خاصة لدى السلطان أبي حمو موسى الأول، توفي أبو زيد سنة 743هـ، أما أبو موسى فتوفي سنة 749هـ بالطاعون. ينظر: التنبكي أبو العباس أحمد بابا (ت 1036هـ/1627م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشر وتق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ج1 و2، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989م، ص: 245_247.

⁸ _ بوشقيف محمد، تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (15/14م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، إشر: عبدلي لخضر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1432هـ/2011م، ص: 49.

يبلغ طول مئذنته حوالي 17 متر، واجهاتها الأربع على شكل معين، تحتوي على مربعات مختلفة الألوان، وهي بهذا تشبه لوحة الشطرنج،⁽¹⁾ تتوسطها دعامة مربعة الشكل يلتف حولها السلم.⁽²⁾ أما من الداخل فيحتوي على قاعة الصلاة تتألف من ثلاث بلاطات وثلاثة أساكيب، أوسعها البلاطة التي تلي المحراب، هذا الأخير يتوسط جدار القبلة، وهو تحويف خماسي يبلغ اتساعه في العمق 1.60 متر تنتهي أضلاعه بإفريز⁽³⁾ محريز في الأعلى تستند عليه سبعة عقود زخرفية مفصصة، وله قبة قبة تعلوها قبة صغيرة.⁽⁴⁾

وزود المسجد بثلاثة أبواب؛ الباب الأول في الجدار الشمالي يفتح على صحن المدرسة، والثاني يؤدي إلى درج المئذنة، أما الثالث فهو في الجدار الشرقي، ويؤدي إلى قاعة الصلاة، كما سيقف المسجد بثلاثة سقوف جمالونية⁽⁵⁾ مغطاة من الداخل بصفوف من ألواح متراصة، ولا يحتوي على قبة كما جرت العادة في أغلب المساجد.⁽⁶⁾

8. مسجد المشور:

أسس من طرف أبي حمو موسى الأول، في نفس الفترة الذي تأسس فيها مسجد أولاد الإمام،⁽⁷⁾ الإمام،⁽⁷⁾ ويقع في الزاوية الجنوبية الغربية لمعتمده مستطيلة الشكل، يحتوي على عدة نوافذ موزعة على

¹ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 198.

² _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 172.

³ _ إفريز: هو مستطيل يحيط بالعقد، وبأعلى الجدار الخارجي من أجل التخفيف من سقوط المطر، بالإضافة إلى دوره التجميلي. التجميلي. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 16.

⁴ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 198. بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص ص: 165، 166.

⁵ _ جمالون: سقف مبني على شكل سنام مائل من طرفيه، تم اعتماده في المناطق الممطرة، ومن ثم أطلق هذا اللفظ على كل المباني التي لها نفس الشكل. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص ص: 35، 36.

⁶ _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص ص: 170، 171.

⁷ _ موساوي عبد المالك فنّ الزخرفة في العمارة الإسلامية "المساجد والمدارس"، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2011م، ص: 112.

على الجوانب الأربعة، وفي مؤخرة المسجد على الجهة اليسرى منه نجد منارة ⁽¹⁾ مربعة الشكل متوسطة الطول عريضة، بابها في داخل المسجد. ⁽²⁾

9. مسجد أبي مدين ⁽³⁾ بالعباد:

وهو من الآثار المشيدة من قبل بني مرين في مدينة العباد في تلمسان، وذلك سنة 739هـ/ 1339م أثناء حصاره لتلمسان، ⁽⁴⁾ اشترى أبو الحسن الأرض التي بنى عليها المسجد، وكلف أبا عبد عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق (عم ابن مرزوق الخطيب) ببناؤه، غير أن اسمه أقرن باسم الولي الصالح أبي مدين شعيب؛ لأنه أنشئ بالقرب من ضريحه، ومن بين العلماء الذين زاولوا التدريس به نذكر ابن مرزوق الخطيب، ⁽⁵⁾ إلى جانب العديد من العلماء. ⁽⁶⁾

أما عن شكله فهو مستطيل تبلغ مساحته 537.70م²، ⁽⁷⁾ وقاعة صلاته تشتمل على خمس بلاطات وثلاثة أساكيب، البلاطة الرئيسية تتقدم المحراب مباشرة، وتضم عشرين سارية مربعة الشكل، غطّي بقبة مقرنصة، وبه صحن تتوسطه نافورة، ⁽⁸⁾ تحفّ به أربعة أروقة، أما عن مئذنته ⁽⁹⁾ فملاصقة

¹ _ ينظر: الملحق رقم: (02).

² _ بوعزيز يحيى، المرجع السابق، ص: 117، 118.

³ _ أبو مدين شعيب: وهو شعيب بن الحسين الأنصاري من كبار الأولياء والمتصوفين، أصله من الأندلس "إشبيلية"، ولد سنة 515هـ/1121م، وتوفي سنة 594هـ/1197م. ينظر: المكناسي أحمد بن القاضي، المصدر السابق، ص: 530_532.

⁴ _ الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ/1213م _ 869هـ/1465م)، دار القلم، الكويت، ط2، 1408هـ/1987م، ص: 322.

⁵ _ ابن مرزوق الخطيب هو محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجّيسي التلمساني، ولد بتلمسان سنة 711هـ، اشتغل بالتدريس في تونس ومصر، توفي سنة 781هـ. ينظر: ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي (ت 852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، سف3، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، 1414هـ/1393م، ص: 360، 362.

⁶ _ براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 194. الحريري محمد عيسى، المرجع السابق، ص: 322. حركات إبراهيم، المرجع السابق، ص: 159.

⁷ _ أبو رحاب محمد السيد، المرجع السابق، ص: 131.

⁸ _ ينظر: الملحق رقم: (04).

⁹ _ ينظر: الملحق رقم: (03).

للساحة الشمالية، وتتكون من طابقين مربعين يبلغ ارتفاعهما 27.50 متر،⁽¹⁾ وله مدخل فخم به مدرّج ومغطّى بظلّة، له مصراعين،⁽²⁾ ومن خلال معاينتنا لهذا المسجد، فإلى جانب الباب الرئيسي يوجد بابان جانبيان مفتوحان على قاعة الصلاة.

ومن بين الذين تطرقوا لوصف مسجد أبي مدين ابن مرزوق الخطيب باعتباره شاهدا عاين الأحداث آنذاك: «وكان بناؤه على يد عمي وصنو أبي صالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق وعلى يدي، اشتمل الوضع الغريب، وهو أن سقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة، كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة، فلا يختلج في النفس شك، ولا يعرض لها وهم أنها أشكال منجورة منقوشة، وهي كلها مبنية احكاء بالآجر والفضة، واشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس المذهب...»⁽³⁾.

وبهذا يمكننا القول أن المرينين خلفوا العديد من المساجد في المغرب الأوسط، والتي لا تقلّ جمالا وإبداعا عن مساجدهم في فاس.

10. مسجد سيدي الحلوي الشوذي.⁽⁴⁾

يعتبر كذلك من بين المنشآت المرينية بتلمسان، إذ أمر بتشيدده السلطان أبو عنان فارس بن أبي الحسن سنة 754هـ/1353م.⁽⁵⁾

¹ _ بوروية لطيفة، نماذج من الزخرفة الهندسية في عمارة جامعي أبي مدين والحلوي، العمارة والآثار الإسلامية، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص ص: 236، 237.

² _ مصراعين: وهما دفئا الباب المنصوبتان رأسيا يوضعان إلى جانب بعضهما على فتحة الباب. ينظرنوّار سامي محمد، الكامل الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم، دار الوفاء، الإسكندرية، (د.ط)، (د.ت)، ص: 169.

³ _ ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح، ص ص: 403، 404.

⁴ _ الحلوي: هو الولي الصالح أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي؛ لأنه كان يوزع الحلوى على الأطفال، اشتغل قاضيا في إشبيلية، غير أنه لم يكن راضيا بمهامه الوظيفية، ففرّ إلى تلمسان وعاش بها إلى أن توفي هناك سنة 705هـ/1305م. ينظر: ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص ص: 65_68.

⁵ _ بالأعرج عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 151.

بني هذا المسجد شمال تلمسان، يتكون من قاعة صلاة مربعة الشكل معتدلة المساحة تضم ست عشر سارية دائرية؛ ثمانية منها صنعت من الرخام، وضعت هاته السواري في الوسط، أما الباقية فهي أعمدة خشبية مربعة الشكل،⁽¹⁾ وجدران قاعة الصلاة ملساء كلها ماعدا المحراب فهو مزين بنقوش،⁽²⁾ والقاعة مغطاة بسقف مصنوع من خشب الأرز.

أما فيما يخص الصحن فهو مربع الشكل به أروقة مغطاة، وصهيرج للوضوء وميضأة هي الأخرى مربعة، وضعت فيها العديد من المشكاة⁽³⁾ من أجل التهوية والإضاءة،⁽⁴⁾ كما احتوى المسجد على مئذنة مزينة من جهاتها الأربعة بأشكال من الفخار، وله ثلاثة أبواب؛ أحدهما شرقي والآخر غربي، والثالث جوفي وهو الرئيسي، وهو بهذا يشبه مسجد العباد.⁽⁵⁾

وفي الأخير ومن خلال وصفه يتجلى لنا مدى جمال هذا المسجد العريق، هذا ما عبر عنه النميري في قوله: «ولا كجامع الخطبة الأعظم الذي أمر باختطاطه في حضيض البيت الذي فيه ضريح الشيخ الصالح أبي عبد الله الشوذي المعروف بالحلوي رضي الله عنه، وهو من أجمل الجوامع، فقد أحكمت فيه أنواع المصانع».⁽⁶⁾

¹ _ بوعزيز يحيى، المرجع السابق، ص: 137، 138. براهامي نصر الدين، المرجع السابق، ص: 181.

² _ لعرج عبد العزيز، مدبنة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 137.

³ _ مشكاة: هي الكوة غير النافذة، وهي أيضا الحديدية التي تعلّق عليها القناديل، وتسمى الفتيلة. ينظرنوَّار سامي محمد، المرجع السابق، ص: 169.

⁴ _ براهامي نصر الدين، المرجع السابق، ص: 219.

⁵ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 260. الحريري محمد عيسى، المرجع السابق، ص: 322.

⁶ _ النميري، المصدر السابق، ص: 488.

11. مسجد إبراهيم المصمودي: (1)

أنشئ هذا المسجد بأمر من السلطان أبي حمو موسى الثاني، ويعتبر إضافة إلى القبة والمدرسة والزاوية من أهم المنشآت التي شيدها السلطان تكريماً لوالده أبي يعقوب يوسف، (2) أما عن نسبته للشيخ إبراهيم المصمودي، فكانت بعد وفاته سنة 804هـ/1401م بحيث دفن بجواره. (3)

يقع شرق مسجد أبي الحسن، وإذا تحدثنا عن التخطيط العام للمسجد نجد أن قاعة الصلاة أنشئت شرق القسم الشمالي؛ (4) وهي مربعة الشكل، مكونة من أربع بلاطات، وخمسة أروقة، (5) وانتصبت فيه ست عشر سارية يعلوها قبتان؛ الأولى بجوار المحراب، والثانية على شكل مستطيل من الشرق إلى الغرب، ويغطي المسجد سقف خشبي، أما خلف قاعة الصلاة نجد صحن مربع تتوسطه نافورة يحيط بها من الشمال والغرب والجنوب أروقة تعتبر امتداداً لقاعة الصلاة التي يفصلها عن الصحن ستة عشر عموداً. (6)

والمئذنة تقع في الجزء الشمالي الغربي معتدلة الطول، تتكون من برجين؛ الأول يقدر ارتفاعه 13.70 متر، وتتوسطه نواة مربعة يحيط بها سلم يفضي إلى الجوسق، (7) أما البرج الثاني فهو أقل حجماً إذا ما قورن بالبرج الأول يبلغ ارتفاعه 4.70 متر، (8) وخلف الصحن نجد المدخل الرئيسي

¹ _ إبراهيم المصمودي هو الشيخ إبراهيم بن محمد المصمودي، من كبار العلماء والزهاد، أصله من صنهاجة توفي ما بين سنتي (804هـ_805هـ/1401_1402م)، دفن في الروضة التي دفن فيها الملوك الزيانيون الموجودة بحديقة المسجد الذي نسب إليه فيما بعد. ينظر: ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف الملبّي المديوني (ت ما بين 1025_1028هـ)، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مرا: محمد بن أبي شنب، المدرسة الثعالبية، الجزائر، (د.ط)، 1326هـ/1908م، ص: 64، 66.

² _ خالدي رشيد، دور علماء المغرب الأوسط في ازدهار الحركة العلمية في المغرب الأقصى خلال القرنين (7_8هـ/13_14م)، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشر: عبدلي لخضر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1432هـ/2011م، ص: 29.

³ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 147.

⁴ _ بوعزيز يحيى، المرجع السابق، ص: 130.

⁵ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 212.

⁶ _ بوعزيز يحيى، المرجع السابق، ص: 130، 131.

⁷ _ الجوسق: ملق على الدوّرة الأخيرة في المآذن. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 36.

⁸ _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 186، 187.

للمسجد الذي يؤدي إلى مساحة تعادل مساحة المسجد، وهي محاطة بجدران، على يسارها يوجد باب يؤدي إلى الشارع.⁽¹⁾

12. المسجد العتيق بمستغانم:

أسّس هذا المسجد من قبل السلطان المريني أبي الحسن سنة 742هـ/1341م وخصص له أوقافا كثيرة.⁽²⁾ يشتمل على قاعة صلاة مربعة تنتصب فيها ثلاث وأربعون سارية دائرية، ويحتوي على مقصورة الإمام والقاضي وضعت في مؤخرة قاعة الصلاة في الركن الجنوبي الغربي، منارته مثمثة الأضلاع لها تسع وتسعون درجة، له مدخل رئيسي على اليمين، وسقف خشبي كباقي المساجد العتيقة. وظل هذا المسجد العريق يؤدي وظيفته الدينية والتعليمية ما يناهز خمسة قرون، غير أنه مؤخرا أغلق بعد أن تهدمت بعض أجزائه، وتعمل السلطات على إعادة ترميمه.⁽³⁾

هذا وهناك العديد من المساجد لا يسعنا هذا المقام أن نذكرها كلها، بحيث لا تكاد تخلو مدينة أو قرية من المسجد بعبارة مكانا للعبادة، لذا حاولنا أن نعرض على أهم المساجد التي عرفت في تلك الفترة.

2-1. الأضرحة:

الأضرحة هي المكان الذي يدفن فيه الأولياء الصالحون والعلماء، ويحاط هذا القبر بمبنى تعلوه قبة، لذا يسمى أحيانا القبة⁽⁴⁾ و أيضا المرباط.⁽⁵⁾

وقد بدأت ظاهرة بناء الأضرحة في العالم الإسلامي مع منتصف القرن 3هـ/9م، ومنها ضريح الخليفة العباسي المستنصر (ت 245هـ/859م)،⁽⁶⁾ ثم أصبحت الأضرحة توضع بركن من أركان المسجد أو الزاوية، أو حتى المدرسة خاصة على عهد الأتابكة في الشام والعراق، ثم انتقل ذلك إلى المغرب.⁽⁷⁾

¹ _ بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص: 131.

² _ بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص: 51، 52.

³ _ بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص: 187، 188، 191.

⁴ _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 168.

⁵ _ بن حموش مصطفى، المرجع السابق، ص: 21.

⁶ _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 270.

⁷ _ فريد محمود الشافعي، المرجع السابق، ص: 122.

وقد انتشرت ظاهرة بناء الأضرحة في المغرب الإسلامي أكثر في الفترة التي أعقبت سقوط الموحدين؛ لأنها تعتبر من بين الفترات العصبية التي شهدتها المغرب الإسلامي عموماً، والأوسط على الأخص بسبب الاضطرابات السياسية، وأطماع الأوربيين في السيطرة على مدن السواحل، هذا ما جعل السكان يقبلون على زيارة قبور الأولياء وأضرحتهم، من أجل التبرك بهم؛ لأنهم كانوا يصدّون أن للأولياء الصالحين القدرة على حمايتهم، وتحقيق مطالبهم حتى بعد موتهم، وهذا راجع لطبيعة أهل المغرب الذين يؤمنون بالأمور الروحانية والخوارق؛ لذا نجد انتشاراً واسعاً للأضرحة في كل ربوع المغرب الأوسط.⁽¹⁾

على الرغم من وجود أحاديث صحيحة وصريحة للرسول -صلى الله عليه وسلم- ينهانا فيها عن بناء الأضرحة، واتخاذها مزارات نذكر منها الحديث الذي أورده الترمذي في سننه: «حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا حفص بن غياث عن بن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال: نهى رسول الله الله عليه وسلم أن يُجَصَّصَ القبر، وأن يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وأن يُبْنَى عَلَيْهِ»،⁽²⁾ ومع وضوح الحديث إلا أن الكم الهائل للأضرحة أو ما يصطلح عليه بالقباب في تزايد مستمر، ربما راجع للأسباب التي ذكرناها آنفاً، بالإضافة إلى ابتعاد الناس عن الكتاب والسنة، وجهلهم بأحكام الشريعة الإسلامية. ومن بين أهم الأضرحة التي أقيمت في المغرب الأوسط، وكان لها شهرة كبيرة نذكر:

1. ضريح أبي مدين شعيب:

وهو قبر الشيخ أبي مدين شعيب، وبعد وفاته دفن بربوة العباد وأصبح قبره مزاراً للعامة،⁽³⁾ وفي أواخر القرن 6هـ/12م قام السلطان الموحدي محمد الناصر ببناء ضريح فوق قبر الشيخ، وبذلك يكون من أقدم المباني في تلمسان.

¹ _ سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص: 50.

² _ الترمذي محمد بن عيسى بن سورة (ت 279هـ)، سنن الترمذي، تح وت: محمد فؤاد عبد الباقي، ج3، مكتبة البابي الحلبي، مصر، ط2، 1395هـ/1975م، ص: 359.

³ _ ابن الزيات أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت 617هـ/1221م)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م، ص: 142.

يقال أنه شهد بعض التعديلات من طرف السلطان يغمراسن، غير أنها لم تعرف الجهات التي مسّها هذا الترميم،⁽¹⁾ قام السلطان المريني أبو الحسن بإعادة بنائه، وتزيينه بقبة وصحن، وخصص بعض الأماكن للاعتكاف، ومنازل خارج الضريح للزوار الذين يرغبون في زيارة الشيخ. وقد عرف عن المرينيين اهتمامهم الكبير بالجانب المعماري بما في ذلك الأضرحة، وهذا ما يوضّحه الدكالي في قوله: «وبنيت على الملوك الذين دفنوا بها قبب رفيعة صاعدات في الجو مزخرفة بأنواع النقش والأصبغة والإمهاء بالذهب»،⁽²⁾ وضريح الشيخ أبي مدين لا بد أن يكون قد حظي باهتمام بالغ من قبل المرينيين نظرا لمكانته الدينية في الأوساط الشعبية، غير أن تعرضه للحريق لعدة مرات جعل شكله الحالي لا يعبر عمّا كان عليه في تلك الفترة، كونه رمّم من جديد.⁽³⁾

ومع ذلك سنحاول إعطاء التخطيط العام لهذا الضريح؛ فهو يتكون من غرفة مربعة تعلوها قبة كبيرة، ونجد على كل جدار من جدرانها عقد، وضعت في أعلاه نافذة، إضافة إلى ذلك نجد باب في الحائط الغربي يعلوه عقد منكسر من الجهة العليا، وغطيت القبة بسقف له أربعة أوجه من القرميد، أما إذا خرجنا من قاعة الضريح نجد رواق مربع تتوسطه أربعة أعمدة ترتكز عليها أربعة عقود، وهاته الدعائم شكّلت صحن مربع صغير تحيط به أربعة أروقة،⁽⁴⁾ وعلى يسار المدخل نجد بئر محاط بسيّاج من الحديد.

ومن المؤرخين الذين أوردوا وصفا لضريح الشيخ أبي مدين نجد العبدري الذي زار المنطقة في القرن 7هـ/13م، فيقول في ذلك: «قبر الشيخ الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين رضي الله عنه رزقنا بركاته، وعليه رباط مليح مخدوم مقصود، والدائر بالبلد كله، مغروس بالكروم وأنواع الثمار وسوره من أوثق الأسوار وأصحها».⁽⁵⁾ فبقوله مليح يدل على أن الضريح لا يقل جمالا عن المسجد والمدرسة المجاورين له .

¹ _ بوطارن مبارك، الموروث الإسلامي لتلمسان، ص: 18.

² _ الدكالي محمد بن علي، الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين، تح: محمد أبو الشعراء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط2، 1996م، ص ص: 85، 86.

³ _ براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 194.

⁴ _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص ص: 280_282.

⁵ _ العبدري أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود (ت بعد 700هـ/1300م)، رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كوري، تق: شاكرا الفحام، دار سعد الدين، دمشق، ط2، 2005م، ص: 49.

2. ضريح السلطانة:

يقع في مقبرة سيدي يعقوب الموجودة في منطقة أفادير بالقرب من العباد السفلي،⁽¹⁾ وفيه قبرين؛ الأول للأميرة زيانية صغيرة في السن، والثاني لامرأة أيضا من الأسرة الملكية، شكله مثنى الأضلاع، كل ضلع فيه عقد مفصص، لكل عقد ثمانية فصوص، تستند هذه العقود على دعائم مربعة الشكل تحمل قبة مثنى الشكل أيضا. ومما يلاحظ أن الضريح بني بالآجر، والعقود المفصصة التي استخدمت في بنائه تعتبر من مميزات الفن المعماري المرابطي،⁽²⁾ مما يرجح أن الزيانيين تأثروا بالمرابطين في بناء القباب، وتوجد العديد من هذه الأضرحة، غير أن معظمها خال من آثار القبور وشاع اسم هذه الأضرحة بالأضرحة الأميرية.⁽³⁾

3. ضريح أبي إسحاق الطيار:⁽⁴⁾

دفن هذا الولي في العباد السفلي،⁽⁵⁾ وبني فوق قبره ضريح سنحاول وصفه من خلال ما تبقى منه، فهو مربع الشكل طول أحد أضلاعه 6متر، ويبدو أن غرفة الضريح غطيت بقبة كما هو الحال بالنسبة لجل الأضرحة، ويحيط بها ثلاثة أروقة من جهاتها الشرقية، الجنوبية والغربية، أما الجهة الشمالية نجد الباب يبلغ اتساعه 1متر، يعلوه عقد حذوة الفرس منكسر، ومن خلال العقود الزخرفية المفصصة، والزخارف التي زينت الباب فإن هذا الضريح بني أواخر القرن 7هـ/13م،⁽⁶⁾ غير أنه لم يعرف من أمر ببنائه.

1 _ براهيمى نصر الدين، المرجع السابق، ص: 229.

2 _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 272_274.

3 _ براهيمى نصر الدين، المرجع السابق، ص: 229.

4 _ أبو إسحاق الطيار: وهو الولي الغوث أبو إسحاق الطيار، ولد بتلمسان سنة 609هـ/1212م، وتوفي سنة 699هـ/1300م. ينظر: ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ص: 33. الزركلى، المرجع السابق، ج1، ص: 33، 34.

5 _ براهيمى نصر الدين، المرجع السابق، ص: 229.

6 _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 275، 276.

4. ضريح سيدي ابراهيم المصمودي:

يوجد هذا الضريح في حديقة المسجد المسمى باسمه، ثم أصبحت تسمى مقبرة سيدي إبراهيم نسبة إليه.⁽¹⁾ أما فيما يخص التخطيط العمراني للضريح؛ فهو مستطيل الشكل طوله 14.70 متر وعرضه 8 متر، يحتوي على قاعة الضريح؛ وهي حجرة مربعة الشكل بابها يقع في الجدار الشمالي يبلغ عرضه 1.20 متر، ويغطي غرفة الضريح قبة كبيرة، يتقدم هاته الغرفة صحن مربع الشكل طول ضلعه 6.27 متر يتوسطه حوض صغير مربع، ويحفّ بالصحن أربعة أروقة، وأربع أعمدة يبلغ ارتفاعها 1.5 متر تستند عليها أربعة عقود ضخمة منكسرة على شكل حذوة الفرس.⁽²⁾

5. ضريح سيدي لحسن الراشدي:

هو قبر الشيخ الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعيد المزيلي الرشيدي، المعروف بأبركان، كان فقيها ووليا صالحا كثير الكرامات، عاش في تلمسان إلى أن توفي بها سنة 857هـ/1453م،⁽³⁾ أمر ببناء ضريحه أبو العباس أحمد (834هـ_866هـ/1430_1461م) بجوار المسجد الذي بناه إكراما لروحه.⁽⁴⁾

6. ضريح الشيخ عبد الرحمان الثعالبي:

يعتبر من أهم الأضرحة في جزائر بني مزغنة، فهو قبر الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف المشهور بالثعالبي، يرجع إلى ذرية عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (عم الرسول -صلى الله عليه وسلم-)، ولد سنة 786هـ/1383م في وادي يسر، كان من الأولياء الصالحين، تنقل بين بجاية وتونس إلى أن استقر في مدينة الجزائر حتى توفي بها سنة 875هـ/1479م،⁽⁵⁾ ودفن بمقبرة الطلبة،

¹ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 152.

² _ بوطارن مبارك، العماثر الدينية في المغرب الأوسط، ص ص: 287، 288.

³ _ التنبكي، نيل الإبتهاج، ص ص: 161، 162.

⁴ _ بوطارن مبارك، الموروث الإسلامي لتلمسان، ص: 48.

⁵ _ التنبكي أبو العباس أحمد بابا (ت 1036هـ/1627م)، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج، ج1، درا وتج: أحمد أحمد مطيع، (د.ط)، 1021هـ/2000م، مطبعة فضالة، المحمدية (المغرب)، ص ص: 278، 279. عزت بن عبد الرحيم محمد بن شاهين، الإبداع المعماري والفني في الأضرحة الجزائرية "ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي أنموذجا" (786هـ_

ومازال الضريح على هضبة بالقرب من باب الواد، غير أننا نجهل كيف كان الضريح في العهد الزياني، من كونه تعرض لتعديلات في العهد العثماني.⁽¹⁾

7. ضريح سيدي يعقوب:

وهو ضريح مربع الشكل ليس له سقف، دفن فيه الشيخ أبو يعقوب يوسف بن عبد الله أحد علماء تلمسان، عاش خلال فترة حكم أبي تاشفين الأول، كان له مسجد قديم يعلم فيه العلوم الشرعية لأهل المنطقة.⁽²⁾

8. ضريح الشيخ محمد بن مرزوق:

وهو قبر الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، من بين العلماء الذين اشتهرت بهم تلمسان، ولد سنة 629هـ/1231م، وتوفي رحمه الله سنة 681هـ/1282م، ودفن بجوار يغمراسن، بناءً على وصية هذا الأخير ليتبرك به، وضريحه يوجد في الركن الجنوبي الغربي من بيت صلاة مسجد تافرارت.⁽³⁾

9. ضريح سيدي الداودي:⁽⁴⁾

يوجد ضريحه بالقرب من طريق الصفصاف القديم، وهو مستطيل الشكل بابه يقابل باب العقبة، يزيده عقد حذوة الفرس منكسر، ويعلو المبنى قبة تستند على دعائم تحمل عقوداً منكسرة، ومن

875/1383م-1479م)، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي

بتلمسان أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص: 270_272.

¹ _ عزت بن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص: 270، 272. بن حموش مصطفى، المرجع السابق، ص: 21.

² _ موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية في تلمسان، دار السبيل، (د.م.ن)، ط1، 2011م، ص ص: 96، 97.

³ _ ابن خلدون يحي، المصدر السابق، مج1، ص ص: 48، 49. بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 96.

⁴ _ الداودي: هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأزدي المالكي التلمساني، فقيه من الأئمة المالكية بتلمسان، له عدة مؤلفات منها: "النصيحة في شرح صحيح البخاري"، توفي سنة 402هـ/ بتلمسان. ينظر: حميش عبد الحق، سير أعلام تلمسان، دار التوفيقية، المسيلة، ط1، 1432هـ/2011م، ص ص: 221، 222.

حيث تخطيطه وهو يشبه كثيرا ضريح سيدي أبي مدين وإبراهيم المصمودي،⁽¹⁾ لا ندري متى بني بالضبط، ومن أمر ببنائه، ولكن بما أنه يشبه هذين الضريحين، فالمرجح أنه بني في تلك الفترة. ولم تقتصر إقامة الأضرحة على المسلمين فحسب، بل تجاوز ذلك إلى أهل الذمة المقيمين بالمنطقة، ومن ضريح **إبراهيم بن كوا**؛ عاش ما بين (740_849هـ/1339_1445م)⁽²⁾ وهو طبيب وفيلسوف يهودي من النازحين من إسبانيا، هرب من تعسف رجال الكنيسة الكاثوليكية، عاش في تلمسان، ويعتقد اليهود أن له الفضل في استقرار اليهود في وسط المدينة؛ لأنه تمكن من معالجة إحدى الأميرات، غير أنه توفي قبل أن يصدر قرار منح ساحة القوافل لليهود، وتقول الرواية أيضا أنه عندما ضرب برجله الأرض انفجرت من تحتها عين، وعاش في نفس المكان إلى أن توفي، وظلَّ قبره أهم مزار لليهود في العالم.⁽³⁾

فعلى الرغم من أن الإنسان ينقطع عمله بعد الموت إلا أن ظاهرة التبرك بالقبور والأضرحة ظلت شائعة آنذاك؛ ربما ذلك راجع إلى انتشار التصوف في تلك الفترة، وكثرة الكرامات التي لقيت ميولا خاصا لدى المغاربة جعلتهم يقدِّسون تلك الأضرحة، ولم ينتشر هذا التقديس في أوساط العامة فقط، بل حتى بين السلاطين الذين أمروا ببناء الأضرحة على قبور الأولياء الصالحين، وقبور العائلة المالكة تعبيرا عن المكانة العالية التي حظي به أصحاب تلك القبور.

¹ _ بوطارن مبارك، الموروث الإسلامي لتلمسان، ص: 24، 25. ينظر: موساوي عبد الملك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية

في تلمسان، ص: 88.

² _ براهيمى نصر الدين، المرجع السابق، ص: 229.

³ _ المرجع نفسه، ص: 229.

ثانياً: المدارس:

وما هو معروف أن المدارس ظهرت في بادئ الأمر بالمشرق خلال القرن 5هـ/11م، ثم انتقلت إلى المغرب مع نهاية القرن 6هـ/12م، بحيث بدأت ظاهرة بناء المدارس في عهد السلطان يعقوب المنصور الموحدي (580_595هـ/1184_1199م)،⁽¹⁾ أما في العهد الحفصي فتمّ بناء أول مدرسة على يد السلطان الحفصي أبي زكريا (633هـ_647هـ/1235م_1249م)؛ وهي المدرسة الشمّاعية، ثم اقتدى المرينيون بالحفصيين، وأنشأ يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 675هـ/1276م مدرسة الصفّاريين، ليحذوا حذوهم بنو زيان في الأخير، ويؤسسوا العديد من المدارس في المغرب الأوسط مع بداية القرن 8هـ/14م.⁽²⁾ ومنها:

1. مدرسة أولاد الإمام:

شيّدت بأمر من السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول تكريماً للعالمين الجليلين؛ أبي زيد عبد الرحمن، وأبي موسى عيسى سنة 710هـ/1310م،⁽³⁾ داخل باب كشوط⁽⁴⁾ بناحية المطهر، وتتكون من قاعتين واسعتين يدرس فيهما الطلبة، وبجانبهما بيتان يقيم فيهما الشيخان.⁽⁵⁾ تعتبر هذه المدرسة أولى المدارس الزيانية التي شيّدت آنذاك؛ لذا تعرف بالمدرسة القديمة، وظلّت مركزاً علمياً ثقافياً تخرّج منها العديد من الطلبة الذين أصبحوا من كبار العلماء الذين قادوا الحركة العلمية فيما بعد كالأبلي،⁽⁶⁾ وكثير من الطلبة الذين أصبحوا بعد فترة من تكوينهم أساتذة في مختلف العلوم.⁽¹⁾

¹ _ بن قرية صالح وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، (د.ط)، 2007م، ص: 136، 137.

² _ بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص: 54.

³ _ ابن مريم، المصدر السابق، ص: 126. ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 72. شقرون الجليلي، تلمسان مركز إشعاع حضاري في المغرب الأوسط، مجلة الفقه والقانون، ص: 6.

⁴ _ بن قرية صالح وآخرون، المرجع السابق، ص: 141.

⁵ _ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص: 134. بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 248.

⁶ _ الأبلي: هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الأبلي، ولد سنة 681هـ، أخذ عن فقهاء تلمسان منهم أبي الحسن وابني الإمام، رحل في آخر المائة السابعة إلى المشرق، ثم دخل تلمسان وأقام بها. ينظر: القرافي بدر الدين محمد بن يحيى بن

وظلّت هذه المدرسة تؤدي دورها التعليمي حتى منتصف القرن 13هـ/19م، غير أنه انطمست آثارها، ولم يبق منها إلا المسجد الذي أشرنا إليه سابقاً.⁽²⁾

2. المدرسة التاشفينية:

تعتبر ثاني مدرسة زيانية، تعرف أيضاً بالمدرسة الجديدة، شيّدت من طرف السلطان الزياني أبي تاشفين بن أبي حمو موسى الأول في الفترة ما بين سنتي (718هـ_737هـ/1318م_1337م)،⁽³⁾ بجانب الجامع الأعظم⁽⁴⁾ في الجهة الجنوبية له، ولم يكن اختيار هذا الموقع اعتباطياً وإنما كان مدروساً فهي تجاور القصر والقيسارية، وهذا ما يساعدها على أداء رسالتها التعليمية، خاصة وأن سكان المنطقة يكتّون التقدير لهذه المباني المجاورة لها بدءاً بالمسجد الأعظم الذي كان له مكانة خاصة لديهم.⁽⁵⁾

أما بطلها فقد كانت غاية في الإتقان، ومما زاد في فخامتها هو تلك النفائس التي زيّنت بها، خاصة الشجرة الفضية التي لا مثيل لها في المغرب،⁽⁶⁾ كما جعلها بحق أضخم مدرسة في المغرب الأوسط، وظلت تؤدي رسالتها العلمية حتى نهاية القرن العاشر 10هـ/16م،⁽⁷⁾ ومن بين أشهر المدرسين بها العالم المالكي أبو موسى المشدالي⁽⁸⁾ الذي كان من كبار العلماء.⁽⁹⁾

عمر (ت 1008هـ)، توشيح الديباج وحلية الإبتهاج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1425هـ/2004م، ص: 231.

¹ _ بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص: 56، 57. أبو الأحفان محمد بن الهادي، الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني، الدار العربية للكتاب، طرابلس (الجمهورية العربية الليبية)، الدار العربية للكتاب، تنس، (د.ط)، 1988م، ص: 63، 64.

² _ بن قرية صالح وآخرون، المرجع السابق، ص: 142.

³ _ براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 67.

⁴ _ التنسي، المصدر السابق، ص: 141.

⁵ _ بن قرية صالح وآخرون، المرجع السابق، ص: 144، 145.

⁶ _ براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 67.

⁷ _ بن قرية صالح وآخرون، المرجع السابق، ص: 145.

⁸ _ المشدالي: هو أبو موسى عمران المشدالي، أصله من بجاية، قدم تلمسان في أيام أبي تاشفين الذي أكرم مثواه، أخذ عن كثير من العلماء منهم أبو علي ناصر الدين بيجاية، وتوفي سنة 745هـ. ينظر: ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 72.

⁹ _ التنسي، المصدر السابق، ص: 141، 142.

3. مدرسة العباد:

تعتبر من أهم المدارس المرينية التي أنشئت في المغرب الأوسط، وقد شيّد لها السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق سنة 747هـ/1346م.⁽¹⁾

ولم تزل هذه المدرسة قائمة لحد الآن في العباد في مكان مرتفع، وهي مربعة الشكل، بها مدخل كبير يحيط به مستطيل، يزيّنه قوس مفصص، ويتوسطه باب من الخشب يفتح دائما، بينما الباب الكبير لا يفتح إلا عند الضرورة،⁽²⁾ ويفتح على صحن تحيط به بأكّة من العقود من جميع جهاته، وتتوسطه نافورة تسكب الماء في الصهريج،⁽³⁾ بجانبه صحن دائري من الرخام خصّص للوضوء والشرب.

وفي الجهة المقابلة للصحن نجد قاعة للمحاضرات بابها يشبه المدخل الكبير للمدرسة يتوسطها محراب،⁽⁴⁾ تعلوها قبة، وإلى جانب قاعة المحاضرات توجد عشر حجرات، وبعض الغرف التي استعملت لتخزين المواد الغذائية ومواد التنظيف، وكذا المراحيض والحمامات، كما يحتوي أيضا على نافذتين.⁽⁵⁾ هذا فيما يخص الطابق السفلي، أما الطابق العلوي فيحتوي على ثماني غرف كل واحدة منهم تتسع لشخصين مخصصة للطلاب الداخليين،⁽⁶⁾ وقد درس في هذه المدرسة العديد من الطلبة الذين ذاع صيتهم فيما بعد، وعلى رأسهم العلامة عبد الرحمان بن خلدون.⁽⁷⁾

فمن خلال ما تمّ ذكره نستطيع القول أنّها من أجمل المدارس في المغرب الأوسط، والتي مازالت تشهد على مدى اهتمام سلاطين القرون الوسطى بالفن المعماري.

¹ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 276. ينظر: ابن مرزوق الخطيب، المسند الصّحيح، ص: 406.

² _ براهيمى نصر الدين، المرجع السابق، ص: 195.

³ _ صالح بن قرية وآخرون، المرجع السابق، ص: 176. براهيمى نصر الدين، المرجع السابق، ص: 195.

⁴ _ عبدلي لخضر، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، ط1، 2011م، ص: 246.

⁵ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 143، 144.

⁶ _ عبدلي لخضر، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ص: 246.

⁷ _ زيدون نادية وآخرون، تلمسان عاصمة التراث والتاريخ، منشورات CDSP، (د.م.ن)، (د.ط)، 2010م، ص: 69.

4. مدرسة سيدي الحلوي:

وهي ثاني مدرسة شيّدها بنو مرين في تلمسان أسست على يد السلطان أبي عنان المريني خلال استيلائه على تلمسان سنة 754هـ/1354م، على مقربة من ضريح الولي الصالح سيدي الحلوي،⁽¹⁾ في مكان منحدر تطلّ عليه أسوار تلمسان الشمالية الشرقية.

أما من ناحية تصميمها فالمدارس المرينية أخذت نفس الشكل تقريبا، بحيث كلها تطل على صحن مكشوف تتوسطه نافورة رخامية، ويحيط به من الجهات الثلاثة غرف للطلبة مكونة من طابقين علوي وسفلي، أما في جهة القبلة نجد قاعة كبيرة لإلقاء الدروس؛ وهي أيضا بمثابة مصلى للطلبة.⁽²⁾

ويصفها النيميري في قوله: «وتتصل بهذه الزاوية [زاوية سيدي الحلوي] من جهة الجوف مدرسة متعددة البيوت، رفيعة السموت، بديعة النعوت، وبها أبواب تشرع إلى ديار كاملة المنافع حسنة المقاطع، معينة لرؤساء القائمين بالوظائف المتولية لإرفاد البادي والعاكف».⁽³⁾

وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على العناية الفائقة التي أولاها السلاطين المرينيون بالعلم، وذلك من خلال إنجازهم للمدارس، وما يلحق بها من خزائن الكتب، والحرص على أن تظهر في أجمل صورة لتخلّد أسماءهم في صفحات التاريخ، غير أن آثار هذه المدرسة قد انمحت إما في العهد العثماني أو بعده بقليل.⁽⁴⁾

5. المدرسة اليعقوبية:

أسسها السلطان أبو حمو موسى الثاني تليدا لذكرى والده يعقوب وعمّه أبي سعيد وأبي ثابت،⁽⁵⁾ وتقع شمال مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، وجعلها ملحقا للمقبرة الزيانية التي دفن فيها

¹ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 277. فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 144. شقرون الجيلالي،

تلمسان مركز إشعاع حضاري في المغرب الأوسط، ص: 6.

² _ بن قرية صالح وآخرون، المرجع السابق، ص: 177، 178.

³ _ النيميري، المصدر السابق، ص: 488.

⁴ _ عمارة فاطمة الزهراء، المدارس التعليمية بتلمسان (8_9هـ/14_15م)، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية،

إشر: محمد بن عمر، جامعة وهران، 1431هـ/2010م، ص: 44، 46.

⁵ _ الجيلالي شقرون، تلمسان مركز إشعاع حضاري في المغرب الأوسط، ص: 6. ينظر: التنسي، المصدر السابق، ص:

فيها أبوه وأعمامه،⁽¹⁾ وكان ذلك سنة 763هـ/1362م، واستغرق وقتا طويلا في بنائها حتى سنة 765هـ/1364م، ويعتبر الشيخ أبي عبد الله الشريف التلمساني⁽²⁾ وأول من تولى التدريس بها،⁽³⁾ أما من الناحية الوصفية فلم تورد لا المصادر ولا المراجع شيئا عن ذلك، لذا اكتفينا فقط بالإشارة إلى مؤسسها وموقعها، وكذا أهم المدرسين بها.

6. مدرسة الحسن بن مخلوف:

بنيت هذه المدرسة من طرف أبي العباس أحمد العاقل سنة 834هـ/1430م للشيخ أبي علي الحسن بن مخلوف، وأوقف عليها العديد من الأوقاف،⁽⁴⁾ تقع بالقرب من مسجد سيدي الحلوي، ولم يبق منها إلا المسجد.⁽⁵⁾

ولكن إذا تعمّقنا أكثر في النص الذي أورده التنسي يتّضح لنا أن السلطان أحمد العاقل أعاد إحياء هذه المدرسة، ويظهر ذلك في قوله: «أوقف عليها أوقافا جليلة ووجد كثيرا من ربع الأحباس قد دثر، وللوظائف التي بها انقطعت فأحي رسمها، وجرد ما دثر والوظائف على أزيد مما كانت عليه قبل»،⁽⁶⁾ وهذا ما يتناقض مع بداية قوله عندما يقول: «بنى بزاويته المدرسة الجديدة»،⁽⁷⁾ والأرجح أن السلطان أحمد العاقل رمّم المدرسة المرينية المعروفة بمدرسة سيدي الحلوي.

7. مدرسة مازونة:

لا يعرف تاريخ إنشائها بالضبط، وعلى يد من أسّست، لكن المرجح أنها تعود للنصف الثاني من القرن 9هـ/15م، والواضح أنها أسّست من طرف أحد العلماء مثلها مثل المدرسة التي تأسست بعدها على يد أحد الطلاب الذي طلب العون من شيوخ القبائل العربية، الذين ساعدوه بالأموال،

¹ _ عبدلي لخضر، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ص: 251.

² _ أبو عبد الله الشريف التلمساني: هو محمد أبو عبد الله الشريف التلمساني، من شيوخ القلصادي، توفي سنة 847هـ، ودفن بباب الجياد. ينظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص: 222.

³ _ بالأعرج عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 157. بن قرية صالح وآخرون، المرجع السابق، ص: 153.

⁴ _ التنسي، المصدر السابق، ص ص: 248، 249.

⁵ _ عبدلي لخضر، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ص: 251.

⁶ _ التنسي، المصدر السابق، ص ص: 248، 249.

⁷ _ المصدر نفسه، ص: 248.

بينما ساعده سكان مازونة على البناء، وهذا ما يتسم به المسلمون من تكافل وتعاون، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمؤسسات الدينية والتعليمية،⁽¹⁾ وهي نموذج عن مدارس تلمسان، فقد احتوت أيضا على غرف خصصت للطلبة.⁽²⁾

¹ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص ص: 277_279.

² _ بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص: 61.

ثالثاً: الزوايا والكتاتيب:

1-3. الكتاتيب:

يعتبر الكتّاب⁽¹⁾ مركزاً من أقدم المراكز التعليمية في العالم الإسلامي، ويقال أن العرب عرفوه قبل الإسلام، ولكن على نطاق محدود جداً، بحيث كان في القرون الهجرية الأولى بمثابة المدارس الابتدائية في عصرنا الحالي، فقد كان الهدف من إنشائها تعليم الأطفال الصغار المبادئ الأولى للغة العربية والحساب، وكذا تحفيظهم للقرآن الكريم؛⁽²⁾ وذلك لإفتاء العلماء بعدم جواز تعليم الصبيان في المساجد، حفاظاً على نظافتها من الذّجاسة التي قد يحملها هؤلاء الأطفال.⁽³⁾

ولقد عرف المغرب الإسلامي على غرار المشرق ظهور مختلف المنشآت التعليمية، وعلى رأسها الكتاتيب، ولاسيما المغرب الأوسط، ودخل هذا النوع من التعليم إلى بلاد المغرب على يد العرب الفاتحين الأوائل، وكان آنذاك عبارة عن خيمة تصاحبهم في حلالهم وترحالهم، هذا في الأرياف، أمّا في المدن فكان عبارة عن غرفة واحدة في الغالب، إمّا تابعة للمسجد أو بعيدة عنه قليلاً،⁽⁴⁾ إلا أن هذا النوع من المؤسسات التعليمية وجد بكثرة خطّة في القرى والمداشر، على غرار المدن الكبيرة التي عرفت إلى جانبها بناء المساجد والمدارس كتلمسان، ندرومة، وهران والجزائر.⁽⁵⁾

وكان إنشائها غالباً ما يكون على يد بعض المتطوعين الميسوري الحال، أو باتفاق مجموعة من أولياء الصبيان، وذلك ليس إلاّ رغبة في تعليم أبنائهم، كما كان بعض المعلمين أحياناً يقومون بكراء محلات أو دكاكين للتعليم بها.⁽⁶⁾

¹ _ الكتّاب هو مكان صغير لتعليم الصّبيان القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن الكريم. ينظر: المعجم الوسيط، ص: 795.

² _ السّرحاني غالب، ماذا قدّم المسلمون للعالم؟ "إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية"، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط2، 1430هـ/2009م، ص: 191.

³ _ الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 914هـ)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج7، إشر: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ط)، 1401هـ/1981م، ص: 36، 83.

⁴ _ رزيوي زينب، الكتاتيب في المغرب الأوسط بين القرنين (7_9هـ/13_15م)، دورية كان التاريخية، ع25، ذو القعدة 1435هـ/سبتمبر 2014م، ص: 128.

⁵ _ بوشقيف محمد، المرجع السّابق، ص: 42.

⁶ _ يكاوي هوارية، المرجع السّابق، ص: 55.

وقد عرف انتشارا واسعا نظرا لبساطته من حيث البناء والتجهيز، فلم يكن يخرج في ذلك عن الأثاث التقليدي كالحصير المصنوع من الحلفاء، والألواح الخشبية التي تستعمل للكتابة، وأقلام من القصب، وإناء يستخدمه الأطفال لمحو ألواحهم يسمى المحو.⁽¹⁾

إلا أنه بمرور الزمن عرف الكتّاب تطورا ملحوظا، وخاصة خلال القرن 8هـ/14م، والذي تزامن في المغرب الأوسط مع الدولة الزيانية في عصرها الذهبي؛ إذ تحول من قاعة بسيطة إلى حجرة واسعة مجهّزة بمصاطب تستخدم كمقاعد للأطفال، ومن جانب آخر أصبحت الأوقاف⁽²⁾ هي من تتولى الإشراف المادي على عملية التعليم بعدما كان ذلك يتم على عاتق أولياء التلاميذ،⁽³⁾ وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على الرغبة الملحة بتطوير هذه المؤسسات، والسير بها إلى الأفضل ماديا ومعنويا.

وكان التعليما تعليما أوليا، بحيث يدخلها الأطفال على سنّ السابعة، فيتعلم بها أهم المبادئ الأولى كالقراءة والكتابة، ويتمكن من حفظ بعض الأجزاء من القرآن الكريم وتجويده وكذا إعرابه، بالإضافة إلى ذلك يتم تعليمهم أحكام الوضوء والصلاة، لينتقل بعدها إلى الزوايا والمساجد ليتلمّ مزاوله دراسته في مختلف التخصصات الأخرى.⁽⁴⁾

ولم نعتز على أمثلة تمكّننا من وصفه بالدقة، إلا ما وجدناه من المراحل التاريخية لظهوره وتطوره من مرحلة إلى أخرى، ومن ذلك نجد كتّاب "مرسى الطلبة" بالعاصمة تلمسان مقر تدريس المعلم أبي عبد الله بن أبي مرزوق، فلم يذكر منه غير اسمه، وكذا صاحبه الذي كان يقوم عليه.⁽⁵⁾

¹ قدور منصورية، المرجع السابق، ص: 66. عبدلي لخضر، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ص: 75.

² عن الأوقاف الخاصة بالمدارس والمساجد وغيرها من المؤسسات التعليمية. ينظر: الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص ص: 239_237.

³ زويوي زينب، المرجع السابق، ص: 128، 130.

⁴ برنشفيك روبر، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، ص ص: 376، 377. كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار المغرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، (د.ط)، 1996م، ص: 114.

⁵ يوشقيف محمد، المرجع السابق، ص ص: 41، 42.

2-3. الزوايا:

الزاوية هي عبارة عن مؤسسة ذات طابع ثقافي، ديني، اجتماعي، فإلى جانب كونها مركزاً لإقامة الصلوات، وإلقاء الدروس على الطلاب والمريدين، كانت داراً مجانية لإطعام وإيواء عابري السبيل، وكذلك مركزاً لإلقاء المحاضرات في مختلف العلوم،⁽¹⁾ وهو ما عرف في المشرق باسم "الربط" أو "الخلقة" ابن مرزوق يوضح لنا ذلك من خلال تعريفه للربط في المشرق، الذي يقول أنه المكان الذي يلتزم المتصوفة فيه العبادة، أما في المغرب فتعرف بالزوايا؛ وهي المرافق المعدة لإرفاق الواردين، وإطعام المحتاجين من القاصدين إليها.⁽²⁾ وكانت تقام مثلها مثل الكتاتيب من قبل بعض المتطوعين من أهل الخير، وكذا رجال الصوفية، والقائم عليها كان يعرف بالناظر؛ والذي كان مكلفاً بتلقين الأتباع أسرار الطريقة، إلى جانب الوعظ والإرشاد.⁽³⁾

أما فيما يخص الوصف المعماري للزوايا في المغرب الأوسط، فلم تورد المراجع إلا ما كان بصفة عامة، غير أنها تمكننا من إعطاء لمحة عن مخططها، فالزوايا تجمع بين هندسة المسجد والمنزل، وتكون قصيرة الجدران، قبابها غير عالية، قليلة النوافذ، وتشتمل هذه المؤسسة على مرافق أهمها: مسجد لأداء الصلوات، يكون في الأغلب بدون مئذنة،⁽⁴⁾ وأبنية يسكنها الإمام، المؤذن والناظر، وبيوتا أخرى لسكنى الطلبة الغرباء، وعابري السبيل من الزوار والحجيج وغيرهم، وداراً مخصصة للطبخ؛ لإطعام النازلين بها، كما كانت هذه الزوايا تحتوي على مدافن أولياء الله الصالحين، وغالباً ما كان يدفن فيها الولي الذي أقامها، وينصب له ضريح بها، يصبح مزاراً للتبرك به،⁽⁵⁾ وعموماً فشكلها يوحى بالتقشف بالتقشف والزهد.⁽⁶⁾

¹ فيلالي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 148. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)، دار المعارف، القاهرة، ط1، (د.ت)، ص: 80.

² ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص: 411، 413.

³ بكاي هوارية، المرجع السابق، ص: 56، 57.

⁴ سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ج1، ص: 270.

⁵ قريان عبد الجليل، التعليم بتلمسان في العهد الزياني، جسر للنشر والتوزيع، المحمدية (الجزائر)، ط1، 1432هـ/2011م، ص: 180، 181. شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 80.

⁶ سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ج1، ص: 270.

والمغرب الأوسط لم يعرف الزوايا إلا بعد القرن 5هـ/11م، بحيث أول زاوية أنشأت هناك هي زاوية طولقة في القرن 6هـ/12م، ثم أخذت في الانتشار ما بين القرنين (8_9هـ/14_15م)،⁽¹⁾ بحيث دأب سلاطين بني زيان كغيرهم من حكام الدول المجاورة على الاهتمام بإنشاء هذه الزوايا والرباطات، ومن أهمها:

1. زاوية أبي عبد الله: وأنشئت في عهد يغمراسن بن زيان على يد الشيخ أبي عبد الله، أخذ لهذا اسمه، والذي ألزم كل من دخل زاويته بالتقيد بأخلاق السلف الصالح، والالتزام بالسنة النبوية.⁽²⁾

2. زاوية سيدي أبي الحسن: وشيّد لها السلطان أبو سعيد عثمان.⁽³⁾

3. زاوية العبداء: شيّد لها السلطان المريني أبو الحسن، وتنسب إلى الولي الصالح أبي مدين شعيب،⁽⁴⁾ وكان يشرف عليها أبي عبد الله بن أبي مرزوق.⁽⁵⁾

4. زاوية سيدي الحلوي: والتي أنشأها السلطان أبو عنان في شمال المدينة،⁽⁶⁾ وهي ملاصقة للمسجد، وتزيّن نها قبة من أروع القباب، أعجب بها النميري، وهذا ما صرح به في قوله: «وتتصل به الزاوية [أي بمسجد سيدي الحلوي] المنفسحة الأرجاء للابسة حلل السنا والسناء المزدانة بالقبة التي يحسد ارتفاع سمكها السمّاك، وتتمنى الإعتاد بصدرها الأملاك، وتخنّع لجلال مبناها الأفلاك».⁽⁷⁾

5. زاوية أبي يعقوب: وأنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني على ضريح والده،⁽⁸⁾ وأضيفت لها المئذنة مع أواخر العهد الزياني، أو بداية العهد التركي.⁽¹⁾

¹ جاب الله طيب، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، معارف (مجلة علمية محكمة)، جامعة البويرة، ع14، السنة الثامنة، أكتوبر، 2013م، ص: 138.

² بلعري خالد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن "دراسة تاريخية حضارية" (633-681هـ/1235-1282م)، الأملية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص: 316.

³ قريان عبد الجليل، المرجع السابق، ص: 179.

⁴ يوشقيف محمد، المرجع السابق، ص: 62. ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، ص: 368.

⁵ بلعري خالد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ص: 317.

⁶ فيلال عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 149. براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 219.

⁷ النميري، المصدر السابق، ص: 488.

⁸ فيلال عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 149.

وهناك أسماءٌ أخرى لبعض الزوايا ذكرت دون أي تفصيل عنها؛ وهي: زاوية الحسن بن مخلوف (أبركان)؛ وكانت بالقرب من المدرسة الجديدة التي جدّها السلطان أبو العباس أحمد العاقل.⁽²⁾ زاوية "الشيخ السنوسي"، زاوية "ابن البناء"، زاوية "الشيخ العشّاشي" بشلف، "زاوية سيدي الذيب"، زاوية "أحمد الغماري" وزاوية "عين الحوت"،⁽³⁾ وزاوية "الثعالي" التي كانت خلال القرن 9هـ/15م،⁽⁴⁾ وكذا زاوية "الشيخ الزواوي"⁽⁵⁾ التي أنشأها بنفسه، في مدينة الجزائر.⁽⁶⁾ ورغبتها هذه المؤسسات المخصصة للتعليم الأولي، إلّا أنّها ساهمت وبقدر كبير في نشر العلم بين مختلف أفراد المجتمع، بحيث مكّنت من أراد المزيد من الدراسة في مختلف التخصصات أن يخوض غمار الرحلة العلمية للاستزادة والتحصيل.

فإلى جانب المساجد والأضرحة نجد الزيانيين أولو اهتماما كبيرا بالمؤسسات التعليمية، باعتبارها مركز إشعاع فكري تستطيع من خلالها الدولة بلوغ ازدهار حضاري في شتى المجالات.

¹ _ حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الزياني "حياته وآثاره"، بني مرابط، (د.م.ن)، ط1، 1432هـ/2011م، ص ص: 240، 241.

² _ التنسي، المصدر السابق، ص ص: 248، 249.

³ _ سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق ج1، ص: 265.

⁴ _ قرين عبد الجليل، المرجع السابق، ص: 179.

⁵ _ الشيخ الزواوي هو محمد بن يعقوب بن يوسف المنجلاتي الزواوي المكنىّ أبو عبد الله، عرف بالزواوي نسبة إلى قبيلة من البربر، تولى القضاء ببجاية. ينظر: التنبكي، نيل الإبتهاج، ص ص: 389، 390.

⁶ _ عموره عمار، الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة "ما قبل التاريخ إلى 1962م")، ج2، دار المعرفة، الجزائر، (د.ط)، 2009م، ص: 40.

المبحث الثالث: التحصينات العسكرية

أولاً: الأسوار والأبواب:

1-1. الأسوار:

لقد شاع بناء الأسوار لدى مختلف الشعوب والحضارات منذ القدم، وكان بناؤها يتبع بناء المدن، وهذا أمر طبيعي من كون أن المدن كانت تتعرض للغارات من غيرها، فكان السور بذلك بمثابة الواقي الذي يحمي المدينة من الأعداء.

وإذا قلنا أن مدينة تلمسان ضاربة بجذورها في التاريخ القديم، فإنه وكما يرجح المؤرخون أحيط بها سور حصين منذ العهد الروماني، بحيث كان الرّومان يقيمون به العديد من المعسكرات لصدّ الغارات الخارجية.⁽¹⁾

وبعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب تغير اسم المدينة من بوماريا إلى أفادير، وفي حدود المائة الثانية انتشر المذهب الصّفي في المنطقة، فقام زعيمهم أبو قرّة اليفرني ببناء سور عظيم حول المدينة سنة 148هـ/755م، والذي لا يزال أحد أبوابه يحمل اسم أبي قرّة اليفرني⁽²⁾، وظل قائماً إلى القرن 5هـ/11م إذ وصفها البكري بأنها مدينة مسوّرة، ويذكر في معرض حديثه هذا الباب.⁽³⁾

وبعد دخول الملتحمين إلى المغرب الأوسط وضمّهم لتلمسان وما جاورها، قام قائدهم يوسف بن تاشفين بتأسيس مدينة تافّرت، والتي تمّ تحصينها وتشيد أسوارها في عهد عبد المؤمن بن علي الموحي؛ فكان ذلك على يد موسى بن يوسف العسري بن عبد المؤمن بن علي سنة 566هـ/1170م⁽⁴⁾، وزاد من تحصينها أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن عام 581هـ/1185م مخافة مخافة من مدامه خطر بني غانية لهم⁽⁵⁾، وهذا ما أورده الإدريسي في خضمّ حديثه عن المدينة بقوله: «وتلمسان مدينة أزية، ولها سور حصين متقن الوثاق؛ وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور»⁽⁶⁾، وكذلك ياقق الحموي الذي يجعلها مدينتان مسوّرتان.⁽¹⁾

¹ _ الدراجي بوزياني، المرجع السابق، ج1، ص: 84.

² _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 47.

³ _ البكري، المصدر السابق، ص: 76.

⁴ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 21.

⁵ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 104.

⁶ _ الإدريسي، المصدر السابق، مج1، ص: 249.

وظلّت على هذا الشكل إلى أن استحوذ بنو عبد الواد على الناحية الغربية للمغرب الأوسط، ثمّ ما كان منهم من إعلّانهم الانفصال عن الموحدين، فقام زعيمهم يغمراسن بن زيان بالجمع بين المدينتين تحت سور واحد⁽²⁾ كان غاية في المتانة والصلابة هذا إلّا أنّ صاحب: "باقة السوسان" يذكر أنّ تلمسان كان يحيط بها سوران؛⁽³⁾ واحد داخلي، والآخر خارجي، وأنّ المسافة بينهما لا تقل عن 300 متر، وبها أبراج لمقاومة الهجمات التي تتعرض لها المنطقة.⁽⁴⁾

وبتفانم الخطر المريني زاد يغمراسن من تحصين المدينة، فقام سنة 668هـ/1268م ببناء نحو ستة أسوار من الجهة الجنوبية الغربية،⁽⁵⁾ وكانت هذه الأسوار غاية في الإحكام والتحصين، تعلوها أبراج، وتخلّلها حصون تمكّنها من مواجهة الخطر المريني الذي كان يترصد بهم، غير أنّها تختلف عن بعضها البعض، لا في طريقة بنائها ولا في المواد المستخدمة في ذلك؛ ففي بعض المناطق كان يستخدم الآجر، بينما كانت آنذاك لا تزال مناطق أخرى يعتمدون طريقة البناء القديمة المتمثلة في الرّمل والجير والكلس.⁽⁶⁾

ورغم متانة هذه الأسوار وصلابتها إلّا أنّ المرينيين تمكنوا من اقتحام المنطقة، وتخريب ما بها من آثار زيانية، وخاصة في أثناء حصار الثماني سنوات، وهذا ما يعبر عنه ابن خلدون بصريح العبارة: «ودخل أبو حمو تلمسان وهي طلل وأسوارها خراب»⁽⁷⁾ وبعد زوال الخطر المريني قام أبو حمو الأول بإعادة ترميم أسوارها، وكذلك الأمر بالنسبة لابنه أبي تاشفين الذي زاد من تحصينها، غير أنّ ذلك لم يطل بها.⁽⁸⁾

ولم يقتصر تشييد الأسوار خلال هذه الفترة على بني زيان فحسب، بل حتّى المرينيين جعلوا ذلك من مهامهم؛ فهذا يوسف بن عبد الحق لمّا حاصر تلمسان سنة 698هـ/1298م، وأقام بها مدينة

¹ _ الحموي ياقوت، المصدر السابق، مج2، ص: 44.

² _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 161.

³ _ وينفرد العمري بقوله أنّ المدينة يحيط بها ثلاثة أسوار. ينظر: العمري، المصدر السابق، ص: 206.

⁴ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 161.

⁵ _ بلعري خالّد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ص: 349، 350.

⁶ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 111.

⁷ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 480.

⁸ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 127، 133.

المنصورة أحاطها بسور؛ وذلك حتى يتمكن من إحكام السيطرة على المنطقة،⁽¹⁾ واعتمد في بنائها على الطابية، ويقدر ارتفاعه 12 متر إلى قمة الأبراج، و9.20 متر إلى نهاية السور نفسه، وينتهي بشرفات إمّا هرمية أو رباعية الشكل عرضها 0.70 متر، وارتفاعها 0.85 متر أمّا ممرّ الجند فيقوم عند 7.60 متر من ارتفاع الجدار، ويمتد معه على المدينة، وعلى نفس المستوى من الارتفاع، واتساعه حوالي 0.80 متر، وسمكه 0.70 متر، وبطريقة لائقة تمكن الجند من القيام بمهمّتهم على أحسن وجه.⁽²⁾

إلاّ أنّه وحسب إشارات المصادر فإنّ المنصورة قد أحيطت بسورين؛ الأول يحيط بقصره والجامع الأعظم فقط، بناؤه في السنة التي سيطر فيها على المنطقة، أمّا الثاني فقد أداره على كامل المدينة سنة 702/1302م وهو المعروف بالسور الأعظم.⁽³⁾

إلاّ أنّ هذه المدينة خربت من طرف الزيانيين بعدما تمكنوا من استرجاع أجداد ملكهم، غير أنّ أبا الحسن المريني استطاع إحيلها ما أتيحت له الفرصة للاستحواذ على المنطقة سنة 735/1334م، وأدار عليها سورا من جديد.⁽⁴⁾

ومن المدن أيضا التي نالت الاهتمام بالتحصين خلال هذه الفترة مدينة الجزائر، والتي أحاطها السلطان أبو تاشفين بسور عظيم.⁽⁵⁾ كذلك مدينة وجدة التي تصفها المصادر بأنّها ذات أسوار عالية متينة، مشيّدة على طراز أهل البلد؛ أي منذ القدم، إلاّ أنّها تأثرت بالحروب المتوالية بين بني زيان وبني مرين، وحظيت هي الأخرى بالترميم من طرف السلطان يوسف المريني الذي أمر بتجديد بنائها سنة 697/1297م، وتحصين أسوارها،⁽⁶⁾ غير أنّها لم تدم فترة طويلة، فعندما جاء أبو الحسن قام بتطويقها سنة 736/1335م.⁽⁷⁾ وندرومة أيضا التي يقول عنها الوزان آنذاك أنّ أسوارها لا تزال

¹ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 127. ابن خلدون يحي، المصدر السابق، مج1، ص: 121.

² _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 241.

³ _ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 387.

⁴ _ السلاوي، المرجع السابق، ج3، ص: 124.

⁵ _ الملي مبارك، المرجع السابق، ج2، ص: 486.

⁶ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 14. عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان (633هـ _

962/1236م _ 1554م)، دار الأوطان، (د.م.ن)، ط1، 2011م، ص: 12.

⁷ _ السلاوي، المرجع السابق، ج3، ص: 124.

كاملة، لكن دورها خرب⁽¹⁾ بت وهذا إنما يدل على أن الحروب لم تؤثر على الأسوار، بقدر ما أثرت على المنازل.

ولم تكن المدن فحسب هي التي تحاط بالأسوار، فحتى القصور أخذت نصيبها من ذلك؛ فالمشور على سبيل المثال أو القصر الملكي كما يسمى كان أيضا محاطا بأسوار عالية،⁽²⁾ وشهد هذا السور ترميما على يد أحمد بن الناصر بن أبي حمو سنة 850هـ/1446م.⁽³⁾

وما نستنتجه هنا هو أن بناء الأسوار في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني كان يتحدد بين الفينة والأخرى، وعلى يد ملوك الدولتين الزيانية والمرينية؛ وهذا إنما يعود للاضطرابات التي عاشتها المنطقة وقتذاك؛ فكلما تمكنت إحداها من ضم المملكة إليها، إلا وتسخر كامل جهدها في تسويرها وتحصينها، بينما يسرع إليها الخراب إذا ما استرجعتها الأخرى.

2-1. الأبواب:

شلا أن بناء الأبواب يتماشى وبناء الأسوار، وإذا قلنا أن السور غالبا ما كان يحيط بكامل المدينة، فقد كانت تتعدد الأبواب في المدينة الواحدة، وهذا ما نجده واضحا جليا في مدينة تلمسان، وما جاورها من مدن أخرى.

وباعتبار أن تلمسان كانت مدينة قائمة منذ العهد الروماني، فقد كان يحيط بها سور محكم مبني على الطريقة الرومانية، وله أربعة أبواب.⁽⁴⁾

أما خلال العصر الإسلامي فمن المعروف أنهما مدينتان: أفادير وتافرارت؛ فالأولى هي التي قال عنها البكري: «هي مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز، ولها خمسة أبواب: ثلاثة منها في القبلة؛ باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة، وفي الشرق باب العقبة، وفي الغرب باب أبي قرّة»⁽⁵⁾ والثانية تعرف بتافرارت؛ والتي بناها ملك لمتونة يوسف بن تاشفين.⁽⁶⁾

¹ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 14.

² _ المصدر نفسه، ص: 14.

³ _ التنسي، المصدر السابق، ص: 253.

⁴ _ الدراجي بوزياني، المرجع السابق، ج1، ص: 127.

⁵ _ البكري، المصدر السابق، ص: 76.

⁶ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 21.

وبعد أن استقلَّ يغمراسن بن زيان بحكم تلمسان جمع بين المدينتين، وجعلهما مدينة واحدة وجمعهما تحت سور واحد؛⁽¹⁾ وهي التي يقصدها يحيى بن خلدون في قوله: «ولها خمسة أبواب: قبلة باب الجياد، وشرقا باب العقبة، وشمالا باب الحلوي وباب القرمدين، وغربا باب كشوط».⁽²⁾ ويتفق معه ابن مريم في ذكر الأبواب في خضمَّ حديثه عن البلد تلمسان، باستثناء باب كشوط، غير أنه يذكره في وضع آخر في وصفه لمدرسة ابني الإمام التي يقول أنها كانت بداخل هذا الباب.⁽³⁾

ويقدِّم لنا الحسن الوزان الذي زار المنطقة مع نهاية الدولة الزيانية وصفا لهذه الأبواب؛ إذ يجعلها واسعة، مصاريعها مصفحة بالحديد.⁽⁴⁾ ولو أنَّ ذلك عاما، وليس دقيقا، إلاَّ أنه يمكننا من تصور الشكل العام لها، وبأنَّها مبنية بطريقة محكمة، وفي ظل غياب المادة العلمية بخصوص الوصف المعماري لهذه الأبواب نحاول إعطاء نبذة تاريخية لكل منها:

1. **باب العقبة:** ويقع في الجهة الشرقية للمدينة، وهو أحد أبواب مدينة أفادير، وأخذ عدَّة تسميات منها: باب "أفادير"، وباب "سيدي الداودي"، وبنيت قاعدته ببقايا من أحجار الرِّمان وظلَّ قائما إلى أن طُمست آثاره على يد الاستعمار الفرنسي.⁽⁵⁾
2. **باب سيدي الحلوي:** ويقع شمال تلمسان، وله عدَّة أسماء منها: باب "الزاوية" نسبة إلى زاوية سيدي الحلوي، وباب "علي" نسبة إلى الحيَّ الذي يوجد فيه.⁽⁶⁾
3. **باب القرمدين:** وهو أحد أبواب مدينة تلمسان، موقعه في الجهة الغربية منها، وهو بمثابة الحصن الدفاعي للمدينة من الغارات المرينية، ويشار أنَّه من خلال اسمه "القرمدين" كانت

¹ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 161.

² _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 19، 20.

³ _ ابن مريم، المصدر السابق، ص: 136، 126.

⁴ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 20.

⁵ _ موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية في تلمسان، ص: 12. فيلالي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 112.

⁶ _ عزي بوخالفة، تلمسان منارة إشعاع فكري وحضاري، دار السبيل للنشر والتوزيع، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م، ص: 74.

74. ابن مريم، المصدر السابق، ص: 136.

بالقرب منه مصانع وأفران لصناعة الفخار والآجر والقرميد⁽¹⁾ كما يرجح أيضا أن بناءه تمّ في العهد الزياني بعد التجديد الذي لقيته المنطقة من طرف عبد المؤمن بن علي الموحيدي⁽²⁾.

4. باب كشوط: ويقع في الجهة الغربية للمدينة، ويقال أن يغمراسن بن زيان هو من أمر ببنائه وتحصينه بأبراج عالية⁽³⁾.

5. باب الجياد: ومكانه في الجدار الشرقي لتاقرارت، ويصل بينها وبين أفدير، كما يعدّ المنفذ الوحيد إلى قرية العباد⁽⁴⁾.

6. باب سيدي بومدين: وبني في مكان باب الجياد الموجود شرق تلمسان، قيل أنه بني خلال العهد الزياني⁽⁵⁾.

هذا وإلى جانب هذه الأبواب، فقد ذكرت المصادر أبوابا أخرى يبدو أنها لم تكن على نفس الأهمية التي كانت عليها الأولى؛ فإما كانت أبوابا صغيرة أو قليلة المرور، لذلك لم تتعرض لها المصادر بالتفصيل، وهناك من أغفلها نهائيا.

فعلى سبيل المثال نجد ابن مريم ذكر بابا عرف باسم باب "زير" أثناء حديثه عن الحسن أبركان، بحيث ذكر أنه يسكن في باب زير⁽⁶⁾ كما ذكر كذلك بابا آخر هو باب "القسارية"، وذلك من خلال حديثه عن الولي سيدي حدّوش بن تيرت العبد وادي⁽⁷⁾ وأيضا باب "العزّابين" الذي دفن به أحد الأولياء الصالحين هو سيدي عيسى⁽⁸⁾ وأبوابا أخرى ذكرت في مختلف المؤلفات أمثال: باب باب "الخميس" والذي يعدّ أحد أبواب تاقرارت في الناحية الغربية منها⁽⁹⁾ وباب "إيلان" الذي

¹ _ عزّي بوخالفة، تلمسان منارة إشعاع فكري وحضاري، ص: 74.

² _ بوطارن مبارك، الموروث الإسلامي لتلمسان، ص: 74.

³ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 113.

⁴ _ موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية في تلمسان، ص: 14.

⁵ _ مقراطة عابد بختة، صور من ذاكرة تلمسان الوسيطة "جمال وعراقة"، منشورات الرياسية، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م،

ص: 138. موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية في تلمسان، ص: 36.

⁶ _ ابن مريم، المصدر السابق، ص: 77.

⁷ _ ذلك أن هذا الرجل تاب على يد الشيخ سيدي الحاج بعامر العبد وادي، وذات مرة سمع رجلين يتحدثان عنه، فهرب

وطلع في مدارج باب القسارية. ينظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص: 93.

⁸ _ المصدر نفسه، ص: 146.

⁹ _ بوطارن مبارك، الموروث الإسلامي لتلمسان، ص: 74.

يتوسط المدينة.⁽¹⁾ وهذا لربما يتقارب مع العدد الذي ذكره أبو الفدا صاحب كتاب: "تقويم البلدان" **البلدان** الذي يتعرض إلى وصف المدينة خلال العهد الزياني، ويعدّ د أبوابها بثلاثة عشر بابا.⁽²⁾ وكما ذكرنا سابقا أنّ محمد بن رمضان شاوش يقول أنّ مدينة تلمسان يحيط بها سوران، ويعدّ د أبواب كلّ منهما على حدى، ويضيف أبوابا أخرى لم تذكر مثل: باب "الأرواح"؛ الذي يعتبر أحد أبواب المدينة الأولى أفادير؛ وموقعه الجدار الشمالي بالقرب من حيّ القصارين، وأمّا تافراوت فيذكر إضافة إلى السّابقة باب "أصيلان"، وباب "سور الحمّام".⁽³⁾

وهذا التعدد والاختلاف في التسميات إنما راجع إلى احتماليّين؛ أنّها كانت تجدد كلما خرّبت المنطقة؛ فتأخذ بذلك أسماء جديدة، أو أنّ بعضها كان يأخذ عدة أسماء في آن واحد. وإذا صرّحنا بالقول أنّ للمرينيين أيضا تاريخ حافل في بلاد المغرب الأوسط، فقد جدّ هؤلاء في الاهتمام بمدّينتهم المنصورة، كغيرها من المدن التي أقاموها بالمغرب الأقصى، فحسب ابن خلدون أنّ أبا يعقوب يوسف أحاطها بسياج من الأسوار، وفتح فيه أبوابا لحرّبا، ويقول أنّ عددها أربعة،⁽⁴⁾ وقد أخذ المرينيون كغيرهم تسمية هذه الأبواب، إمّا نسبة إلى المدينة، أو الشارع الذي يقابلها، أو الحرفة التي تقام هناك، وهي كما يذكرها ابن مرزوق: باب "فاس"؛ وهو الباب الغربي، ويقابله باب "الحجاز" من الجهة الشرّقية، والباب الشّمالى؛ وهو باب "هنين" إمّا الباب الجنوبي فلم يذكر اسمه.⁽⁵⁾ وسنأتي على إعطاء نبذة عن وصفها حسب ما جاء عنها من أهل الاختصاص:

أ- **البابان الشرقي والغربي:** ويعرف الباب الشرقي باسم باب "الحجاز" نسبة إلى مدينة الحجاز؛⁽⁶⁾ وذلك نظرا لمكانتها لدى المغاربة الذين كانت أنفسهم تتوق إلى زيارة ذلك المكان

¹ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج3، ص: 132.

² _ أبو الفدا عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت 732هـ)، تقويم البلدان، تص: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، (د.ط)، 1830م، ص: 137.

³ _ شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 161.

⁴ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 127.

⁵ _ عياش محمد، المرجع السابق، ص: 86-89. ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح، ص: 403.

⁶ _ **الحجاز:** اختلف في سبب تسميتها بهذا الاسم، فقليل: سميت حجازا لأنها تفصل بين تامة ونجد، وقيل: بين الغور ونجد، بينما يذكر آخرون أنّه لما تفرقت شعوب العرب سار طسم في البحث عن إخوته الذين أخذوا ملكهم ونزلوا بالحجاز، فسمي بذلك لأنه حجزهم عن المسير، وحدّه من اليمن إلى الشام. ينظر: الحموي ياقوت، المصدر السابق، مج2، ص: 220_218.

لأداء فريضة الحج¹ الباب الغربي؛ فبال تأكيد أنهم نسبوه إلى عاصمة دولتهم فاس، ولا تزال آثار برج المدخل الغربي لهذا الباب واضحة إلى اليوم، ويقع على محور الباب الشرقي تقريبا.⁽¹⁾

ب- البابان الشمالي والجنوبي فأم² الباب الشمالي باب "هنين"؛ فمنسوب إلى مدينة هنين؛ لما لها من أهمية كبرى لديهم؛ بحيث كانوا يسعون إلى السيطرة عليها كلما دخلوا أرض المغرب الأوسط، من كونها همزة وصل تربط بين الشمال والجنوب، لهذا اعتمدها الزيانيون في تجارتهم، وكذلك الأمر بالنسبة للمرينيين.⁽²⁾ وأم³ الباب الجنوبي فلم يذكر له اسما؛ وذلك لعدم وجود مدينة مشهورة هناك، أو سوقا تجاريا يأخذ اسمه.⁽³⁾

وما تبين لنا من خلال هذا الجزء، هو أن تعدد الأبواب في المدينة بقدر ما يعطيها منظرا جميلا في نظر الزائر لها، ويساعد الناس على التجول فيها، بقدر ما يسبب لها أضرارا أكثر؛ إذ أنه يسهل للمهاجم لها طريقه؛ فيدخل من أيها شاء.

¹ _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 248، 249، 255.

² _ المرجع نفسه، ص: 248، 249.

³ _ عياش محمد، المرجع السابق، ص: 87.

ثانيا: الحصون والقلاع:

1-2. الحصون:

لقد عرف المغرب الأوسط كغيره من الأقطار الإسلامية تشييد الحصون⁽¹⁾ والقلاع⁽²⁾ على مرّ الدول والعصور، وهذا أمر تفرضه طبيعة العلاقات العدائية بين الدول القائمة في المغرب الإسلامي. ومن الحصون التي تعود إلى الفترة الزيانية نجد:

1. حصن ايسلي:

يذكر الحسن الوزان أنّ تأسيسه كان على يد الأفارقة،⁽³⁾ بينما يذكر آخرون أنّه يرجع إلى العهد الروماني من خلال أسواره المبنية بالحجر المنحوت على الطريقة الرومانية،⁽⁴⁾ واختلفت المصادر في كونه قصرا أم حصنا، ولكن أغلب الظن أنه حصن؛ بحيث كان سكان المنطقة في العهد الزياني يعدّون به حامية قوية ضدّ أعرب الصحراء.⁽⁵⁾

وقد تعرض شأنه شأن المنشآت الأخرى إلى التخريب نتيجة الاضطرابات السائدة بالمنطقة بين ملوك فاس وتلمسان، وظلّ هكذا إلى أن سكنه بعض الزهاد المتصوفة،⁽⁶⁾ وانقطعوا فيه لعبادة الله، ومن خلال ما يصفه الحسن الوزان؛ بحيث كان يشتمل على بيوت،⁽⁷⁾ فيبدو أنّه كان كبيرا يشبه المدينة.

¹ _ **الحصون:** الحصن هو مركز حامية أو حرس، وهو نوعان: النوع الأول يشكل بناء منفصلا قائما بذاته؛ ويبنى على السواحل، أو على حدود البلدان وثغورها، أو في طرق القوافل التجارية. والآخر يكون تابعا لبناء مدينة أو سور أو قصر أو خان. ينظر: أميلي حسن، المرجع السابق، (عربي فرنسي)، ص: 37. عبد المطلب جبار عبد الله، القلاع والحصون في المدن الإسلامية، (د.د.ن)، (د.م.ن)، (د.ط)، (د.ت)، ص: 4.

² _ **القلاع:** القلعة هي الحصن الممتنع في جبل. ينظر: ابن منظور، المصدر السابق، مج8، ص: 290. المعجم الوسيط، ص: 755.

³ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 12.

⁴ _ كرنخال مارمول، المرجع السابق، ج2، ص: 294.

⁵ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 12 كرنخال مارمول، المرجع السابق، ج2، ص: 293.

⁶ _ عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، ص: 90، 91.

⁷ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 12.

2. حصن تافركنيت: يبدو أنه شيّد على يد بعض زعماء زناتة، فلما عمد يغمراسن إلى حرب بني توجين سنة 647هـ/1249م تحصّن به زعيمهم محمد بن عبد القوي.⁽¹⁾

3. حصن تاوريت:

يذكر ابن أبي زرع أنه من بناء يوسف بن عبد الحق المريني لما خرج إلى غزو تلمسان سنة 695هـ/1295م إلا أنه وحسبما يذكر كان مشيدا من قبل، وكان على نصفين؛ نصف للزيانيين، والنصف الآخر للمرينيين، وإنما نسب إليه نظرا لما أولاه له من اهتمام؛ فأجلى عنه الزيانيين، وقدم على بنائه بنفسه، فأقام سورته وركّب أبوابه مصفحة بالحديد، ولمّا انتهى منه قدّم عليه أخاه يحيى بن يعقوب، وأسكن به قبيل بني عسكر،⁽²⁾ وعمل فيما بعد أبو حمو موسى الثاني على تخريبه نكابة في السلطان أبي سالم المريني⁽³⁾ لما استولى على تلمسان.⁽⁴⁾

4. حصن أزفون:

لقد اختلفت المصادر في طبيعته المعمارية من حيث أنه حصن أم قصر، فذكر ابن خلدون أنه حصن شيّده أبو حمو موسى الأول أثناء حصاره لبجاية، وسمّاه "أصفون"،⁽⁵⁾ بينما يذكر آخرون أنه قصرا بناه بعدما تمكّن من إخضاع مدينتي تدلس والجزائر، وذلك سنة 712هـ/1310م في مدّة لا تتجاوز أربعين يوما،⁽⁶⁾ وذكر عند بعض المؤرخين باسم "أزفون"، وهو نفس مكان المدينة المعروفة بالساحل الجزائري بهذا الاسم.⁽⁷⁾

ولكن إذا تتبعنا الأحداث التاريخية نجد أنّ أبا حمو قد ضيّق الخناق على الجزائر إلى أن امتلكها من يد ابن علان سنة 712هـ/1312م، وبعدها انشغل بأمر بجاية خلال سنة 714هـ/1314م أو

¹ _ حاجيات عبد الحميد، تاريخ دولة بني زيان، ص: 365، 366.

² _ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 385.

³ _ أبو سالم: هو إبراهيم بن أبي الحسن، يكنى بأبي سالم، بويغ سنة 760هـ، وقتل سنة 762هـ. ينظر: ابن الأحمر، روضة النسر، ص: 30.

⁴ _ مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، ج2، تح وتقر: الدّ راجي بوزياني، مؤسسة بوزيان للدراسات والتّوزيع، الجزائر، (د.ط)، 1231هـ/2013م، ص: 144.

⁵ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 137، 138.

⁶ _ بوطبل عبد القادر، المرجع السابق، ص: 26.

⁷ _ المرجع نفسه، ص: 26. شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 74.

بعدها، وأوكل أمرها إلى عمّه أبي سرحان مسعود بن أبي عامر برهوم، وشيّد بالقرب منها حصن أزفون، واتخذة بمثابة قاعدة للهجوم على بجاية الحفصية،⁽¹⁾ أنه هدّم من قبل الحفصيين.⁽²⁾

5. حصن بكر:

وأقامه السلطان أبو تاشفين الأول لما عزم على التوسع ناحية الشرق، فتردد على حصار كل من بجاية وقسنطينة بين سنتي (719-721هـ/1319-1321م) إلا أنه ما امتنعنا عنه، فارتأى بناء حصن هناك سمي بحصن "بكر" بمضيق وادي بجاية، وذلك حتى يتمكن من السيطرة على هذه النواحي، إلا أن ذلك كان دون جدوى، فاستدعاه الأمر إلى بناء حصن آخر هو تاميزدكت.⁽³⁾

6. حصن تاميزدكت:

اختلفت المصادر في تسميته هل هو حصن أم قصر، فيقول الحسن الوزان أنه قصر شيّد في القديم، وكان ملوك تلمسان يجعلونه بمثابة خط دفاعي لمدينتهم في حالة الهجوم عليهم من ناحية الغرب،⁽⁴⁾ بينما يذكر ابن خلدون أنه حصن قديم قبلة وجدة كان لبني عبد الواد قبل وصولهم إلى الملك،⁽⁵⁾ ولكن من خلال مهامه يظهر أنه حصن؛ بحيث ذكر كل منهما أنه اعتبر معسكرا في حالة تأهبهم للدفاع عن مدينتهم.

وحسب ما يذكر ابن خلدون فقد قام الزيانيون ببناء مدينة تحمل نفس الاسم لهذا الحصن، غير أنّها في الجانب الشرقي من المغرب الأوسط بسوق الخميس، وذلك أن الدولة الحفصية كانت تعيش نوعا من الاضطرابات الداخلية، فحاول السلطان الزياني أبو تاشفين الأول استغلال الفرصة ومهاجمة بجاية، وذلك منذ سنة 719هـ/1319م وكذا قسنطينة، فابتنوا المدينة المسماة هناك عام 726هـ/1325م، واستغرق بناؤها أربعين يوما، واستمرت إلى أن تمّ تخريبها من قبل السلطان أبي

¹ _ الدراجي بوزياني، المرجع السابق، ج1، ص: 195، 196. ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 137، 138.

² _ حساني مختار، تاريخ الدواة الزيانية، ج3، ص: 141.

³ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 143، 144.

⁴ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 11، 12. ينظر: كرنخال مارمول، المرجع السابق، ج2، ص: 293.

⁵ _ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 144.

الحسن المريني سنة 732هـ/1331م، بينما ذكر يحيى بن خلدون 733هـ/1332م.⁽¹⁾ وحرّبت من طرف الحفصيين بمعونة المرينيين.⁽²⁾

وعلى حد ما وجد من الكتابات التاريخية عن هذه المدينة، والتي ورد ذكرها في بعض المراجع باسم القلعة،⁽³⁾ وحسب الوصف الذي جاء عنها يظهر أنه حصن شيّد له الزيانيون من أجل إحكام السيطرة على مدينة بجاية وضواحيها، وذلك إنما راجع إلى عدة أسباب؛ أولها المدة التي بني فيها؛ بحيث لم تتجاوز الأربعين يوماً، وثانياً أنّ المدينة في العصر الوسيط كانت تشتمل على عناصر أساسية في مقدمتها المسجد الجامع، وكذا القصور، الدور والحمامات، وغيرها من عناصر المدينة الإسلامية، وهذا ما لم يذكره المؤرخون.

7. حصن الياقوتة: وهو من مآثر السلطان أبي تاشفين الأول بالوادي الواقع على مدينة بجاية.⁽⁴⁾

2-2. القلاع:

لم تشر المصادر إلى وجود قلاع إلاّ المتمثلة في قلعة "تاوغزوت" والتي يظهر أنّها كانت قائمة مع بداية العهد الزياني، وكانت رباطاً لبعض المنقطعين للعبادة، واختطها بنو سلامة (وهم شعوب من بني توجين، وإخوة بني يدلتن)، وبعد استئثار بني عبد الواد بالحكم عملوا على العبث بها أثناء إخضاعهم للقبائل، إلى أن دخل هؤلاء (أي بنو سلامة) في طاعة عثمان بن يغمراسن.⁽⁵⁾ كما يذكر الحميري، ومن كونه عاصر الفترة الزيانية قلعة تعرف بقلعة "ابن الجاهل" جنوب تلمسان متصلة بجبل تارني،⁽⁶⁾ ولكن لا ندري إلى أي فترة يعود بناؤها.

¹ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 143، 145. ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 134، 140.

² حاجيات عبد الحميد، تاريخ دولة بني زيان، ص: 183.

³ عزّوق عبد الكريم، تمزّدت قلعة حصار زيانية على أبواب بجاية "تلمسان العمارة والآثار الإسلامية"، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، منشورات

وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص: 94.

⁴ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج3، ص: 141.

⁵ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج7، ص: 216.

⁶ الحميري، المصدر السابق، ص: 135.

ومن خلال ما سبق التطرق إليه في هذا المجال نستشفّ أنّ الزيانيين رغم كثرة الحروب والغارات عليهم من الجانبين الشرقي والغربي، إلا أنهم لم يولوا لهاته البناءات اهتماما بالمقارنة مع باقي المنشآت العسكرية، ربما هذا ما كان سببا في انهزامهم عدة مرات أمام المرينيين.

ثالثا: الأبراج:

تعتبر الأبراج من بين المنشآت العسكرية التي عرفها المغرب الأوسط، لا سيما خلال الفترة الوسيطة، وأما ما ذكر عن وصفه العام؛ فهو بناء مرتفع يستخدم للدفاع عن المدينة، وهو ملحق بالسور، يلتحم معه من الأسفل إلى الأعلى، يبنى فوق مداخل المدينة من كونه مركزا للمراقبة،⁽¹⁾ وله عدة أشكال؛ منها المربع، الأسطواني، والنصف دائري،⁽²⁾ وأحيانا يكون بأضلاع متعامدة، ويشتمل على عدة أجزاء منها: الشرفات، المقاذف، مخازن المؤن والأسلحة، وبئر أو صهريج للماء.⁽³⁾ وهناك أبراج مستقلة، تكون في العادة مربعة تحوي نفس الأقسام السابقة، إضافة إلى بوابات ضخمة أغلبها يتصل بممرات منكسرة،⁽⁴⁾ وعند بنائها كان يراعى أن تكون التربة صلبة لتتحمل ثقل جدرانها، من أجل مقاومة هجمات الأعداء.⁽⁵⁾

ونظرا لأهمية هذا النوع من التحصينات، فقد تسابق كل من الزيانيين والمرينيين على بنائها، والتي نالت إعجاب العديد من الشعراء على رأسهم محمد بن يوسف الثغري فقال:

وَجِ مَشَيْدَاتِ الْمَبَانِي بِأَدِينَا تَكَشَّهْتُ بِوَادٍ⁽⁶⁾

نذكر منها على سبيل المثال:

برج "القشاش"؛ والذي بني على ضفة وادي متشكانة، والطريق الذي يربطه بالمدينة غطيت بالأقواس. برج "الطاحونة"؛ أنشئ هذا البرج في جنوب المدينة على الطريق الجبلي المؤدي إلى هضبة لالة ستي، والغرض من بنائه هو مراقبة الجهة الجنوبية، وحماية الطاحونة التي تمد أهل تلمسان بالدقيق، لهذا سمي باسمها.⁽⁷⁾

وهناك بعض الأبراج مثل البرج الذي بني على جبل شقراطين، وبرجان يقعان بالقرب من باب العقبة؛ وهما مربعا الشكل بنيا بالحجارة المأخوذة من الآثار الرومانية. وبرج "الإمامة"؛ الذي يقع في

¹ _ قدور منصورية، المرجع السابق، ص: 95.

² _ بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 22.

³ _ فريد محمود الشافعي، المرجع السابق، ص: 111.

⁴ _ بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 22.

⁵ _ فريد محمود الشافعي، المرجع السابق، ص: 110.

⁶ _ المقرئ، نفح الطيب، مج7، ص: 121.

⁷ _ حميش عبد الحق، المرجع السابق، ص: 37، 38.

الجهة الشمالية الغربية لمدينة تلمسان.⁽¹⁾ كما نجد أيضا برجان مربعان على جانبي واجهة باب القرميدين، طول ضلع كل واحد منهما 6متر، وخلف الواجهة كذلك وجد برجان لهما شكل أسطواني.⁽²⁾

وهناك أيضا برج أمام الأثير يقع شمال تلمسان على سهل بالقرب من ممر الحوت،⁽³⁾ دون أن ننسى برج باب الحديد الذي يقع جنوب غرب المدينة، يتكون من مخزن تحت الأرض، وسلام تؤدي إلى قمة البرج الذي وجدت فيه فتحات مصممة بطريقة خاصة تمنع تأثير الضوء، بالإضافة إلى غرفة الجند،⁽⁴⁾ ونظرا لتوتر الأوضاع الأمنية في الدولة الزيانية جعل ملوكها يستغلون مآذن المساجد كأبراج للمراقبة، ومن ذلك مئذنة المسجد الكبير والمسجد العتيق.⁽⁵⁾

كما توفرت أيضا مدينة المنصورة على عدة أبراج قدّرت بحوالي 80 برجاً، ومنها:⁽⁶⁾

1. الأبراج الحائطية:

وهي ملاصقة (ملتحمة بالأسوار) أساسها إلى قممها، وتختلف في شكلها وحجمها بين أبراج الأركان وأبراج الأضلاع، وهي ذات وظيفتين؛ الأولى: تدعيم السور وتقويته في الجزء السفلي، والثانية: الحراسة والمراقبة في الجزء العلوي. أما من ناحية الشكل فهي على فرعين: المستطيلة؛ وتحتل أواسط الأضلاع، أما المربعة؛ فهي التي تحتل الأركان، وهي أقل عددا من الأولى.⁽⁷⁾

أ_ المستطيلة: وهي الملتحمة على كامل الجدار ما عدا الأركان، على مسافات غير متساوية منه، طولها حوالي 7 أمتار، وعرضها 4 أمتار تقريبا، وبروزها عن الحائط يقدر ما بين 3.5 و4 متر، ويصل ارتفاعها إلى 12 متر، مما يسمح للجند بالحراسة والمراقبة.⁽⁸⁾

1 _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج2، ص: 111.

2 _ موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية في تلمسان، ص: 16.

3 _ وليم وجورج مرسية، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، تر: مراد بلعيد وآخرون، الأمانة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م، ص: 278.

4 _ موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية في تلمسان، ص: 46، 50، 51.

5 _ براهامي نصر الدين، المرجع السابق، ص: 65.

6 _ طه ذنون عبد الواحد، المرجع السابق، ص: 26.

7 _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 241، 242.

8 _ مقرانطة عابد بختة، المرجع السابق، ص: 154. عياش محمد، المرجع السابق، ص: 83، 84.

وتتألف هذه الأبراج من طابقين، كل منهما مغطى بقبو أسطواني، ولا تتوفر هذه الأبراج على منافذ توصلها إلى داخل المدينة، فوسيلة الاتصال الوحيدة بينها وبين سطوحها العلوية هو طريق الجند في السور عبر أدراج، وبعض هذه الأبراج مبني بالآجر، والآخر بالطابية.⁽¹⁾

ب_ المربعة: وموقعها في أركان السور الأربعة، طول ضلعها 7 متر، وارتفاعها يفوق ارتفاع الأبراج المستطيلة، وتتكون أيضا من طابقين، وتتصل بممر الجند عن الطريق أدراج أو سلا، غير أن الاختلاف بينها وبين الأبراج المستطيلة أن هذه تتوفر على باب يوصل إلى داخل المدينة، مثل البرج الجنوبي الغربي الذي يلتحم بالسور في زاويته، ويبرز عنه جنوبا بـ 3.5 متر وغربا بـ 3.90 متر، ويمتد بـ 7 متر.⁽²⁾

وكانت المنصورة مربعة الشكل بها باب واحد في كل جدار، وكل باب من هذه الأبواب به برجين مستطيلين، ومن بين هذه الأبراج نذكر:

1. برج المصلى: سمي بهذا الاسم نسبة إلى مصلى المنصورة، شيده المرينيون على مسافة قصيرة من صور مدينتهم.⁽³⁾

2. برجا المنار الزاوية: ويقعان جنوب تلمسان في منطقة تعرف باسم الصخرتين، ويرجعان إلى الفترة المرينية حسبما توصل إليه الباحثون؛ ذلك ليستطيعوا مراقبة المدينة المحاصرة تلمسان،⁽⁴⁾ وهما مربعا الشكل، يقع أحدهما وراء الآخر، موضع الأول على منحدر الصخرتين طول ضلعه 4.5 متر، والثاني طول ضلعه 5 متر.⁽⁵⁾

3. أبراج البابين الشمالي والجنوبي: يتوفر كل باب من هاته الأبواب على برجين؛ واحدا على اليمين، والآخر على اليسار، وحسب ما جاء في وصف برجي الباب الجنوبي فإنهما مستطيلان يميلان إلى التربع، تقدر المسافة بينهما بـ 12 متر، وطول كل منهما 7 متر، ويبرزان عن

¹ _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 243.

² _ عياش محمد، المرجع السابق، ص: 86.

³ _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 238.

⁴ _ المرجع نفسه، ص: 239.

⁵ _ وليم وجورج مرسية، المرجع السابق، ص: 278، 279.

الحائط بـ5متر، ويتكون كل منهما من قاعة مربعة الشكل، يتراوح طول ضلعها ما بين 4.5 و5متر، ومغطاة بسقف مسطح.⁽¹⁾

4. أبراج البابين الشرقي والغربي: وهذين البابين يحتويان على أبراج مربعة الشكل يبرزان إلى الخارج مع بروز خفيف إلى الداخل.⁽²⁾

وعرفت ندرومة أيضا بناء الأبراج مثل: برج "القصبه"، والذي بني على الضلع الجنوبي لسور المدينة، يبلغ ارتفاعه 5متر، وله شرفات، يخرج عن الحائط بحوالي 4.10متر.⁽³⁾

ولم يقتصر المرينيون في تحصين منصورتهم فحسب، بل تعدى ذلك إلى مدن أخرى من المغرب الأوسط، ومن ذلك البرجين اللذين بناهما أبو الحسن المريني في وهران، وهما: البرج "الأحمر"، وبرج "المراسي"؛ وهما مثلثا الزوايا يشبهان بذلك الأبراج الأندلسية.⁽⁴⁾

وقد سهّلت هذه الأبراج عملية المراقبة بالنسبة للجنود نظرا لعلوها، ووجودها في مناطق استراتيجية تمكّنهم من الإطلاع على جميع المناطق، وربما هذا ما جعل الدولة تصمد كل هاته الفترة، على الرغم من هجمات المرينيين والحفصيين المتكررة.

خلاصة:

على الرغم من رحي الحرب التي كانت دائرة في المغرب الأوسط، إلا أن السلاطين الزيانيين وفّقوا في الوصول بعاصمتهم تلمسان إلى مصافّ الحواضر الكبرى آنذاك؛ كفاس وغرناطة، وذلك من خلال اهتمامهم بالمدن، وتزويدها بمختلف المنشآت المعمارية و المرافق الحضارية.

فمن المنشآت المدنية نجد القصور التي حظيت باهتمام بالغ من طرف الملوك سواء الزيانيين أو المرينيين باعتبارها مساكنهم، لهذا حرصوا على بنائها بشكل يليق بفخامتهم، ومن بين هاته القصور قصر المشور، ذلك الصرح الأثري الذي لا يزال شاهقا، ليبرهن عن التطور العمراني الذي عرفه المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، وغيره من القصور كقصر العباد الذي على الرغم من حالته المزرية إلا أن مظاهر الجمال والإتقان تكاد تظهر في كل جزء من أجزائه الشّبه مهدمة، وكذا قصور أبي فهر

¹ _ لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 250، 251.

² _ المرجع نفسه، ص: 238.

³ _ قدور منصورية، المرجع السابق، ص: 96.

⁴ _ الجيلالي عبد الرحمن، المرجع السابق، ج2، ص: 96.

والسرور ودار الفتح والتي للأسف اندثرت، لكن المؤكّد أنها لا تقل جمالا عن باقي القصور، خاصة إذا علمنا أن مؤسسها أبو تاشفين كان مولعا بالفن والعمران.

هذا بالإضافة إلى المنازل التي تعتبر الجزء المعماري الأكثر تكرارا في كل مدينة، وهي على نوعين؛ فالأول يتميز ببساطته المعمارية، وهو سكن العامة من الناس، في حين نجد النوع الثاني؛ وهو الأكثر تكلفا، بحيث يمثل شكلا مصغرا للقصور، ويسكنه رجال الدولة وميسوري الحال، غير أن كلا النوعين يخضع لضوابط تملّحها الشريعة الإسلامية للحفاظ على الحرمات، ومنها المدخل المنكسر، وتعلية النوافذ فيما يخص البيوت ذات الطابقين أو أكثر، هذا بالإضافة إلى المرافق العمومية من حمامات وفنادق، التي أضفت مظهرها حضاريا يليق بالعاصمة الأولى للمغرب الأوسط آنذاك.

هذا دون أن نغفل العمارة الدينية، كالمساجد التي تسابق السلاطين الزيانيون والمرينيون في تشييدها، من أجل تخليد أسمائهم، وذلك لأهميتها الدينية ومكانتها لدى السكّان، كما انتشرت في تلك الفترة ظاهرة بناء الأضرحة والتبرك بهم، ولم يقتصر هذا العمل على العامة فقط بل حتى السلاطين نجدهم يتركّون بالأولياء الصالحين، وبناء أضرحة لهم كضريح أبي مدين شعيب -رحمه الله- الذي حظي بعناية خاصة من قبل السلطان المريني أبي الحسن، وكذا المؤسسات التعليمية كالزوايا والكتاتيب والمدارس، هاته الأخيرة التي لا تقل جمالا عن المساجد.

وكما سبق أن ذكرنا الأوضاع المتوترة التي رافقت الدولة الزيانية منذ التأسيس إلى السقوط، حتّت على ملوكها الحرص على تعزيز منشآتهم العسكرية، والتي جاءت خالية من المظاهر الجمالية، إذا ما قورنت بالمنشآت السابقة، وهذا أمر طبيعي تملّحه طبيعة هذا النوع من العمارة الذي يتطلب القوة والصلابة، لصدّ هجمات العدو.

الفصل الثاني:

الفنون وتطورها على العهد الزياني

المبحث الأول: الفن المعماري الزخرفي

أولاً: الزخرفة النباتية

ثانياً: الزخرفة الخطية

ثالثاً: الزخرفة الهندسية

المبحث الثاني: الفنون الصناعية

أولاً: صناعة الفخار والخزف

ثانياً: صناعة النسيج

ثالثاً: صناعة الحلي والمعادن

المبحث الثالث: الفنون الصوتية

أولاً: الفن الأدبي

ثالثاً: الفن الموسيقي

الفن هو الإبداع الجميل في شتى المجالات، أي كل ما يُحدِث في النفس أثراً طيباً، والمعروف عن طبيعة البشر هو الميل إلى كل ما هو جميل متناسق، ومتقن، لذا لا يمكننا أن نحصر الفن في مجال واحد، فهناك الفنون المعمارية، الصوتية والأدبية، وكلّها تصبّ في وعاء واحد ألا وهو الحضارة، فكلما زاد الاهتمام بالفن وتطويره، انعكس ذلك إيجاباً على ازدهار الدول، لذا سنحاول أن نسلط الضوء على هاته الفنون السابقة الذكر، وأهمها الفن المعماري الزخرفي الذي من خلاله نستطيع أن نحدّد المستوى الحضاري لأي دولة.

المبحث الأول: الفن المعماري الزخرفي

يرجع الفن الزخرفي إلى الحضارات القديمة كالفينيقيين، المصريين والساسانيين، وينقسم في الأصل إلى عدة أنواع؛ الزخرفة النباتية، الخطية، الهندسية، والزخرفة الآدمية والحيوانية، ويضاف لها عنصر أكثر تعقيداً يدعى المقرنص.⁽¹⁾

ولكن بعد مجيء الإسلام أخذت الزخرفة منحى جديداً؛ بحيث أصبحت تركز على العناصر النباتية، الهندسية، الكتابية، والابتعاد عن تصوير كل ما هو حي لتحرمة الدين الإسلامي، ومن بين الزخارف التي زيّنت عمائر المغرب الأوسط نجد:

أولاً: الزخارف النباتية:

وهي الزخارف التي تتكون من عناصر نباتية كالأوراق والأزهار، والأغصان، البتلات والبراعم، وتعتمد في تشكيلها على الخصائص الهندسية؛ كالتناظر والتشابه والتناسب،⁽²⁾ وهذا ما يعرف بالأرييسك التّوريقيّ "هذا النوع من الفن يختص به المسلمون دون غيرهم، والذي يعرفه عبد العزيز لعرج في قوله: «زخارف التّوريق العربي مؤلفة من فروع وجذوع ممتدة وسيقان مثنية ومتشابكة ومتقاطعة ومتتابعة، تبدو حيناً قريبة من الطبيعة، وفي معظم الأحيان شديدة التحوير، أقرب إلى الصورة الهندسية منها إلى الأصل النباتي»؛⁽³⁾ أي أن الفنان يقوم بإخراج العناصر النباتية من

¹ _ بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 62. قرقوتي حنان، المرجع السابق، ص: 109. رزقي نبيلة، الزخرفة الجصية في عمائر المغرب الأوسط والأندلس (القرن 7هـ/13م - 14م) -دراسة تحليلية مقارنة-، رسالة دكتوراه في علم الآثار، إشر: بلحاج معروف، جامعة أبي بكر بالقائد، تلمسان، 2015م، ص: 86.

² _ بوسماحة حسن، فن الزخرفة، أوراق للنشر والتوزيع، سوق أهراس، ط1، 2012م، ص: 94.

³ _ لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان (669هـ/1269م - 1465م) "دراسة أثرية فنية جمالية"، الملكية، (د.م)، ط1، 2007م، ص: 203.

شكلها الحقيقي، ويجعلها متشابكة ومتداخلة فيما بينها بطريقة متقنة تبدو مكرّرة في شكلٍ لا متناهي ممّا يقرّ بها للشكل الهندسي أكثر.

ويظهر هذا النوع من الزخرفة في مختلف المنجزات المعمارية للدول التي تعاقبت على المغرب الأوسط، بدءا بالدولة الرستمية وصولا إلى الدولة الزيانية، هاته الأخيرة التي خلّفت موروثة حضاريا تناوبت فيه مع المرينيين، الذين تركوا بصماتهم على هاته الأرض لمتى مزال التاريخ يحفظها لهم، مع بعض الاختلافات طبعا في فن كلٍّ من الطرفين.

ومن المنشآت الزيانية التي تحلّت بالزخرفة النباتية نجد مسجد أبي الحسن الذي لم يحتو على زخارف نباتية قائمة بذاتها، بل دائما تمزج مع الزخارف الهندسية والكتابية، وهذا ما شكّل تحف فنية رائعة مثالا: لفظ الجلالة "الله"،⁽¹⁾ وكذا التاج الذي جمع هو الآخر بين الزخرفة الهندسية والنباتية، ودون أن ننسى الشمسية⁽²⁾ التي احتوت على أشكال هندسية تحيط بها زخارف نباتية.⁽³⁾

ولقد حظيت الزخرفة النباتية باهتمام بالغ من طرف الفنان الزياني، وهذا ما يفسّر به تعدد العناصر النباتية المستعملة في مختلف المنشآت بما فيها مسجد أبي الحسن، ومنها المراوح النخيلية بأنواعها سواء كانت بسيطة أو مزدوجة أو حتى ثلاثية،⁽⁴⁾ بالإضافة إلى السيقان الحلزونية والمنحنية، والأوراق الثلاثية الفصوص والزهيرات الرباعية الفصوص، وحتى عناقيد العنب التي احتوتهم زخارف المرباطين.⁽⁵⁾ كما يلاحظ أيضا وجود زخرفة نباتية بيزنطية استخدمت في تزيين مسجد أبي الحسن والعباد، والواضح أن المرباطين قبلهم قد تأثروا بالزخرفة البيزنطية، بحيث نجد هذه الزخرفة في المسجد الكبير بتلمسان، ومثيلتها وجدت أيضا في مسجد قرطبة ومدينة الزهراء.⁽⁶⁾

وتقريبا كل المنشآت الزيانية زيّنت بنفس الزخرفة إلاّ بعض الاختلافات البسيطة، فمثلا مسجد أولاد الإمام قد احتوى على زخارف نباتية تمثّلت في مراوح نخيلية بسيطة ضمّت أوراقا نباتية خماسية

¹ مهتاري فائزة، الزخارف في المساجد الزيانية والمرينية بتلمسان -دراسة مقارنة ومقاربة بين عينات من النموذجين-، مجلة Revisita Argelina، Num: 01، Otono 2015، ص: 25.

² الشمسيات: هي النوافذ أو الشبايك، بحيث تملأ فراغاتها بالزخارف، وغالبا ما تملأ بزجاج ملون. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 74.

³ موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 55، 66.

⁴ مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص: 25.

⁵ بوطران مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 156.

⁶ موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2012م، ص: 168، 170.

الفصوص، ومن بين العناصر المكونة أيضا للزخرفة النباتية نجد المحارة⁽¹⁾ التي تتفرع منها مراوح نخيلية، وهذا العنصر يتكرر أيضا في مسجد إبراهيم المصمودي،⁽²⁾ كما يلاحظ أيضا وجود كيزان من الصنوبر تتخللها سيقان نباتية، وجدت هذه الزخرفة على بنىقات⁽³⁾ العقود الثلاثية التي تعلو المحراب، وهي تشبه الزخارف المرينية على واجهة الباب الرئيسي في مسجد العباد، وكذا زخارف قصر الحمراء بالأندلس.⁽⁴⁾

أما فيما يخص النماذج المرينية التي احتوت هذا النوع من الزخرفة نذكر مسجد العباد، والذي اشتمل على زخارف نباتية متمثلة في سيقان رفيعة تنتهي بمروحة نخيلية ملتوية على شكل علامة استفهام، واستخدم هذا النوع من الزخرفة في تزيين المساحات العليا المجاورة لنوافذ المحراب،⁽⁵⁾ وبعض الزخارف الجصية المتقاطعة والمتناظرة التي زيّنت أحد جدران المسجد،⁽⁶⁾ كما استخدم الفنان المريني المراوح النخيلية القصيرة والكبيرة لملء الفراغات في الزخارف الجصية الأخرى، وبعض الأشكال مثل كيزان الصنوبر لتزيين تيجان عمودي المحراب،⁽⁷⁾ أما إطار هذا الأخير فقد زيّن بزخارف نباتية تتكون تتكون من أزهار ثلاثية الفصوص.⁽⁸⁾

ومن بين العناصر النباتية التي شاع استعمالها لدى المرينيين هي المراوح البسيطة التي تتكون من ورقة واحدة أو فصّ، وهذا النوع من الزخارف على جدران سقفية مدخل العباد، وأيضا على عقود بيت الصلاة.⁽⁹⁾ والشيء الملفت للانتباه في مسجد العباد تلك القبّة المقرنصة التي تعلو

1 _ ينظر: الملحق رقم: (11).

2 _ بوطان مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص: 173. مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص: 24، 25.

3 _ البنية: وهي المساحة المثلثة المحصورة بين عقدتين متجاورين، لهذا فكل عقد يحتوي على بنية في يمينه، وأخرى على يساره. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 24.

4 _ بوطان مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص: 173، 174.

5 _ المرجع نفسه، ص: 215، 216.

6 _ موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 157.

3 _ بوطان مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص: 217.

8 _ بوخضار فائزة، مدارس المغرب الأوسط الزيانية والمرينية (دراسة تاريخية أثرية)، رسالة ماجستير، إشر: صالح بن قربة، جامعة الجزائر 2، 2011م، ص: 47.

9 _ لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان، ص: 206.

المحارب⁽¹⁾ ومثيلتها فوق سقيفة المدخل الرئيسي، واللذان تعبران على مدى رقي المربين في المجال الفني متأثرين في ذلك بالفن الأندلسي.

وبالإضافة إلى المسجد أسس المربون أيضا مدرسة العباد التي احتوت هي الأخرى على العديد من الزخارف تشبه كثيرا تلك التي شاهدناها في المسجد، ومن ذلك الزخرفة التي استخدمت فيها المروحة النخيلية التي جاءت على شكل ورقتين متناظرتين قمرلوهل معين مفصص تزيدن حائط المحارب في قاعة الدروس، هذا بالإضافة إلى بعض الزخارف النباتية التي تحيط بجوف المحارب⁽²⁾ وقد لاحظنا زخارف جصية نباتية وكتابية تحيط بجدران القاعة، وهي مستحدثة أنشئت بناء على ما تبقى من الزخرفة الأصلية الموجودة يسار المدخل.

إن الملاحظ للزخارف الزيانية والمربنية يجد تشابها كبيرا بين مختلف الزخارف، بحيث كـلا الطرفين استعمل المرواح النخيلية على أنواعها، وكذا كيزان الصنوبر، والمحارة، بالإضافة إلى مبالغة كل من الزيانيين والمربين، والمسلمين بصفة عامة في تزيين المحارب، وهذا ما اختلف فيه جمهور العلماء؛ بحيث الفريق الأول يقول أنها بدعة مستحسنة، بينما يرى الفريق الثاني أنها بدعة مكروهة، فأما الفريق الذي جعل الأمر مكروها، فيستند في ذلك على نهي الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله **«لَا هَذِهِ هَلَاكُكُمْ»** **الْمَذَابِحُ**؛ فيقصد هنا المحارب⁽³⁾. ومن الملاحظ أيضا هو اشتراكهما في استعمال بعض الزخارف البيزنطية.

أما فيما يخص الاختلاف فالواضح هو عناية المربين بمدخل منشآتهم عناية خاصة، وهذا ما نلاحظه في مدخل مسجد أبي مدين بالعباد، في حين نجد هذا الأمر محتشما في المنشآت الزيانية، هذا ودون أن ننسى استعمال الزيانيين لبعض العناصر النباتية التي لا تتوفر في الزخارف المربنية؛ ومنها عناقيد العنب الموجودة في الزخارف المرباطية.

¹ _ ينظر: الملحق رقم: (5).

² _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 265. موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 157.

³ _ الكنتي باي بن سيدي عمر الوافي، السنن المبين في شرح أحاديث أصول الدين، إ.ع: مالك كرشوش وحيمد الكنتي، ج4، ج4، مركز الإمام الثعالبي للدراسات والنشر والتراث، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م، ص: 215.

ثانيا: الزخرفة الخطية:

تنجز الزخرفة الخطية باستعمال الخطوط العربية المشهورة كالنسخ، الثلث، الديواني والفارسي، وخاصة الكوفي، والتي أضيفت لها العديد من الإضافات الهندسية والنباتية، وبهذا أصبحت أكثر جمالا،⁽¹⁾ هذا بشكل عام، أما إذا أردنا الحديث عن الخطوط التي انتشرت في المغرب الأوسط فيمكن حصرها فيما يلي:

الخط المغربي؛ وهو تليين الخط الكوفي اليابس؛ أي تخفيف بعض حروفه المثقلة، وكذا تحسينها وتجويدها بحيث أصبحت أكثر أناقة، والفضل في ذلك يعود لبني الأغلب الذين اهتموا كثيرا بالفنون. أما الخط الأندلسي فيتميز باستدارة الحروف، وإطالة أواخرها بحيث تتداخل كلماته، ويظهر التناسق بين الحروف.⁽²⁾

أما بالنسبة للخط الكوفي فهو على أنواع، منها المورق؛ وهو الذي تنتهي حروفه بوريقات ومراوح نخيلية، وكذا المزهر الذي تنطلق من أطراف أحرفه زخارف نباتية كالأزهار التي تشبه الشجيرات، والبراعم، وفروع الأغصان. وساد هذا النوع من الخطوط في العهد المرابطي،⁽³⁾ بالإضافة إلى الكوفي الهندسي؛ ويتميز باستقامة حروفه وزواياه القائمة، وتشابك فيه الأحرف بحيث يصعب قراءتها، ومنه الخط المظفر؛ وفيه تشتبك وتتصافر حروف الكلمة الواحدة أو الكلمتين،⁽⁴⁾ ولم يظهر الخط الكوفي الهندسي إلا مع العهد الزياني والمريني.

ومع دخول الموحيدين أصبح الخط الكوفي عنصرا زخرفيا لا أكثر تزيين به المحاريب؛ لما يمتاز به من جمال وليونة، وعرف خط جديد؛ وهو خط النسخ الموحيدي مع بداية منتصف القرن 6هـ/12م إلى نهاية العصر الزياني والمريني، وظل هو الخط الغالب سواء في المخطوطات أو الكتابات التأسيسية في المنشآت المعمارية، وكذا شواهد القبور.⁽⁵⁾

¹ _ بوسماحة حسن، المرجع السابق، ص: 106.

² _ معزوز عبد الحق، شواهد القبور في المغرب الأوسط بين القرنين (2_13هـ/8_19م)، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ط1، 2011م، ص: 265، 267.

³ _ المرجع نفسه، ص: 149، 150.

⁴ _ موساوي عبد المالك، فنيات تصميم الزخرفة الخطية في الطراز المغربي الأندلسي، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2013م، ص: 15.

⁵ _ معزوز عبد الحق، المرجع السابق، ص: 250_252.

ومن بين الزخارف الكتابية التي زيّنت العمائر الزيانية، تلك العبارات الدينية، والآيات القرآنية التي استعملت في تزيين واجهات محراب مسجد أبي الحسن، بحيث استعمل الفنان الخط الكوفي المعروف بمظهره الجمالي، ومنها عبارة: "الملك الدائم لله"، والتي كتبت على شريط يعلو واجهة المحراب وكذا كلمة "من التي رسمت بشكل تناظري، وزيّنت بها بنىقات العقود.⁽¹⁾

هذا ودون أن نتجاهل ذلك النص التأسيسي المكتوب على لوحة رخامية، طولها 1 متر على 53 سم تُبَتَّت على الجدار الغربي، بحيث جاء في الكتابة العمودية اليمنى: «بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما»، والكتابة الأفقية العليا: «بنى هذا المسجد للأمير أبي عامر إبراهيم ابن السلطان»، أما في الجهة العمودية اليسرى: «أبي يحيى يغمراسن بن زيان في سنة ستة وتسعين وستماية من بعد وفاته رحمه الله». أما وسط الإطار والجهة اليسرى فتضمّن الكتابة التي تبين الأملاك الموقوفة على المسجد، وقد نقشت هاته الكتابة بخط كوفي متقن وجميل تتشابه معه زخارف نباتية مكوّنة من زهور وأوراق ملتوية،⁽²⁾ نجد أيضا نفس الكتابة في إفريز المحراب.⁽³⁾

ومن الزخارف الخطية الجميلة، والملفتة للنظر عبارة: "ولا غالب إلا الله" الموجودة أعلى واجهة محراب مسجد سيدي إبراهيم المصمودي المكتوبة بخط كوفي مزهّج ومورّق،⁽⁴⁾ وبعض العبارات الموجودة على جدران الضريح كـ "العز لله"، و"الملك لله"، و"الشكر لله"، داخل إطار هندسي جميل.⁽⁵⁾

هذا ودون أن ننسى المآذن التي أضافها الزيانيون للمساجد المرابطية، والتي زادت في الجانب الجمالي لهذه المساجد سواءً من خلال العقود المفصصة التي تزيّنها، أو الزخارف التي حملتها جميع جهاتها ومنها؛ مئذنة مسجد ندرومة، واحتوت هاته الأخيرة لوحة من المرمر عرضها 40 سم، وارتفاعها 46 سم، تُبَتَّت على الحائط الشمالي للمسجد،⁽⁶⁾ وجاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم

¹ _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 161.

² _ بورويبة رشيد، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 77.

³ _ مبارك بوطارن، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 159.

⁴ _ ينظر: الملحق رقم: (9).

⁵ _ مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص: 26.

⁶ _ بورويبة رشيد، المرجع السابق، ص: 57.

صلى الله على سيدنا محمد، بنى هذا الصامع أهل ندرومة بأموالهم وأنفسهم، وكل احتساب الله، وانبتت في خمسين يوما، وبنها محمد بن عبد الحق بن عبد الرحمن الشحي في عام تسعة وأربعين وسبع مائة، رحمة الله عليهم أجمعين»⁽¹⁾ أما من الناحية الفنية فهي أقل جمالا إذا ما قورنت بالنقوش التأسيسية سواء الزبانية أو المرينية، وهذا طبعا لأن المئذنة بنيت بمبادرة من السكان فقط، ولم تكن من طرف سلطان؛ إذ جاءت بسيطة كبساطة أهل المنطقة.⁽²⁾

ومن المآذن الزبانية أيضا التي زيّنت بزخارف كتابية نذكر مئذنة مسجد المشور، والتي اشتملت على لوحات كتابية تضمّنت عبارات منها: «اليمن والإقبال، اليمن والإقبال، يا ثقتي، يا أمني أنت الرجا، أنت الولي، اختم بخير عملي». كتبت هاته العبارة بالخط الأندلسي على الزليج، وهي نفس العبارة الموجودة على أحد تيجان قصر الحمراء بغرناطة ما عدا كلمتي: "اليمن والإقبال".⁽³⁾

أما فيما يخص الزخرفة الخطية التي تفدّن الفنّان المريني في توقيعها على مبانيهم في تلمسان وما جاورها، ذلك النص التأسيسي في أعلى المدخل الرئيسي بمئذنة جامع المنصورة الذي كتب بالخط النسخي المغربي الأندلسي، على الرغم من أن جل الكتابة قد انمحت، إلا أنه يظهر أنها وضعت على أرضية نباتية، وتعتبر من أولى الزخارف الكتابية المرينية في تلمسان.⁽⁴⁾

ومن المساجد التي لا تزال قائمة بزخارفها الرائعة مسجد أبي مدين، ذلك الصرح الديني الذي قلّ نظيره في المغرب ككل، ومن بين النصوص الكتابية التي احتواها نذكر النص التأسيسي الذي جاء فيه: «الحمد لله وحده أمر بتشيد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن مولانا أبي سعيد عثمان ابن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق، أيده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعماية نفعهم الله به». ⁽⁵⁾ كتبت على الفسيفساء داخل إطار مستطيل يعلو المدخل بخط بخط أندلسي مزيج من بزخرفة نباتية.⁽⁶⁾ كما احتوى المسجد العديد من الزخارف الخطية.

¹ _ ميدون عز الدين، المرجع السابق، ص: 27.

² _ بوروية رشيد، المرجع السابق، ص: 58.

³ _ موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ص: 212.

⁴ _ لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان، ص: 274.

⁵ _ بوروية رشيد، المرجع السابق، ص: 81.

⁶ _ المرجع نفسه، ص: 81.

ومنها أيضا الأشرطة المستطيلة الشكل التي تزيّن جدران سقيفة المدخل، بحيث كتبت بالخط الكوفي على أرضية من الزخارف النباتية؛ متمثلة في مراوح نخيلية، وجاء في النص: "الحمد لله على نعمائه"،⁽¹⁾ وكذا الأشرطة التي تحيط بالمدخل عموديا وأفقيا؛ وهي متساوية الأبعاد، فمن الجهة اليسرى للمدخل نجد: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، والتي كتبت بشكل عمودي، وأفقيا فوق المدخل: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وعموديا يمين **﴿قُلْ﴾**: هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ **(1)** الصَّمَدُ لَمْ يَلَمْ يَلَمْ **(2)** وَلَمْ يَلَمْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ **(3)**،⁽²⁾ نقشت هاته الكتابة بالخط الكوفي.⁽³⁾

بالإضافة إلى الكتابة الموجودة على لوحة من الرخام تثبتت على الدعامة الأولى الموجودة في الجهة اليسرى للبلاطة الوسطى المقابلة للمحراب؛ وهي 36 سطرا جاء في ثلاثة أسطر الأولى: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما، الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين". كتبت هاته الأسطر بخط أندلسي جميل.⁽⁴⁾

ومنها أيضا الشريط الذي يحيط بالمحراب من اليمين واليسار، ومن فوقه كتب بخط النسخ باللون الأبيض على أرضية خضراء،⁽⁵⁾ **﴿وَمَعَا فِيهِ الْآيَاتُ الْتَلِيَّةُ﴾** جَدَّ اللَّهُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ الْآخِرِ وَوَقَّالَهُ الصَّلَاقَ وَالْآدَى الْزَّكَاتَ سَيَّ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَلْمُ هُتَدِينَ مَارَّةَ أَلْمُ لَجَّ **(18)** أَلْمُ الْحَرَّةَ أَيْمَةَ كَلَمَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْلُتَهُ وَوُودَ اللَّهُ نَلَدَ يَلْهَدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ **(19)** نُوا وَهَاجَرُوا وَوَالَجَهُمْ لَوْ وَأَنْفَقِي سَهْمِ يَلْأَعْلَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ **(20)** هُمُ نَزُهُ بُوْهُ ضَبُورِ اخْمُوةَ جَمَنَاتٍ لَهُمْ فِيهِ مَا نَعِيمٌ مُتَحِيلِمِدٍ **(21)** فِيهِ مَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ **(22)**.⁽⁶⁾

¹ _ شلحاوي رعة، الزخارف الجدارية في الآثار الزبانية والمربنية في المغرب الأوسط -دراسة أثرية فنية-، ماجستير في الآثار الإسلامية، إشر: صالح بن قرية، الجزائر، 2011م، ص: 84.

² _ سورة الإخلاص، الآيات: (3_1).

³ _ معزوز عبد الحق، الكتابات الكوفية في الجزائر ما بين القرنين (2_8هـ/8_14م)، منشورات الإعلام والترجمة والنشر، الجزائر، ط3، 2014م، ص ص: 297، 298.

⁴ _ بوروية رشيد، المرجع السابق، ص: 83.

⁵ _ رزقي نبيلة، المرجع السابق، ص ص: 106، 107.

⁶ _ سورة التوبة، الآيات: (22_18)

هذا وقد احتوى مسجد أبي مدين العديد من الزخارف، لا يسعنا المقام لذكرها كلها، لكن سنواصل الحديث عن الكتابات الزخرفية في باقي المنشآت المرينية، ومنها:

مسجد سيدي الحلوي الذي لا يحتوي على زخارف كثيرة، وجلّها قد انمحي، إلا أنه يوجد بعض الزخارف الكتابية على بنىقات العقد جاء فيها كلمة: "البركة" وزيّنت المساحات التي حولها بمراوح نخيلية فيها البسيطة ومزدوجة الفصوص،⁽¹⁾ بالإضافة إلى ذلك يوجد شريط ضيق نوعاً ما يعلو قوس المدخل، نقش على الكتابة التأسيسية بالخط الأندلسي، وهذا نصها: «الحمد لله وحده أمر بتشيد هذا الجامع المبارك، مولانا السلطان أبو عنان فارس...مولانا السلطان أبي الحسن علي بن مولانا السلطان أبي...عثمان ابن مولانا أبي يوسف ابن عبد الحق أيد الله نصره عام أربع وخمسين وسبع مائة».⁽²⁾

وهناك أيضاً كتابة بخط النسخ على تاجي عمودي المحراب في ثلاث أشرطة يحيط بها شريطين من الأشكال الهندسية، وجاء في الكتابة التي على التاج الأيمن: «جامع ضريح. المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس. أمير المؤمنين» أما التاج الأيسر فقد تضمّن ما يلي: «جامع ضريح. الشيخ الولي الرضوي الحلوي. رحمة الله عليه».⁽³⁾ فقد كانت كتابات جميلة تبرهن على مدى تمكّن الفنان المريني في هذا المجال.

شواهد القبور:

تعتبر من العناصر المعمارية الجنائزية التي حظيت بعناية خاصة، إذا ما تعلق الأمر بالملوك، بحيث نجد شواهد قبورهم احتوت على العديد من الزخارف الرائعة، ومنها:

شاهد قبر السلطان محمد الواثق بالله أبي عبد الله (804_810هـ/1401_1407م)، فالشاهد الذي عند الرأس صنع من مادة الرخام الأبيض، مقاساته 0.30 متر في العرض، أما ارتفاعه 0.91 متر، وجاء فيه: «الحمد لله وحده هذا قبر السلطان مولانا محمد الواثق أمير المسلمين...مولانا أبو حمو...أمير المسلمين بن...مولانا أبي يعقوب بن مولانا أبي زيد بن

¹ _ شلحوي رمة، المرجع السابق، ص: 97.

² _ وليم وجورج مرسية، المرجع السابق، ص: 402، 403.

³ _ لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان، ص: 277.

مولانا أبي زكريا... بن يغمراسن بن زيان رحمهم الله وبرّ د ضريحهم، وكان متوفاه في يوم الثلاثاء سابع يوم من ذي القعدة عام ثلاثة عشر وثمانماية، رحمهم الله ورحم المسلمين جميعا»⁽¹⁾.
أما الشاهد الموضوع عند القدمين فقد صنع هو الآخر من الرخام، يبلغ ارتفاعه 50 سم على 30 سم، وتضمن هاته الأبيات:

الحمد لله وحده
أَيُّهَقَدَّ الْقَبْرِ الْفَرِيْقَةُ...
يَسْكُنُ الْقَبْرِ زَوَايِدُ زَا...
وَسَكَنَّا مَقَامَ رَا...
وَسَكَنَّا بَعْدَ الْقَصْرِ...
عَادَ بَعْدَ الْفُلْكَ...
يَا إِلَهَ الْخَلَائِقِ أَلْطُفْ بَعْدَكَ...
يَا كَسْبَ بِنْتِ كَنْزِ الْكُلِّ...
يَا سَسْ تَلْمُ لُبَيْدٍ نَبَاكُجَا...
يَا سَكْنُ الْقَبْرِ زَوَايِدُ زَا...

هاته الأبيات نقشت على العديد من الشواهد التي تخص العائلة المالكة الزيانية. كلا الشاهدين كتبنا بخط أندلسي متقن، ويحيط بالكتابة إطارا من الزخرفة النباتية.⁽²⁾

أما الشاهد الثاني فيخص الأميرة العالية حفيدة السلطان أبي حمو موسى الثاني، وهو رخامي موشوري الشكل، كتب عليها بخط أندلسي جميل جدا ومتقن⁽³⁾ ما يلي: «الحمد لله هذا قبر الحرة المكرمة العالية بنت الأمير عمر بن مولانا أبي حمو بن مولانا أبي يعقوب بن مولانا أبي زكريا... بن مولانا عبد الرحمن بن المولى أبي يحيى يغمراسن بن زيان، رحمهم الله وبرّ د ضريحهم، توفيت في ذي القعدة من عام ثلاثة عشر وثمانماية»⁽⁴⁾.

وهناك أيضا شاهد لقبر الملكة مملوكية⁽⁵⁾ زوجة السلطان أبي عبد الله محمد (866هـ_880هـ/ 1462_1475م)، تقدر مقاساته بـ: 0.60 متر على 0.30 متر،⁽⁶⁾ وقد كتب فيه: «الحمد لله هذا قبر الحرة الجليلة المنعممة المرحومة، ملوكة بنت الشيخ المرحوم عثمان... بن مشعل

¹ _ بروسلا شارل، كتابات شواهد وقبور وسلاطين بني زيان الملتقطة من روضاتهم الملكية بمدينة تلمسان، تر وتق: الرزقي شرقي، موفم لنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 34، 35.

² _ بروسلا شارل، المرجع السابق، ص: 34_36، 38.

³ _ المرجع نفسه، ص: 39.

⁴ _ بوخالفة عزى، شواهد الإحسان على مآثر المحروسة تلمسان، (د.د.ن)، (د.م.ن)، ط1، 2011م، ص: 184.

⁵ _ ينظر: الملحق رقم: (12).

⁶ _ وليم مرسية، المرجع السابق، ص: 22.

رحمها الله زوجة السلطان الملك الطاهر الأصيل أبي عبد الله محمد أيّده الله، توفيت في شهر رجب علم سبعة وستين وثمانماية»⁽¹⁾. ولكن هذا الشاهد جاء بسيط من ناحية الشكل، طبعاً إذا ما قورن بشواهد قبور السلاطين، بحيث احتوى على زخارف نباتية متناظرة تحيط بعقد مفصص⁽²⁾. ومما يلاحظ من خلال المقارنة، بين الزخرفة الخطية الزيانية ونظيرتها المرينية، أنّ هناك تشابه بين الزخرفتين لاستخدامهما نفس الخطوط تقريباً، حتى بعض العبارات تتكرر، ومنها: "العز لله"، "الملك لله"، "الحمد لله"، غير أن عبارة "الملك لله"، وكذا "العز لله"، جاءت مقلوبة على الجدران المرينية، وهذا فسّره أصحاب الاختصاص على أن الفنّان المريني يسعى من وراء ذلك لجلب انتباه الملاحظ لها،⁽³⁾ ومن بين أيضاً الكلمات المتشابهة في كلا الزخرفتين كلمة "الله" التي زيّنت بها بنيقات العقود في مسجد أبي الحسن، وتتكرر أيضاً في أعلى مدخل منارة المنصورة⁽⁴⁾. ومن خلال ملاحظتنا للزخارف الكتابية الزيانية، نجد أنّها تتناوب مابين الخط الكوفي المورّق والمزهرّ والخط الأندلسي، أما الزخارف المرينية ففي معظمها جاءت بالخط الأندلسي.

ما يمكننا قوله عن الزخرفة الخطية؛ أنّها إحدى مراحل الإبداع الفني، فزيادة على منظرها الجمالي فهي أيضاً تساعدنا على كتابة التاريخ، وذلك من خلال الكتابات التي تحتويها مثلاً النصوص التأسيسية، والنصوص الدينية، ولا ننسى أيضاً شواهد القبور التي تعتبر هي الأخرى من الوثائق التاريخية.

¹ _ بروسلا شارل، المرجع السابق، ص: 103.

² _ موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية بتلمسان، ص: 132.

³ _ مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص: 29.

⁴ _ موساوي عبد المالك، زخارف المنارات الأندلسية في إسبانيا وشمال إفريقيا، دار السيل، الجزائر، ط1، 2013، ص:

ثالثا: الزخرفة الهندسية:

تقوم أساسا على خطوط معنية ومنكسرة، وأشكال هندسية كالمربع، المثلث والدائرة، وما ينشق عنهم من أشكال نجمية وغيرها، يسعى الفنان لتشبيك هاته الأشكال للحصول على أشكال جديدة أكثر تناسقا وتناسبا تشد نظر الملاحظ لها.⁽¹⁾

والزخرفة الهندسية كغيرها من الزخارف شغلت اهتمام الفنان المغربي عموما سواء في تلك الفترة أو الفترات السابقة، ونخص بالذكر العهد الزياني والمريني؛ لأن الفن الزخرفي آنذاك كان قد بلغ مرحلة النضج بحيث سعى الفنانون لابتكار أشكال جديدة أكثر دقة وإتقانا، وسنبدأ بالفن الزخرفي الزياني. فمن بين أهم الزخارف الهندسية في العمائر الزيانية، تلك الموجودة في مسجد أبي الحسن، من كونه لا يزال قائما إلى اليوم، لكن للأسف الكثير من زخارفه قد زالت، ومع هذا سنحاول تسليط الضوء على الجزء المتبقي منها.

فقد احتوى هذا المسجد على أشكال هندسية اجتمعت مع العناصر النباتية والكتابية، كالأفاريز الهندسية التي تحوي بعض الأشكال من كلا الزخرفتين، وهناك أيضا عناصر هندسية جاءت خالية من الزخارف الأخرى، وهذا قل ما يحدث في العمارة الزيانية، ومنها الأطباق النجمية؛⁽²⁾ وهي نجومات يتراوح عدد رؤوسها من 10 إلى 16 رأس، تزيد من الشمسية التي تعلو المحراب، وهناك بعض الأشكال الهندسية الأخرى التي تتقاطع فيما بينها مشكّلة مربعات ومعينات تستخدم في الغالب كإطار للزخرفة الكتابية، وجلّها في واجهة المحراب.

أما مدخل المسجد فقد زين بدوائر تتقاطع فيما بينها مشكّلة أقواس تحيط بعقد المدخل، وحتى النوافذ،⁽³⁾ هاته الأخيرة التي زينت بنجمات سليمان ومشتقاتها⁽⁴⁾ متراصة، جاءت باللون الأبيض، الأخضر، الأزرق والبني، وكذلك الأمر بالنسبة للمئذنة التي زخرفت بأشكال هندسية من الزليج

¹ _ بوسماحة حسن، المرجع السابق، ص: 14.

² _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 161.

³ _ موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 49. بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 162.

⁴ _ ينظر: الملحق رقم: (10).

باللون الأبيض والأسود، قوامها معينات متقاطعة مع بعضها البعض، تتوسطها معينات أصغر حجمًا، ونفس الشكل أيضا نجده في صومعة مسجد أولاد الإمام.⁽¹⁾

ننتقل لنموذج آخر من المنشآت الزيانية، والتي احتوت على زخارف هندسية، وهي أرضية قصر المشور التي بلّطت بالزليج، رسمت عليها مربعات ونجمات سليمانية بمشتقاتها، تراوحت ألوانها ما بين الأحمر، الأزرق والأسود، ونجد نفس الزخرفة على أرضية المدرسة التاشفينية،⁽²⁾ ودون أن ننسى الزخرفة الهندسية في المدرسة اليعقوبية، ومنها الطبق النجمي على شكل شريط طويل يحيط بالجزء العلوي من جدران قاعة الصلاة، وما بين هاته الأطباق توجد نجمات صغيرة ذات ثمانية رؤوس.⁽³⁾

وهناك أيضا بعض الزخارف الجصية التي كست جدران ضريح سيدي إبراهيم المصمودي؛ وهي نجمة ذات أربعة وعشرون ضلعا بها مراوح نخلية تتشابك فيما بينها،⁽⁴⁾ أما قاعدة الجدران فهو تشبيك فسيفسائي من الخزف، يتشكل من نجمات سليمانية وسط مجموعة من الخطوط المتشابكة.⁽⁵⁾

والملاحظ أنه حتى شواهد القبور أخذت نصيبها من الزخرفة، كما سبق وأن أشرنا، ومنها شاهد قبر أخذ شكل عقد مفصص تعلوه نجمة ذات خمسة رؤوس، وزخارف هندسية أخرى تم تشكيلها بالدوائر، وكذا شاهد قبر أحد العلماء الذي جاء على شكل عقد حدوة الفرس، تزينه أنصاف دوائر متناظرة ومتقاطعة، وهذا النوع من الزخرفة وجد على مداخل المنشآت الدينية، الزيانية والمرينية.⁽⁶⁾

وليكتمل الحديث عن الزخرفة الهندسية لابد أن نعرّج على الزخارف الهندسية المرينية، بحكم أن المرينيين حكموا المغرب الأوسط في فترات تخللت الحكم الزياني. ومن بين المنشآت المرينية والتي لا تزال قائمة مجمّع العباد؛ الذي يشتمل على المسجد والضريح والمدرسة وكذا قصر السلطان، غير أن هذا الأخير شبه مهديم ولا تتّضح الكثير من معالمه لاسيما الزخرفة، لكن من المؤكد أنه احتوى على زخارف كثيرة في وقت مضى، خاصة إذا شاهدنا زخرفة باقي المنشآت المرينية التي جاءت كثيفة جدا لاسيما الجصية، خاصة في المسجد.

¹ _ موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ص: 36، 37، 75.

² _ المرجع نفسه، ص: 32، 33. موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 81.

³ _ بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 266.

⁴ _ مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص: 27.

⁵ _ وليم وجورج مرسية، المرجع السابق، ص: 432، 435.

⁶ _ موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية بتلمسان، ص: 126، 140.

ومما يلاحظ هو انتشار الزخرفة الكتابية والنباتية على حساب الهندسية، التي شغلت مساحات قليلة، ومنها سقف قاعة الصلاة، الذي زيّن بزخارف هندسية جصية؛ وهي عبارة عن نجمة ذات اثني عشر رأساً، رسمت داخل مربع، وفي السقف رواق آخر من قاعة الصلاة نجد أيضاً زخرفة جصية لكن بأشكال مختلفة عن السابق؛ بحيث طبعت عليها نجمة ذات خمسة رؤوس، وأخرى ذات ثمانية، ترتبط فيما بينها،⁽¹⁾ مع وجود بعض العناصر الهندسية الأخرى صغيرة الحجم.⁽²⁾

ووجدت أيضاً بعض الأشكال الرباعية والسداسية في الجزء العلوي من الجدران، وكذا واجهات المحراب، كما يلاحظ وجود زخرفة هندسية متمثلة في جملة من الخطوط المتقاطعة على شكل ضفيرة، تحيط بالمحراب من الداخل، وهي نفسها الموجودة على تاج العمود الرخامي للمحراب،⁽³⁾ وما دمنا نتحدث عن المحراب يجدر بنا الإشارة إلى الزخرفة الجصية الهندسية التي تحيط بقبة المحراب، والتي تتكون من نجمي مائتيئة وبعض الأشكال المتفرعة عنها، وهي الزخرفة نفسها التي وُجدت في قصر الحمراء،⁽⁴⁾ ومن المساحات المحدودة التي احتوت زخرفة هندسية نجد الشمسيات في قاعة الصلاة التي التي تحلّت بنجمة ذات ستة عشر رأساً.⁽⁵⁾

أما المئذنة فقد زيّن جوسقها بشرفات؛ وهي على شكل مثلث متساوي الأضلاع تنوسطه نجمة ذات تسعة رؤوس داخل دائرة من النجوم الخماسية، وتحيط به من الجانبين مثلثات صغيرة، غطيت هذه الشرفات بالزليج، هذا ولا يمكننا أن نتجاهل الباب الضخم للمسجد، وما يحويه من زخارف هندسية تتكون أساساً من أطباق نجمية، تتصل فيما بينها بنجمة ذات ثمانية رؤوس، نقشت على النحاس الذي يغطي الباب الذي هو في الأصل مصنوع من الخشب.⁽⁶⁾

وإذا أردنا الحديث عن أرضية مسجد العباد، فنجد أنها من الزليج رسمت عليه مربعات ملونة بالأسود والأخضر الفاتح، والبني، والأبيض، وهي نفس أرضية مسجد سيدي الحلوي، ومدرسة العباد؛⁽⁷⁾ هاته الأخيرة التي اشتملت على قبة خشبية تعلو قاعة الصلاة، والتي زيّنت بأشكال هندسية

¹ _ ينظر: الملحق، رقم: (5).

² _ موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 159، 162.

³ _ بوطارن مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص: 217.

⁴ _ موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ص: 80.

⁵ _ رزقي نبيلة، المرجع السابق، ص: 113.

⁶ _ موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 143.

⁷ _ موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ص: 26، 28، 29.

هندسية منها نجمة ذات ستة رؤوس وعددها أربعة وعشرون نجمة بين كل نجمة وآخر هناك نجمة صغيرة.⁽¹⁾

أما فيما يخص مسجد سيدي الحلوي فقد تحلّى بجملة من الزخارف الهندسية من الزليج الأبيض، والأسود، والأخضر والبني، والأزرق، ويتشكل من نجمة سليمان ومشتقاتها داخل معين، هاته الزخرفة تتكرر على أرضية مسجد المشور، مع اختلاف بسيط من ناحية الألوان فقط، فأرضية المشور جاءت باللون الأسود، والأخضر، والأبيض فقط.⁽²⁾

وهكذا نستطيع القول أن هنالك تشابه كبير بين الزخرفتين الزيانية والمرينية، التي اعتمدت بشكل واضح على عنصر النجمة بجميع أنواعه، ومن الملاحظ أيضا كثرة الزخارف الجصية، سواءً إذا تعلق الأمر بالزيانيين، أو نظرائهم المرينيين، وهذا أمر طبيعي فكل من الطرفين تأثر بالفن الأندلسي الذي كان يحتل الصدارة آنذاك.

لقد تمكن الفنان الزياني والمريني من البلوغ مرحلة من النضج الفني، وهذا ما ظهر بشكل واضح في كل المنشآت سواء كانت دينية أو مدنية التي أكساها حلّة زخرفية تشعّ بالدقة والإتقان، وهذا ليس بغريب عن الفنان المسلم في تلك الفترة الذي كان يطبق حديث الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم الذي يدعو فيه لإتقان العمل.

المبحث الثاني: الفنون الصناعية

¹ _ ينظر: الملحق رقم: (6)

² _ موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ص: 58، 59.

تعتبر الصناعة من بين الجوانب الهامة في تاريخ أي دولة، فهي التي تعبر عن درجة الرقي والازدهار الذي بلغته، وقد تنوعت هذه الصناعة حسب توفر المواد الأولية، كما أنها تميزت بالبساطة؛ الأمر الذي جعلها متوفرة لدى أغلب العائلات، خاصة الفقيرة منها، ولكن نحن ما يهمنا في الأمر هو الصناعة الفنية، كالنسيج، الفخار... الخ، وكيفية زخرفتها.

ولقد اشتهر المغرب الأوسط بكثير من الصناعات خلال العهد الزياني وقبله، واستمرت حتى فيما بعده، فقد وجدت العديد من المصانع لإنتاج مختلف السلع والوسائل التي تحتاج إليها الدولة، ولعل الدليل الواضح على ذلك هو قول يحيى بن خلدون: «وبها للملوك قصور زاهرة اشتملت على المصانع الفائقة...»⁽¹⁾ ووصف الحسن الوزان هذه الطبقة أي الصناع بأنهم أقوىاء ويحبون التمتع بالحياة.⁽²⁾

وكانت هذه الحرف موزعة عبر الأحياء في المنطقة الواحدة، وغالبا ما يتخذ كل حي اسم الحرفة التي تقام به، أو القرية منه، وكان الحرفيون منتظمون في شكل طوائف أو جماعات حرفية يشرف عليها رجل يسمى الأمين، أما النساء فكانت تعمل فيهن.⁽³⁾

وبذلك فقد ازدهرت الصناعة التقليدية وبالأخص مع أواخر الدولة، والسبب الأول في ذلك هو العناية التي أولاها الملوك الزنانيون لأرباب هذه الحرف والصناعات؛ فهذا أبو حمو موسى الثاني الذي جعلهم في مرتبة تلي مرتبة الأشراف والفقهاء، وكان يخصص يوم الجمعة كيوم استقبال لمختلف فئات المجتمع بقصره المشهور،⁽⁴⁾ إضافة إلى ذلك أنشأ لهم دارا تعرف بـ "دار الصناعة" اشتملت على مختلف الصناعات، الأمر الذي ساعد على إنمائها وتطورها إلى الأحسن.⁽⁵⁾

أولا: صناعة الفخار والخزف:

¹ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 10.

² _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 21.

³ _ عاتي لعبي كريمة الخزاغي وحارث علي عبد الله، أنواع الحرف في بلاد المغرب من خلال كتاب المعيار المغربي للنشر في عام 941هـ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، ع22، آب 2015م، ص: 413، 414.

⁴ - حاج عيسى إلياس، الحرف اليدوية في المغرب الأوسط "تلمسان نموذجا"، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج2، أعمال ملتقى دولي بتلمسان، أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، ص: 34، 35.

⁵ _ شققدان بسام كامل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص: 190.

لقد عرف الإنسان صناعة الفخار منذ أقدم العصور، خاصة وأنّ المادة الأولية لهذه الصناعة متوفرة في الطبيعة، ولا تكلف صاحبها أموالاً؛ فغالبا ما كان يتم جلبها على البهائم أمثال: الأتربة وغيرها من المواد التي كانت تستعمل في صناعة الأواني التي يحتاجها الإنسان في حياته اليومية، سواءً للأكل والطهي أو التخزين، وكذا المزهريات التي تستخدم عادة لوضع باقات الورود.⁽¹⁾ وقد ذكر الفخار في القرآن الكريم؛ من حيث أنّها المادة التي صنع منها الإنسان، فقال الله تعالى ﴿خَلَقَ نَسْأَان مِّنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾.⁽²⁾

أما عن الفرق الموجود بين الفخار والخزف، فالكلمة الأجنبية (Portery) تطلق على الفخار، أما الكلمة الإغريقية "سيراميك" (Ceramic) فهي التي تطلق على الخزف المزجج (Glazing)؛ وهي عملية إضافة طبقة رقيقة من الخامات المكونة للزجاج على سطح الأواني الفخارية.⁽³⁾ أي أن الخزف هو المرحلة الأخيرة من تحضير الفخار.

والشيء المعروف لدينا في المغرب، وحتى في المشرق هو انتقال أو توارث هذه الحرفة كغيرها من الحرف من الآباء إلى أبنائهم، وعرفت بمصطلح "الحرفة" أو "الصناعة"،⁽⁴⁾ حتى وإن تكن الكتابة حديثة التي تناولت ذلك؛ أي بعد الفترة الرومسة، إلّا أنّه يظهر أن هذا أمر معروف منذ القدم. وقد وجدت بالجزائر بعض المواقع الأثرية بها الكثير من القطع الخزفية المنحوتة تعود بعضها إلى ما قبل دخول الإسلام، وهذا إنّما دليل على أن هذه الحرفة كانت منتشرة في فترات سبقتها، وظلّت حتى بعد انتشاره بالمنطقة، غير أنّها أخذت منحى جديد؛ والمتمثل في الطابع الإسلامي.⁽⁵⁾ كما تعتبر مدينة تلمسان واحدة من المدن التي يختص أهلها بصناعة مثل هذه الحرف.⁽⁶⁾ والشيء الواضح الذي يدل على رواج هذه الصناعة وتطورها في مدن المغرب الإسلامي بصفة عامة

¹ _ عبد العزيز محمد الحسني، الخزف الإسلامي ذو البريق المعدني، ع184، ربيع الثاني 1400هـ، ص: 75.

² _ سورة الرحمان، الآية: 14.

³ _ ناهض عبد الرّزاق القيسي، الفنون الزخرفية العربية والإسلامية، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، (د.ط)، 1429هـ/2009م، ص: 31.

⁴ - غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700 - 1830م) "مقاربة اجتماعية اقتصادية"، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، روية، (د.ط)، 2012م، ص: 113.

⁵ _ عروة نجا، من وحي التراث المعماري والحرفي في الجزائر، دحلب، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م، ص: 138، 139.

⁶ _ بوسماحة عبد الحميد، بوسماحة عبد الحميد، تلمسان تاريخ وثقافة، (د.د.ن)، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م، ص: 126.

والأوسط على وجه الخصوص، هو تلك الفتوى التي أوردها الونشريسي في عدم جواز تراب القبور لصناعة الفخار.⁽¹⁾

ولقد عرفت هذه الحرفة صبغة جديدة، تمثلت في تأثرها بالطابع الأندلسي، وذلك منذ القرن 5/9م، ولا سيما في مدن المغرب الأوسط كالجزائر، تلمسان وغيرها من المدن، حيث توافدت جماعات من الحرفيين الأندلسيين في مختلف الاختصاصات حاملة معها خبراتها الفنية وتقنياتها الصناعية، فكانت المربعات الخزفية آنذاك تتميز بالأطباق النجمية، والأشرطة البيضاء المتشابكة المحيطة بها، ثم شهدت حرفة الخزف تطورا ملحوظا فيما بين القرنين (6_7هـ/12_13م)؛ والذي عرف قيام الدولة العبد وادية؛ إذ أضيفت إلى مجموعة الألوان أصنافا جديدة في صيغ نباتية وخطية مبدسة.⁽²⁾

وعليه فإن صناعة الفخار عرفت رواجاً منذ تأسيس الدولة على يد يغمراسن بن زيان، بحيث كانت تسمية بعض المواضع منها تحمل أسماء بعض الحرف كباب القرميدين مثلاً، مما يوحي لنا بأن هذه مواقع كانت بالقرب منها مصانع وأفران لصناعة الآجر والفخار، وحدد مكانها أيضاً ألفرد بل، وجعلها بجوار باب العقبة.⁽³⁾ كما اشتهرت واحدة من المدن التابعة لها، ألا وهي ندرومة بممارسة حرفة الفخار، والتي اشتهرت بها منذ القدم، حتى أضحت تسمى بها المعالم الأثرية والدروب، ومن ذلك المسجد الذي أطلق عليه اسم "مسجد القدارين"، وكذلك الدرب الذي عرف بـ"درب الفخارين"، وذلك لتوفره على أفران لصناعة الفخار، وباعتبار أن ندرومة من المدن التابعة لتلمسان، فإن هذا ينطبق عليها وعلى مدن المغرب الأوسط عموماً.⁽⁴⁾ كما عثر جورج مارسلي أثناء دراسته للخزف الحمادي على بعض القطع الخزفية الزيانية بتلمسان يعود تاريخها إلى القرن 7هـ/13م.⁽⁵⁾ ومع تزايد الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب زاد تأثر السلاطين الزيانيين بالأساليب الفنية الأندلسية، ولعل ذلك يظهر من خلال الرسائل المتبادلة بين السلطان أبي تاشفين الأول وملك

¹ _ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص: 336.

² _ عروة نحة، المرجع السابق، ص: 140.

³ _ بلعري خال، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ص: 239.

⁴ _ يوحسّون العربي، الحرف والصناعات التقليدية بمدينة ندرومة فضاء للأصالة والتحديث، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع

أنثروبولوجية وذاكرة، ج1، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2011م، ص: 382، 383.

⁵ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 96.

أراغون، بحيث طلب هذا الأخير من السلطان الزياني إطلاق سراح الأسرى المسيحيين الموجودين بتلمسان، ولكن أبا تاشفين رفض ذلك مبررا أن أغلبهم من الصنّاع المتفنّنين الذين يتم الاعتماد عليهم في زخرفة القطع الخزفية، وخاصة المستخدمة في الزخرفة المعمارية.⁽¹⁾ كما أن هذه الحرفة كانت أيضا من اختصاص الجالية اليهودية المقيمة بالمنطقة، بحيث عرفت مدن المغرب الإسلامي بما في ذلك الأوسط إقبالا كبيرا لهذه العناصر، وذلك بعد ظهور حركة الاسترداد المسيحية، واضطهادهم من قبل النصاري.⁽²⁾

وكان الفخار يصنع في غرفة تسمى الورشة؛ والتي كانت مثلها مثل البنايات البسيطة غرفة صغيرة الحجم تشتمل على أربعة جدران وباب صغير.⁽³⁾ وكانت عملية صنع الفخار تمرّ بثلاث مراحل، فبعد جلب الطين من أماكن تواجد الصلصال يقوم الفخاري بتحضير الطينة، من غريلة التراب وتنقيعه بالماء لعدة أيام ثمّ تصفيته، ثمّ تأتي مرحلة العجن، ويقوم بها لعدة مرات حتى يمكنه التخلص من الفقاعات الهوائية الموجودة بداخله؛ لتصبح العجينة ملساء سهلة الاستعمال، تحفظ بعدها في مكان رطب لتحافظ على وحدة تجانسها وتماسكها.

تليها المرحلة الثانية؛ والتي تتمثل في تشكيل الأواني،⁽⁴⁾ وتستعمل قطعة من القماش المبللة لتنعيم سطح الأواني المصنوعة، وعندما تأخذ شكلها وتجنّف قليلا تنزع من القوالب، وتترك للتجفيف مدة من الزمن، وثمة يلاحظ إذا ما وجدت عيوب بالإناء، فيتم نزعها بأداة تسمى الكاشطة، ثم يقوم بدعكها وترطيبها بواسطة حجارة ملساء تساعد على ذلك، ثمّ تترك للتجفيف للمرة الأخيرة.

تليها آخر مرحلة؛ وهي وضع الأواني في الفرن للحرق لمدة يوم كامل، بينما تدوم مدة الحرق حوالي ساعتين،⁽⁵⁾ وكانت درجة الحرارة المستخدمة في أفران الفخار تتراوح ما بين 900 و1300 درجة مئوية، وبعد إتمام عملية الحرق تترك الأواني في الفرن لتبرد تدريجيا، مع الحرص على عدم فتح الفرن مباشرة حتى لا تتعرض للبرودة القوية.

¹ _ حساني مختار، تاريخ الجزائر الوسيط، ج5، ص ص: 237، 238.

² _ حاج عيسى إلياس، المرجع السابق، ص ص: 37، 38.

³ _ فاطمي عائشة، الحرف التقليدية بمنطقة ندرومة "الفخار كنموذج"، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجيا وذاكرة،

ج1، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2011م، ص: 408.

⁴ _ ناهض عبد الرّزاق القيسي، المرجع السابق، ص: 31.

⁵ _ فاطمي عائشة، المرجع السابق، ص ص: 411، 412.

وبعد نزع الأواني من الفرن تأتي مرحلة التزجيج؛ وهي عملية تحويل الفخار إلى خزف، وذلك لعدة أسباب؛ منها كثرة المسامات على سطحها، ووجود بعض الشوائب العالقة بها، فعمد بذلك الفخاري إلى طلاؤها بالزجاج الذائب ليصبح بذلك الفخار خزفاً، مما يعطيها نظرة جمالية أكثر.⁽¹⁾ وما يدل على أن صناعة الخزف كانت رائجة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، هو تلك القطع الخزفية التي عثر عليها في مدينة المنصورة داخل بيت كشفت عليه إحدى الحفريات الأثرية، هاته القطع تتمثل في بعض الصحون والأكواب والأباريق، وهي نوعان؛ فالأول جاء بلون واحد إما أبيض غير ناصعواً أخضر، والتي صنعت من الطين الأحمر، ثم غطيت بمادة بيضاء، وتميّز هذا النوع بخلوّه من أي زخرفة.⁽²⁾ أما النوع الثاني، فقد صنع بنفس المادة؛ وهي الطين الأحمر مغطى بطبقة بيضاء سميكة أخفت تماماً لون الطين الأحمر، ثم رسمت عليه زخارف نباتية، وهناك الهندسية وحتى لكتائية، أيضاً منها ما كان من الداخل والخارج، ومنها ما وجد على الداخل فقط، لوّنت بطلاء زجاجي ملون بالأزرق والبريق المعدني، وهناك نوع لوّنت بألوان مختلفة.⁽³⁾

وقد تنوعت الأواني الفخارية حسب تنوع المواد الغذائية الصلبة والسائلة، ومنها: مقلة لطهي الخبز. قُدرة (حلاب)؛ ويستعمل خصيصاً لوضع الحليب. طاجين. قُدرة باليدين. موقد محوّل. ركانون). قصعة. محبقة؛ وهي إناء لوضع الأزهار.⁽⁴⁾ وكذلك الكؤوس والأقداح والأطباق والأباريق.⁽⁵⁾

ومع التطور الملحوظ الذي صاحب الإنسان في مختلف مجالات حياته، شهدت تلك الحرفة الكثير من التغييرات والتأثيرات، فأصبحت الصناعة التقليدية ويا للأسف تتلاشى شيئاً فشيئاً، وحلت مكانها الوسائل والآلات الحديثة هذا إلا أن بعض المناطق والمدن العريقة في التاريخ لا زالت تحافظ على عاداتها، وتُقدّم على ممارسة مثل هذه الصناعات، والتي تدلّ على الفن الراقي لتطور المدينة من

¹ ناهض عبد الرزاق القيسي، المرجع السابق، ص: 32.

² لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 222-224.

³ لعرج عبد العزيز، المرجع السابق، ص: 224، 225.

⁴ فاطمي عائشة، المرجع السابق، ص: 412، 413.

⁵ بلعربي خالد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ص: 239.

جهة، كما أنها تعبر¹ عن عراقية المنطقة في التاريخ من جهة ثانية، ولارتباطها بالجانب السياحي من ناحية أخرى.⁽¹⁾

ثانياً: صناعة النسيج:

تعتبر الصناعة النسيجية من بين الصناعات البسيطة التي عرفتتها الأمم قديماً، ولا سيما العرب، ومع مجيء الدعوة الإسلامية ازدهرت هذه الصناعة لتتلاءم والتعاليم التي جاء بها الإسلام، وخاصة الحرير الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿عَبْدُ نَا يُعِدُّ لَكُمْ بُحُولُونَ فِيهِمَا مِّنْ أَسْمَاءٍ مَّوْرٍ وَلَوْلَا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهِمَا حَرِيرٌ﴾⁽²⁾ وعرفت لدى سكان المغرب مثلهم مثل أهل المشرق، وخاصة في الفترة الوسيطة التي عرفت توافد عناصر مختلفة من العرب، الأندلسيين واليهود، إلى جانب السكان المحليين للمنطقة "البربر"، وبذلك فقد امتزجت فيها التقاليد الخاصة بهذه الصناعة، وأصبحت بذلك حرفة تتوارثها الأجيال أبا عن جد.

وعرفت هذه المنسوجات التطريز بكافة أنواعه: الآدمية، الحيوانية والنباتية، وكذا النصوص الكتابية بمختلف أنواع الخطوط كالكوفي، النسخي، الديواني... الخ⁽³⁾ ويتم تنفيذ الكتابات على نوعية المنسوج عن طريق التطريز، بحيث تكتب الحروف عليها بخيوط مختلفة الألوان، وهي تحمل في ذلك معنيين؛ إخفاءً للشقوق التي يمكن أن تظهر على الكتان من جهة، ومن جهة ثانية إضفاء الصبغة الجمالية عليه، وتعتبر هذه الطريقة من أصعب الطرق في حرفة النسيج، إلا أنها كانت تتم⁴ وبطريقة فنية رائعة.⁽⁴⁾

وكانت صناعة الصوف والنسيج من بين الصناعات السائدة في المغرب الأوسط في كل مدنه تقريباً، وكانت غالباً من عمل النسوة، والتي كن حريصات على تعليم بناتهن هذه الحرفة⁽⁵⁾ ودليل ذلك ما أورده لعلقباني فيما كان يقمن به في شأن اجتماعهن عند امرأة واحدة في بيتها، لإعانتها في

¹ _ فاطمي عائشة، المرجع السابق، ص: 405_407.

² _ سورة فاطر، الآية: 33.

³ _ ناهض عبّال زاق القيسي، المرجع السابق، ص: 20.

⁴ _ عبد الستار محمد عثمان، أدوات الكتابة بين النشأة والتطور، ع6، 2013م، ص: 214.

⁵ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزبانية، ج2، ص: 90.

غزل الصّوف والكتان، وهو ما يسمى بالتويّزة وهكذا لا يعني أنها كانت منعدمة عند الرّجال، وإنّما كانوا يمارسون حرفتهم هذه في دكاكين صغيرة،⁽²⁾ يبدو أنّها كانت عبارة عن ورشات لتعليم الصبيان الصناعات بأنواعها، والقائم عليها يدعى "المعلم"، وهذا ما أكّده ابن مريم في حديثه عن الفقيه سيدي أحمد بن محمد بن زكري،⁽³⁾ فقال ثمّ «أنّ أمّه أتت به ليتعلم الصنعة، وأدخلته في طراز عند معلم ليتعلم الحياكة، وبقي عنده حتّى تعلّم النسيج».⁽⁴⁾

وبهذا فقبّوع الرجال مثلهم مثل النّساء في التّفنّن والإبداع في هذه الصّنعّة؛ فهذا أحمد بن مرزوق العالم الجليل كان يحترف صناعة الصّوف بتلمسان، وأدّى دورا كبيرا في رواج هذه السّلمة بالمنطقة،⁽⁵⁾ وكذلك الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي الذي كان يكسب قوت يومه من الخياطة،⁽⁶⁾ الخياطة،⁽⁶⁾ علّفى الرغم من بساطتها إلّا أنّها كانت مصدر رزق لأغلب الفئات الاجتماعية المتوسطة والفقيرة.

ولم تقتصر هذه الصناعة على المدن فحسب، بل امتدّت أيضا إلى البوادي، وكانت تتوفر بكثرة عند القبائل العربية منها والبربرية، وخاصة البدو الرّحل من كونها مختصة في تربية المواشي، وبالتالي تتوفر لديها المواد الأولية من الصوف والوبر وغيرها، بحيث كانت المرأة آنذاك تقوم بنسج ما تحتاج إليه من الملابس والأغطية،⁽⁷⁾ وإذا قلنا أنّ الدولة الزيانية ترجع في أصلها إلى قبيلة زنّانة البترية، فإنّ هذه الأخيرة تختص بتربية المواشي والإبل التي هي مصدر المادة الأولية، كالصوف والوبر وغيرها مما يحتاجه الإنسان في الصناعات النسيجية بأنواعها المختلفة، ومنها صناعة الصّوف وحيآكته.⁽⁸⁾

¹ _ العقباني أبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التلمساني (ت 871/1467م)، كتاب حفة النّاطر وغنيّة الذاكر في حفظ الشّعائر وتغيير المناكر، تح.علي الشّنّوني، Tome XIX، (د.ط)، 1967م، ص: 264.

² _ برنشفيك، المرجع السابق، ج2، ص: 209.

³ _ ابن زكري: هو أحمد بن محمد بن زكري، يكنى بأبي العباس، من فقهاء تلمسان، أخذ عنه أبو العباس أحمد الونشريسي. ينظر: المكناسي أحمد بن القاضي، المصدر السابق، ص: 40.

⁴ _ ابن مريم، المصدر السابق، ص: 38.

⁵ _ ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص: 188، 189.

⁶ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 54.

⁷ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 92.

⁸ _ عبدلي لخضر، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ص: 190.

عليه فقد كان الإنسان يجتهد في توفير المواد الأولية سواءً من مصدر حيواني أو نباتي، فمن المواد المستخدمة في صنع الأقمشة عموماً نجد: **القطن**؛ والذي قام الإنسان بزراعته منذ أقدم الأزمنة، ونجح في جعله مصدراً للخيوط التي استعملها في نسج الملابس، ومن بين مدن المغرب الأوسط التي اشتهرت بزراعة القطن هي ندرومة. **الكتان** وهو نبات يُقطف قبل نضوجه لتكون خيوطه ناعمة، وبعد تخفيفها تحت أشعة الشمس تضرب وتمشط، فتكون بذلك جاهزة للنسج. **الصوف**؛ هو أيضاً من بين المواد الهامة المستخدمة في صناعة النسيج، فبعد غسله وتخفيفه في الشمس يتم غزله بواسطة المغزل ليصبح بذلك جاهزاً لصناعة الأفرشة والملابس. **الحريز**؛ هو الآخر من بين المواد المستخدمة في عملية النسيج؛ بحيث يتم استخراج المادة الملونة من ديدان القز.⁽¹⁾

وبعد الحصول على المواد الأولية جاهزة من القطن، الكتان، الصوف والحريز تغزل بواسطة مغزل خشبي تلف عليه الخيوط المغزولة. بعد إتمام الغزل تصبح المواد الخام جاهزة لعملية النسيج، ويأتي بعدها دور النول؛ والذي يتكون من عارضتين عموديتين، وآخرين أفقيتين ليشكلوا بذلك أربع زوايا قائمة، وتمتد بين العارضتين العموديتين خيوط السدى (الخيوط الأفقية)، أما خيوط اللحمة فتتزل بواسطة بكرات معلقة في سطح الغرفة لتتم بذلك عملية النسج.⁽²⁾ ورغم أن هذه المناسج لم تكن متوفرة لدى أغلب من يحترف هذه الصناعة، إلا أنهم اجتهدوا في توفيرها بكرائنها من كبراء التجار رغبة منهم في مزاوله هذه الحرفة، وخاصة النساء.⁽³⁾

ثم تأتي بعدها مرحلة الصباغة، ومصادرها اثنين: نباتي وحيواني، إلى جانب المعادن، وذلك حسب اللون المراد الحصول عليه، فاللون الأحمر مثلاً نتحصّل عليه من لحاء شجر البلوط، كما يتم الحصول عليه أيضاً من بعض المصادر الحيوانية، ومنها دودة القزّ أو القرمز، وبعد تخفيفها وغليها في الماء يتم وضعها في محلول ملحي حامض يساعدها على أخذ اللون، أما الأزرق فيأخذ من نبتة النيل.

¹ _ناهض عبد الرّزاق القيسي، المرجع السابق، ص: 17، 18. بلبشير عمر، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى من القرن (6_9هـ / 12_15م) من خلال كتاب (المعيار) للونشريسي، أطروحة دكتوراه، إشر: غازي مهدي جاسم، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2010م، ص: 218. شقّدان بسام كامل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص: 187.

² _ناهض عبد الرّزاق القيسي، المرجع السابق، ص: 17، 18.

³ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 83، 84.

وأما الأصفر فيستخرج من نبات الزعفران والكرّم، وفيما يخص اللون الأخضر يتم الحصول عليه بخلط مادة من اللون الأصفر مع مادة من اللون الأزرق.

وتتم طريقة الصّـبغ بمواد مختلفة كقشالرّ مان وأشجار الفستق، الجوز، وكذلك الشّب الذي يساعد على تثبيت اللون في القماش، لتأتي بعدها مرحلة الزخرفة، وكانت متعددة حسب مصادرها حيوانية أو نباتية، وتضاف لها الهندسية.⁽¹⁾

وهكذا فقد انتشرت صناعة المنسوجات بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، وكانت رائجة تصدّر إلى دول إفريقية والمغرب، فقد ذكر أنّ سلطان تونس كان يلبس قماشا يعرف بالتمساني، إمّا صوف خالص أو حرير خالص مختم،⁽²⁾ وهذا ما أورده ابن مرزوق في خضمّ قوله: «وملوك إفريقية والمغرب إنّما يلبسون حينئذ ما كان يعمل بتلمسان من رفيع الصّـوف»،⁽³⁾ كما يبدو ذلك واضحا جليا من كثرة الفتاوى التي أوردها الونشريسي في شأن صناعة الحرير، والذي اعتبروه محرّم على الرجال،⁽⁴⁾ ومع ذلك نجد الرّجال يستخدمونه في تزيين عمائمهم،⁽⁵⁾ وهذا إنّما دليل على ازدهار هذه الصناعة وتطورها تدريجيا، كذلك الهدايا التي كان يتبادلها ملوك الدول فيما بينهم، ومن ذلك أبو الحسن المريني لمّا دانت له تلمسان بعث بهدية إلى الملك الناصر بالإسكندرية،⁽⁶⁾ تشتمل على منتجات فنية رائعة من أواني وملابس، ومنهالحرير، الكتّان والصوف، والتي كانت مطرّزة بخيوط من الذهب والفضّة.⁽⁷⁾

¹ _ناهض عبد الرّزاق القيسي، المرجع السابق، ص: 19، 20. شقدان بسام كامل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص: 188.

² _عبدليّ لخضر، التاريخ السّياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ص: 291.

³ _ ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، ص: 189.

⁴ _ الونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص: 92، 166.

⁵ _ بلبشير عمر، المرجع السابق، ص: 220.

⁶ _ الإسكندرية: هي مدينة في المغرب من أرض مصر، تبعد عن خط المغرب بإحدى وخمسون درجة، وعن خط الإستواء ثلاثون درجة، وهي من عجائب البلدان، قيل أنّها بنيت في نحو ثلاثمائة سنة. ينظر: ابن الحسين إسحاق (عاش خلال ق 4هـ)، أكامر المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، تح: فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ص: 85.

⁷ _ ابن خلدون عبد الرّحمان، التعريف بابن خلدون، ص: 373. حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 90.

ولم يقتصر الحرير على الألبسة فقط، فحتى ستائر النوافذ والأبواب،⁽¹⁾ وكذا الأفرشة كانت تصنع من الحرير، وخاصة إذا تعلّق الأمر بالسلّاطين، وهذا ما نجده عند ابن بطوطة في وصفه لقصر المشور: **وهالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها الزيني ...، وتفرش بالحرير، وتجعل المخّاد عليها، ويرفع عليها وهو شبه قبة من الحرير.**⁽²⁾

ومن بين المدن التي ازدهرت بها صناعة الحرير نجد: شرشال والقلعة، وخاصة بعد استقرار الجالية الأندلسية بها، وكذلك مليانة التي اشتهرت بها صناعة الحرير، وأيضاً منطقتي مزغران ومستغانم، إلا أنها عرفت تراجعاً في الفترة الأخيرة من حكم الدولة، لعدة أسباب منها ضعف الدولة، وسيطرة الأجانب على الجانبيين الصناعي والتجاري.⁽³⁾

ومن بين الألبسة التي شاعت خلال العصر الوسيط نجد الملابس الصوفية؛ من كونها لباس المتصوفة، والذين ذاع صيتهم بالمغرب الأوسط آنذاك، وهذا ما أورده ابن الخطيب في حديثه عن ابن مرزوق.⁽⁴⁾ كذلك صناعة القطن التي اشتهر بها أهل ندرومة؛ لكثرة نبات القطن بهذه الضاحية، وعن وعن تبخرت هي الأخرى التي قيل أنّ أغلبهم نساجون.⁽⁵⁾

ولكن مع التطور الذي شهده الإنسان بظهور الآلات الضخمة اندثرت الصناعات التقليدية تقريباً، ولم يبق منها غير النسيج بأنواعه بأنس، الجلابية، الحنابل، الزرّابي والملحفة،⁽⁶⁾ والذي كان وما زال لحدّ الساعة؛ بحيث أضفيت عليه العديد من التحديثات من حيث كيفية الصناعة والتطريز.

وكان اللباس خلال هذه الفترة يخضع للحالة الاجتماعية التي تعيشها كل أسرة، فقد تميز سكان الحضر بلباس رفيع جميل، بينما اكتفى أهل البوادي باللباس الخشن البسيط حسب طبيعتهم البدوية، أما الوزراء والأعيان فكان لباسهم من القطن والحرير.⁽¹⁾

¹ _ بلشير عمر، المرجع السابق، ص: 220.

² _ ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله وحلة ابن بطوطة المسمّاة لحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية، بحريه، ط1، 1322هـ، ص: 239.

³ _ حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 87، 88.

⁴ _ ابن الخطيب لسان الدين ذي الوزارتين (ت 776/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، مج3، تح: محمد عبد الله عنان، عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1393هـ/1937م، ص: 373.

⁵ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 14، 15.

⁶ _ عزّي بوخالفة، تلمسان منارة إشعاع فكري وحضاري، ص: 430. حساني مختار، تاريخ الجزائر الوسيط، ج5، ص: 293.

إذن فمن بين الألبسة المشهورة خلال هذه الفترة نجد البرانس، وهذا ما يتضح عند يحي بن خلدون في وصفه لأهل تافراوت: «... غالب تكسيهم الفلاحة، وحوك الصوف يتغايون في عمل أثوابه الرقاق فتلقى الكساء والبرنوس عندهم ثماني أواقي، والإحرام من خمس، بذلك عرفوا في القديم والحديث، ومن لديهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغربا»،⁽²⁾ فكان هذا اللباس ولازال لباسا مميزا لدى الرّجال يرتدونه في الولائم الأفراح منها والأقراح؛ وهو عبارة عن لباس تقليدي يصنع من الصوف ووبر الإبل والماعز، وهو على عدة أنواع، منها المطرّز بخيوط الذهب؛ وهو خاص بموظفي الدولة والرتب العليا، بينما هناك من هو أقل منه فنا وجمالا، ويخصّص لذوي الرتب العسكرية، أما طبقة العامة فيظهر أنّ غالبيتها لم تكن تمتلك مثل هذه الألبسة الباهضة الثمن إلا الميسوري الحال، ويظهر ذلك ممّا جاء عن العقباني الذي أخذ برنوسا إلى صانع لحياكته، غير أنّ الصانع ادّعى بأنّه قد ضاع منه، مما اضطرّ إلى دفع غرامته.⁽³⁾

كذلك الشواشي التي كانت من لباس السلاطين أيضا، وهي مصنوعة من الذهب،⁽⁴⁾ كما كانت أيضا من لباس الفئات الاجتماعية الأخرى، ولكن لا تتعدى صناعتها من الكتان أو الصوف.

أمّا النساء فإنّ اللباس المشهور لديها هو الحايك؛ والذي هو أيضا من بين الألبسة التقليدية التي اشتهرت منذ القدم، وترتديه المرأة كلباس للخرجة. كذلك اللباس المعروف باسم "سترة الكراكو"؛ والذي يمثل لباس العروس في العهد الزياني، وبداية العهد العثماني ولا يزال حتى الآن؛ ويصنع أساسا من قماش القطن يفّة، ويطرّز بتقنية المجبود، ويزيّن بصفحات من الذهب، توضع على السترة أزرا تصنع من خيوط مذهّبة أو فضّية، وأحيانا من الصدف أو النحاس، لتزيين الطوق والصدر والأكمام. وترافق هاته السترة ما يعرف بالبلوزة؛ والتي تصنع من الحرير والذهب، ثم يوضع حزام يشدّ على الخصر. كما

¹ _ فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج1، ص: 266.

² _ ابن خلدون يحي، المصدر السابق، مج1، ص: 22.

³ _ عوف مخالفة، تاريخ الألبسة التقليدية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، (د.ط)، 2007م، ص: 21.

حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 91.

⁴ _ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص: 239.

نجد القفطان؛ وهو الآخر من الألبسة التقليدية التي لا تزال حاضرة إلى الآن.⁽¹⁾ هذا إلى جانب اللباس اليومي كالمعاطف الكبيرة والصغيرة وغيرها.

وكانت أغلب الألبسة مطرّزة بطرق حرفية إما مسطّحة أو بارزة من الخيوط المعدنية الذهبية منها أو الفضّية.⁽²⁾ وكان سكان المغرب يعتمدون على المنتج المحلي بصفة خاصة، بحيث يتولى الخياطون والخياطات المهرة إنجاز هاته الملابس التي يقتنيها في الغالب ميسوري الحال أما الأسر الفقيرة فتقوم نساؤهم بخياطة أقمشتهم.⁽³⁾

ثالثا: صناعة الحلي والمعادن:

1-3. الحلي:

وجدت صناعة الحلي شأنها شأن كل الصناعات التقليدية منذ أقدم العصور، جاء الحديث عنها ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ إِلَهُ الْقَوْمِ أَنْ يَحْكُمَ فِي هَؤُلَاءِ مَا يَحْكُمُونَ فِيهِمَا مِنْ أَسَافُورٍ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَأْتِيهِمْ أَسَافُورٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جِوَاهِرٍ مَعَهُ أَلَمْ لَا تَكُنْ مِنْهُمْ رَنِينَ﴾.⁽⁴⁾ وفي حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: «أني رأيت فيما يرى النائم أن في عضدي سوارين من ذهب وكرهتهما»⁽⁵⁾ وهذا دليل على أن الحلي كانت له مكانة كبيرة في الدين الإسلامي، واستعملته المرأة للتزيين.

وكان الذهب يستخدم في صكّ العملة، وفي صناعة الحلي، وكانت تلمسان تستورده على شكل سبائك من مدن سجلماسة والمدن الصحراوية بصفة عامة، كما كانت الحلي والأقراط تصنع أيضا من النحاس.⁽⁷⁾ والدليل الواضح أن صناعة الحلي كانت متوفرة في مدن المغرب هي الفتوى التي أدلى

¹ _ الحياة اليومية في تلمسان، وزارة الثقافة، 2011م، ص: 144.

² _ عوف مخالفة، المرجع السابق، ص: 13، 14. حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ص: 86.

³ _ عاتي لعبيي كريم الخزاقي وحارث علي عبد الله، المرجع السابق، ص: 417.

⁴ _ سورة الكهف، الآية: 31.

⁵ _ سورة الزخرف، الآية: 53.

⁶ _ ناهض عبد الرزاق القيسي، المرجع السابق، ص: 20.

⁷ _ شقدان بسام كامل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص: 188.

بها الونشريسي حول إذا ما يجوز تحويل أو سبك الدراهم لصناعة الحلبي، فيقول: أن العلماء أفتوا بعدم جواز قطع الدراهم الكبار.⁽¹⁾

ومن المواد الأولية المستخدمة في صناعة الحلبي، سواء تلك التي اشتهرت بها المنطقة، أو التي استوردت من دول أخرى نجد: **الذهب**؛ ومادته الخام هي التبر، وبعد تصفيته وتصنيعه يصبح يسمى بالعين، وتعتبر دول إفريقيا أغنى المناجم بالذهب. **الفضة**؛ وتأتي في الدرجة الثانية من حيث التصنيف في صناعة الحلبي. **اللؤلؤ**؛ وهو سيد الأحجار، ويستخرج من البحار والأنهار، وهو على عدة أنواع منها الدرّة، العذراء وغيرها من الأحجار. **الياقوت**؛ ويقع على عدة ألوان منها: الياقوت الأحمر؛ العقيق؛ وهو نوع من الحجارة، وهو أيضا ألوانه متعددة كالأحمر، الأصفر، الأزرق... الخ، وهو الأكثر جودة، وكذلك الأزرق، أما الأبيض فهو أقل جودة منهما. **المرجان**؛ وهو نبات بحري متشعب. **الألماس**؛ وهو من الأحجار الكريمة، وهو أيضا ذو ألوان متعددة **الزمرّد (الزبرجد)**؛ وكلما زادت خضرته زادت جودته،⁽²⁾ أيضا هناك **الفيروز**؛ وهو نوع من الأحجار الكريمة، وأجودها اللون الأزرق. ومن الأحجار الكريمة أيضا نجد **الجزع**.⁽³⁾

وهذه المواد كلها كانت تستعمل في صنع الحلبي التي كانت ولا زالت تتخذها النساء للزينة، ومن بين أنواع الحلبي التي شاعت في تلك الفترة نجد: **الخلخال** الذي يعرف في مدينة تلمسان بـ "البريم"؛ وهو عبارة عن حلقة دائرية مفرغة ينتهي طرفاها بشكل رأس ثعبان يزيّن سطحها الخارجي بزخارف نباتية تمثل تفرّيعات وأوراق، وتشتمل على حبيبات من الذهب أو الفضة تحدث رنينا عند المشي،⁽⁴⁾ كذلك هناك الأساور والخواتم والخامسة التي تستعمل للحماية من العين، وغالبا ما تعلّق في العقد، كما توضع أيضا فوق قبّعة الطفل، وتكون على شكل يد، كما نجد الأقراط أيضا والعصابة التي توضع على الجبين؛ تصنع من الذهب أو الفضة المذهّبة، وكذا العقود المملوءة بالجواهر، وهناك عقود من الذهب الخالص،⁽⁵⁾ بحيث تفنّن الصاغة الذي كان جلّهم من اليهود في هذا المجال، ولم يقتصر

¹ _ الونشريسي، المصدر السابق، ج5، ص: 80.

² _ ناهض عبد الرّزاق القيسي، المرجع السابق، ص ص: 84، 85.

³ _ المرجع نفسه، ص: 85.

⁴ _ حنفي عائشة، الحلبي الجزائرية بمدينة الجزائر في العهد العثماني، ج1، SHFAR، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص:

199.

⁵ _ الحياة اليومية في تلمسان، ص: 18.

عملهم على صنع حلي الزينة للنساء فقط، بل اشتغلوا في تزيين السيوف والسروج، وتزيين المصاحف. (1)

ومن الأساليب التي كان تستعمل في صناعة الحلي نجد التزيين بالمينا؛ وهو طلاء زجاجي لامع تزخرف به المعادن، وقد شاع استعمال هذه التقنية في القرن 9هـ/15م؛ بحيث دخلت عن طريق الأندلسيين واليهود إلى المناطق الساحلية كتلمسان، الجزائر وبجاية، ثم انتقلت إلى المدن الداخلية، فالطلاء بالمينا خاصة تميز الحلي في المغرب خاصة الفضة؛ بحيث يقوم الصائغ بتركيب أجزاء الحلي وترصيعها ثم سكب المينا في الأماكن الفارغة ويجفف في الهواء، وبعد أن يجف نوعاً ما يقوم بإدخاله إلى الفرن لإتمام عملية التجفيف النهائية ليظهر لمعانه وشفافيته. (2)

2-3. النحاس:

لقد عرف المغرب الأوسط هذا النوع من الصناعة؛ بحيث كانت هناك ورشات لصناعة الحديد (3) والنحاس، واشتهرت هذه الصناعة عند اليهود، خاصة النحاسية منها، إذ كانوا يصنعون من النحاس الشمعدان الذي يمثّل رمز الحياة عندهم. (4)

ومن بين الزخارف التي ترسم على النحاس هي الأرييسك؛ الذي يتكون من عناصر نباتية وزهرية متشابكة متكررة وغير محدودة، أحيانا تضاف إليها أشكال هندسية كالمربع والمثلث، لتصبح بذلك أشكالا نجمية مزخرفة بطريقة فنية رائعة، فالملاحظ لهاته الزخارف يتذكر الزخرفة الهندسية الموجودة على مآذن مدينة تلمسان. نجد هذا الفن في الأواني النحاسية كالدلاء والقدرور والأباريق،⁵ وكذلك في الثريات التي تستخدم في تزيين المساجد والقصور، والتي كانت تغطى بصفائح نحاسية صغيرة، كتلك الصفائح النحاسية التي كانت تكسو ثروة المسجد الكبير، وهي الآن موجودة في متحف تلمسان، ويرجح أنها راجعة لفترة حكم يغمراسن، وتمثل هذه الآثار موروثا نفيسا، يعكس مدى

¹ _ بلشير عمر، المرجع السابق، ص: 223.

² _ حنفي عائشة، المرجع السابق، ج2، ص: 129.

³ _ الحياة اليومية في تلمسان، ص: 69.

⁴ _ نميش سميرة، دور أهل الدمة بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني من القرن (7هـ/10هـ/13م-16م)، رسالة

ماجستير، إشر: عبدلي لخضر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1435هـ/2014م، ص: 57.

⁵ _ الحياة اليومية في تلمسان، ص: 70.

التطور الذي عرفه الحرفي في المغرب الأوسط خلال القرون الوسطى، متأثراً بلا شك بالفن الأندلسي الذي بلغ العنان آنذاك.⁽¹⁾

3-3. سك النقود:

لقد كان التعامل قديماً في المعاملات التجارية بين الدول يتم عن طريق المقايضة، ومع التطور الملحوظ الذي شهده الإنسان قام باكتشاف العملة، ويعود ذلك إلى القرن 7 قه. وعرفت تغييراً وتطوراً را عبر الزمن،⁽²⁾ ومع ظهور الدعوة الإسلامية أخذت بلا شك سمة الفن الإسلامي، وتطور هذا الفن مع ظهور وتوالي الدول والحضارات.

والمغرب الأوسط من بين الأقطار الإسلامية الذي تعاقبت عليه الدول، عبرت كل دولة عن نفسها بصك العملة ليعكس مدى تطورها، وصولاً بذلك إلى الدولة الزيانية التي لم تخرج عن سابقاتها من الدول في هذا الإطار، بل عرفت ومنذ قيامها ظاهرة سبك النقود من طرف مؤسسها الأول يغمراسن بن زيان.

هذا الذي كان ديناره يزن حوالي 4.2 غ، ومقاساته 30 ملم، ومكتوب عليه بالخط النسخي المغربي عن طريق الحفر البارز كتابتين إحداها مركزية، والأخرى على الأطراف "الكتابة الهامشية" في الوجه والظهر، ففي الوجه كتب في المركز أربع كلمات: "الواحد الله"، "لا إله إلا الله"، "القرآن كلام الله"، و"تلمسان"، والكتابة الموجودة على الأطراف هي أيضاً أربع كلمات: "بسم الله الرحمن الرحيم"، "صلى الله على سيدنا محمد"، و"إلهم إله واحد"، "لا إله إلا الله هو الرحمن الرحيم"، أما التي نقشت على الظهر، فهي تتألف من ثلاثة أسطر: "الشكر لله"، "المنة لله"، و"الحول والقوة بالله".⁽³⁾ فالملاحظ أن الدينار الزياني كان يحمل من وراء الكتابات المنقوشة عليه منحي دينيا، إضافة إلى اسم مدينتهم تلمسان.

ولم يخرج خلفاؤه عن طريقته في النقش على الدينار، إلا ما مسّه من بعض التغييرات المتمثلة في ذكر اسم السلطان، أو ما صاحب الدولة في جانبها السياسي، ومن هؤلاء السلطان أبو حمو موسى الأول الذي اشتملت نقوده هو الآخر على كتابتين مركزية وهامشية، هذلاً الأخيرة التي تضمّنت الآية

¹ _ وليم مرسية، مقتنيات متحف تلمسان، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 54.

² _ معريش كريمة، نقود سلاطين بني زيان وبني مرين من خلال مجموعة المتحف الوطني للآثار، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، إشر: صالح بن قرية، جامعة الجزائر2، 2012م، ص: 2، 3.

³ _ المرجع نفسه، ص: 42، 43.

﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾⁽¹⁾ وتتألف الكتابة المركزية من خمسة أسطر: "بسم الله الرحمن الرحيم"، "صلى الله على محمد وآله"، "لا إله إلا الله"، "محمد رسول الله"، "ما أقرب فرج الله"، وأما على ظهر النقد فمنقوش اسم المدينة: "ضرب بمدينة تلمسان حرسها الله تعالى وأمنها"، أما المركزية منها فتحمل اسم السلطان: "عن أمر عبد الله موسى أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين أيده الله ونصره".⁽²⁾

فمن خلال العبارات المنقوشة على الدينار نلاحظ أن السلطان كان متأثراً بالأوضاع السياسية التي كانت تعيشها المنطقة من اللاإستقرار.

وهناك نموذج آخر للعملة الزيانية ومنها الدينار الذهبي لأبي تاشفين الثاني الذي يحيط به دائرتين الدائرة الداخلية عادية، أما الخارجية فهي على شكل حلقة من الحبيبات المتراسة، ونفس شيء بالنسبة للظهر، واحتوى هذا الدينار كتابة مركزية متكونة من خمسة أسطر متاوزية، وكتابة هامشية تحيط بالحواف الأربعة، ووجدت بها الدوائر الصغيرة تتخلل الكتابة.⁽³⁾

هذا ولم يقتصر الفن الصناعي في المغرب الأوسط على ما تم ذكره بل كانت هناك صناعات أخرى تبين لنا مدى حرفية أصحابها، ومنها الخزازة وتتمثل في خرز الجلود وخياطتها بخيوط من الجلد أو الكتان تستعمل في أغراض مختلفة منها السروج وخاصة الأحذية،⁽⁴⁾ وكذا الوراقة؛ وهي من بين الصناعات التي كانت رائجة خلال تلك الفترة، وهذا راجع إلى الازدهار الثقافي الذي شهده المغرب الأوسط خاصة في العهد الزياني.

وكانت تقوم هاته الصناعة على اختيار النّاسخين من ذوي الخطّ البارع أمثال: أبو عبد الله الأكبر محمد بن أبي بكر بن مرزوق⁽⁵⁾ الذي اشتهر بنسخ القرآن الكريم بنفس طريقة أهل الأندلس في دكّانه بقيسارية تلمسان، وإلى جانب جودة الخطّ اعتنى أصحاب هذه الصنعة بتزيين الكتب بالأشكال الهندسية وتذهيبها؛ أي الكتابة بمعدن مستخلص من الذهب يسمى حبر الذهب، أو ماء

¹ _ سورة البقرة، الآية: 163.

² _ معريش كريمة، المرجع السابق، ص: 45، 46.

³ _ بواشي خديجة نشار، العناصر الزخرفية على المسكوكات المغربية من القرن 10م إلى القرن 14م، Sh'farK، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص: 215.

⁴ _ عاتي لعبي كريم الخزاعي وحارث علي عبد الله، المرجع السابق، ص: 420.

⁵ _ محمد بن أبي بكر بن مرزوق: هو محمد بن أبي بكر بن مرزوق بن الحاج التلمساني، ولد سنة 629هـ، كان فقيها وزاهدا. ينظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص: 226.

الذهب، لذا ففنّ تذهيب الكتب من أسمى الفنون بعد تجويد الخط، ومن بين الكتب التي عُنيت بالتهذيب في تلك الفترة كتاب: "نظم الدر والعقيان" الذي ذهبّت أطر عناوينه، وشجرات النسب التي تضمّنها الكتاب، وكذا نقاط الحروف التي جاءت على شكل أزهار.⁽¹⁾

وعلى الرغم من أنّ المادة العلمية في هذا المجال شحيحة، وخاصة خلال الفترة الوسيطة، إلاّ ما تحصلنا عليه من بعض الشّذرات التي أشارت إليها كتب الحسبة والنوازل، إضافة إلى ما جاء بصفة عامة عن أهمّ الصناعات التي سادت وقتذاك، وكذا بعض الكتابات الحديثة التي تعود إلى الفترة العثمانية، والتي من خلالها تمكنا من رصد بعض التصاميم العامة عن كيفية الرّسم والزّخرفة على مختلف الصناعات اليدوية، وهذا هو ما يهمننا في الأمر.

¹ _ العربي لخضر، صناعة المخطوط في المغرب الأوسط على العهد الزياني، مجلة التراث، ع2، فبراير 2014م، جامعة
الجلقة، ص: 19، 21، 22.

المبحث الثالث: الفنون الصوتية

أولاً: الفن الأدبي:

يعتبر الشعر غرض من الأغراض الأدبية، ولعلّ ابن خلدون يعطينا الفرق الواضح بينه وبين النثر، فالشعر هو الكلام الموزون والمقفى؛ ومعناه أن تكون أوزانه على روّي واحد وهو القافية، وهو أنواع: المدح، الهجاء، الرثاء.⁽¹⁾ أما النثر فهو الكلام غير المقيد بقافية.⁽²⁾ ونحن سوف نقف في دراستنا هذه على الشعر؛ باعتباره جانباً من الجوانب الفنية، ونتبعها بالزجل والموشحات من كونه فرع منه.

1-1. الشعر:

لقد ازدهر الشعر بصفة عامة على العهد الزياني، وعلى وجه الخصوص في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني؛ بحيث كان هو نفسه شاعراً، وإلى جانبه نبغ العديد من الأدباء في نفس المجال.

1. المدح:

المدح من الأغراض الشعرية التي عرفت ازدهاراً كبيراً في هذه الفترة، إن لم نقل احتل المرتبة الأولى بين الأغراض الأخرى، وخاصة إذا ما تعلق الأمر بمدحهم النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو ما

¹ _ عن التفصيل في التعريف بالشعر. ينظر: ابن الخطيب لسان الدين ذي الوزارتين (ت 776هـ/1374م)، ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب، مج1، تح: محمد عبد الله عنان، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ط1، 1400هـ/1980م، ص ص: 26_30.

² _ ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص: 781.

عرف لديهم بشعر المولديات، فكان السلاطين حريصين على إقامتهم ليلة المولد النبوي الشريف،⁽¹⁾ وأولهم أبو حمو موسى هذا، والذي بدوره أوصى بنيه بإقامتها من بعده، حتى أصبحت سنة يقيمونها كل سنة.⁽²⁾

وعليه فقد أورد أبو حمو قصائد كثيرة في مثل هذا الغرض؛ فكان كل عام يجتهد في إنشاء قصيدة جديدة تحتوي نفس الموضوع، ولكن بطريقة مغايرة، ولكن لا يسعنا المجال لذكرها كلها، بل نكتفي بمقتطفات منها، ومن بين ما قاله في مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يلي:

يَعْمُرُ مَكَائِلَ لِيُفْشِعَ - أَتَى فِي رَيْعٍ فَأَحْيَا الْقُلُوبَ
حَوَى كُلُّ أَكْرَمٍ رُبَّ شَهْرٍ مَوْلِدُ بَدْرٍ بَدَّ النَّيْغِيبَ
أَيَّاعَ عَظِيمٍ الْمَكْزَرِ يَلْمُ - جَزِيلُ الْعَطَايَا جَمِيلًا وَهُوَ

.....

سَيَرَحْمَةً لِيُطْعِمَ - فَمَحَا وَمَحَّصَ عَنَّا النُّؤُوبَ
شَّرِيعَةً لِمَنْ مَوَّعَتْ - وَسَنَّ عَلَمَى الْكَافِرِينَ الْحُرُوبَ
شَرْقَ الْأُفُقِ بِمُزَوَّرَا - وَالْبَسَاتِ الْأَرْضُ حُسْنًا قَشِيَا
سَقَاطَ إِيووَاكَ سَهْ - وَكَانَ مِنَ الرُّعْبِ يَلْمَقَى شُعُوبَا
وَأُخْمِرِدَا نَتْ فَارِسَ - قَوْدَ إِخْمَ - سَادُهُ مَا كَانَ أَمْرًا عَجِيبَا⁽³⁾

في هذه الأبيات يحاول السلطان أن يعظم شهر ربيع الأول، باعتباره الشهر الذي ولد فيه أحسن الخلق محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي أنزل رحمة للعالمين، ويبين دوره في إقرار الشريعة الإسلامية وترسيخها لدى المؤمنين، ومحو أثر الكافرين.

ويقول في قصيدة أخرى، ويبين مدى اشتياقه لزيارة قبره - صلى الله عليه وسلم - بالأراضي المقدسة، ويشتكى من الظروف السياسية، وأمور الرعية التي حالت دون نيل مبتغاه، فينظم قصيدة ميمية (جميع أبياتها تنتهي بحرف الميم) قائلا:

¹ - كان عشية كل مولد يفتح قصر المشور أبوابه لاستقبال أقارب السلطان من بني عبد الواد، وكبار رجال الدولة، وحتى عامة

الناس لإحياء هذه الليلة المباركة. ينظر: DJILALI Sari, *Tlemcen la zyanide*, p: 170

² - أبو حمو موسى الثاني (ت 791هـ/1388م)، واسطة السلوك في سياسة الملوك، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، (د.ط)، 1431هـ/2011م، ص: 200.

³ - أبو حمو موسى الثاني، المصدر السابق، ص: 201، 202.

يَتِ وَقَدْ وَقَفُوا بِالْ
وَدَعَوْا إِذْ ذَاكَ لِرَبِّهِمْ
شَتَّى لِقَاءَ بَرْقِ رَجَّتْ
فِي مَغْرِبِهِ يَبْكِي بِدَمٍ
مَسَّانَ دَنَفِ سَحَابٍ
وَالْقَلْبُ رَهْنٌ بِالْحَرَمِ
بَدَنِي مَا قَلَّ لِي
مِنْ أَمْرِ حَكِيمٍ ذِي حَكَمٍ
أَمِيرُ الْخَلْقِ فَوَلَّمَ لِي نَسِي
أَسْطَعُ سَيِّرًا مِنْ أَجْلِهِمْ (1)

وللشاعر محمد بن يوسف الثغري قصيدة نظمها بمناسبة مولد سنة 761هـ/1351م، وسوف نذكر منها بعض الأبيات تشتمل على أهم المعجزات التي خصَّ الله - وجلَّ - بها نبيَّه المعظم محمد - عليه الصلة والسلام - وهذا نصُّها:

رَأَيْتُ إِلَّا مُحَمَّدًا خَدَّاهُ وَمَا جَالَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلَّا هُوَ جَائِلٌ
مُعْجَزَاتِ لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ لَا ظَنُّوا لَهْجِي رَعْلِيَّ هَادِلًا زَلِ
دَهْ الْأَيَّامِ بِمَرْقُوقِ الْجَدِّ لَنَا رَاهُلاً وَحْدَ الْأَصْنَائِلِ
أَشْهَرُ رُبَيْعِ حُزْنٍ بَكْلٍ فَضْلِيَّةٍ تَمَّتْ لَدَيْهِ الْفَضَائِلُ
عَمَلِكَ شَوْفَلَيْتُ لَمَّا أَتَى فَفِيهِ أَبَدٌ أَبَدٌ الْهُدَى وَهُوَ كَامِلٌ (2)

وكذلك السلطان أبو تاشفين الثاني الذي سار على نهج والده في إحياء ليلة المولد النبوي

الشريف، ومنها تلك القصيدة التي جاءت عن الشاعر عبد الله بن يوسف الثغري:

تَذُنُّوبِي وَكَذُنُّوبِي قَدْ أَنْتَرَتْ غِيَّيَ إِذْ تَعَامَيْتُ عَنْ رُشْدِ
لَذُنُّوبِي عِلْمِي لَوْ شِئْتُ شَفَعَهُ الْمَوْلَى فِي شَفْعِ الْفَيْعِ بِدِ
أَحْمَدًا وَمُحَمَّدًا لِي وَأَطْنَبَ فِيهِ الْوَحْيِ بِالْمِوَالِحِ حَمْدِ
سُئِلَ تَحْتَ لَوْنِ لَيْحِي وَقَدْ خَصَّ فَضْلًا دُونَهُمْ بِمِوَالِحِ حَمْدِ (3)

فالشاعر هنا يحاول رجاء الشفاعة من الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ولو كثرت ذنوبه.

¹ - ابن خلدون أبو زكريا يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، تق وتحت وتغ: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2011م ص: 41.

² - المصدر نفسه، ص: 67.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص: 198.

كما أجاد الشعراء آنذاك في مدح السلاطين الزبانيين، فهذا ابن يشث الغرناطي الذي يحاول ذكر مزايا وخصال السلطان أبي حمو موسى الثاني، ودوره في استرجاع ملك الدولة بعدما انمحي أثرها، فيقول:

هه لَذَّةٌ مِّنْ لَّمْ تُؤَلِّمْ طَلَبَهُ وَلَا تَنْعَمَ بِاللُّؤْنِمَ لَافِيهِ لَ
الْأَمَّ سَلَكَ مَخْجَلٌ تَه وَحَلَّ مِّنْ رَّثَبِ الدُّنْيَا أَعَالِيهِ لَ
لَنُكَ بَنِي زِيَوَاللَّهِ ثَلَاثِيَّةً - وَرَدَّ هَادٍ وَلَةَ خَصَّتْ أَهَالِيهِ لَ
سَادٍ وَلَةَ قَلَّ النَّظِيرُ لَهَا كَأَنَّهَا لَمْ تُدْهِ لَ . لَكَفُّ شَانِيهِ لَ (1)

ولابن خميس شاعر تلمسان المعروف قصيدة حائية في وصف المدينة، ومناظرها الخلابة، وهذا نصّها:

حَابُ تِلَالِ الْمَوْسَلِ بَحْ جَادَ تَوَكَّ أَرَأَيْتَ بَوَادِيكَ الرِّيَّاحُ اللُّوْاقِ حُ
الْغَدِيرِ وَقَدْ بَلَطَ لِإِنْسَانٍ عَيْنِي مِّنْ صَفَاهُ صَفَائِحُ
أَمْ سَأُوكَ أَمْ عَيْنِي ؟ عَشَلِيَّةٌ - صَةُ فَيَقْتَمُ سَايَقُ قَوْلِ الْمَا كَاشِحُ (2)

كما يحاول بعض الشعراء، وعلى رأسهم محمد بن أبي جمعة التالاسي مدح مدينة تلمسان، ويربطها بالسلطان أبي حمو، ويبالغ في ذلك فيجعلها جنة به، حتى أنّ القارئ يتصور وكأنّه هو المؤسس الفعلي لها. (3)

وجاء في مدح قرية العباد وصاحبها أبي مدين شعيب على لسان ابن خميس أيضاً:
العُيَّةُ . سَادِ مَنِّي عَتَلَسِي قَةً - كَمَا فَاحَ مِّنْ مَّسْكَ اللِّطِيمَةِ فُحْجُ
الْمَا وَلَوْ فَسَادَ ثَمَّةً سَي تَاجُ تَغْضُ بِهَاتِلِكَ الرَّبِّيْ وَالْأَبَاطِحُ
بَنُ الْحُسَيْنِيَّةِ قُلُوبِي لَبَّ نَزَوَازِعُ لَكَ بِنَ الْجُسُومِ نَوَازِحُ
سَدَّيْ لِي تَغَايِفُهُ لَقَصْرُ فُتْدِي يِيْكَ مَشْكُورٌ وَتَجَرُّكَ رَابِحُ (1)

¹ _ مجهول، زهر البستان، ص: 282.

² _ توات الطاهر، ابن خميس شاعر تلمسان الأكبر، دار الأوطان، الجزائر، ط1، 2011م، ص: 424.

³ _ فيقول في وصفها:

وَهِيَ رَحَى أَفْلٍ فَجَادَ هَادِ صَيِّبَ السَّحَابِ
ذَاتُ حُسْنٍ مَنَظَرُهَا لَمَعُ قَوْلِ سَالِبٍ

بِهِ جَنَّةٌ وَصَارَتْ فِي الْعَرَبِ تَحْمِلُهَا كَاتِبٌ . ينظر: ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ج2، ص: 71.

ومن بين الشعراء الذين برزوا خلال هذه الفترة أيضا ابن الخطيب⁽²⁾ الذي تحدث عن تلمسان

وأهاليها في جلّ مؤلفاته، ومن بين ما جاء عنه في وصف المنقانة:

نَجَدَانِ مُنْقَطَعَتَا مَلِّ الرِّيحِ يَجْرِي وَقَدَّرَهُ عُمَرُ أَمْنِكَ مُنْتَهِيَا
دِي الرَّمْلِ يَلُوكُ لِحْوِذِ كُنَانٍ وَأَمَّا كَانُ كَامِلُهُ وَقَدَّ ذَهَبَ لَـ⁽³⁾

ومن بين الأشياء التي لفتت أنظار الشعراء والأدباء ازدهار العمران بتلمسان، فجعلوه محلّ

اهتمامهم في كتاباتهم، وأبو عبد الله محمد القيسي الأندلسي واحد من هؤلاء الذين برعوا في مجال

الوصف، ومما جاء عنه في ذكر منشآتها:

أَدْنَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ لِبَغْرِ بَهْمَا حَفْلِيلِ أَلَّةٍ لِلْأَصِيلِ فَادْخُلْ
هَذَا بَابَ حَمَلِنِ يَدْبُهَابِ مُتَنَزِّهًا فِي كُلِّ حَفْلٍ أَحْفَلْ
عَدِ الدُّخُولِ هُوْنِيَّةً هَـ وَاعْدَلْ إِلَى قَصْرِ الْإِمَامِ الْأَعْدَلِ⁽⁴⁾

وعليه فقد كان لإحياء ليلة المولد النبوي الشريف أثر كبير في بروز الكثير من الشعراء الذين تميزوا

بأدائهم هذا الفن.

2. الفخر:

يعتبر الفخر من الأغراض الشعرية المعروفة لدى العرب قبل الإسلام،⁽⁵⁾ وقد عرفت انتشارا في المغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط على وجه الخصوص، وبما أنّ الدولة الزيانية كانت تتوسط الدولتين الحفصية والمرينية، فقد أحرزت عليهما انتصارات في فترات محدودة من تاريخها، فوجد الشعراء ولا سيما الملوك سبيلا للافتخار والإشادة بأعمالهم البطولية.

3_ ديب محمد سهيل، الوجوه المجيدة للحضارة الأندلسية بتلمسان، منشورات التفاحات الثلاث، (د.م.ن)، (د.ط)، 1432هـ/2012م، ص: 38.

2_ ابن الخطيب: هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله، يلقب بابن الخطيب، وبلسان الدين، ولد سنة 713هـ، انتقل إلى الأندلس، واستقرّ بغرناطة، وعمل فيها عند بني الأحمر، توفي سنة 776هـ. ينظر: السملالي، المرجع السابق، ج4، ص: 443، 459.

3_ المقرري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج1، ص: 309. مصطفى السّوّاق وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ/1939م، ص: 309.

4_ DJILALI Sari, Tlemcen la zyanide, P: 149.

5_ حاجيات عبد الحميد، أبو هو موسى الزياني "حياته وآثاره"، ص: 278.

ومن هؤلاء السلطان أبو حمو الذي يفتخر بنسبه العربي من جهة، ومن جهة أخرى من كونه

مجدد الدولة بعدما دثرت، ولعل الأبيات التي بين أيدينا توضح ذلك:

ذُو التَّيجَانِ مَوْجِنُ خَوَالِ حَمِيْرٍ لَعَمَ يَجُكُّانَ مَغْلِيَّاتِ الْعَمَامِ
لُعْلِيَّاسِمْ سَوْجُومًا لِيَا الْعُلَا وَكَمَ مِنْ الْعُدَاةِ الْفَيْنِ مَلَا حَمِ
شَدَدَ نَلْمَاهُ لَأَزْرَ أَوْلَكُنْهُمْ كَثُتْ دَهْرًا بَغِيرِ دَعَائِمِ
جَدِّ بَعْنُظْلَفَتْنَلْ شَقْدِهِ وَكَمَ بَاتَ نَهَبًا وَلَهُ شُدُونُ نَاطِمِ
لَمَلِكٍ بَعْدَ رَجْمِ نَحْلِ جَهَامَا فَذَلَّتْ وَقَدْ كَانَتْ صَعَابَ الشَّكَايِمِ
بُزَيْدَ هَانِيْلَقَةٍ مَوْسَى وَيَقْلَةُ - سَاعِيْزَ لَمَلٍ لَهْلُوكِ الْقَمَامِ (1)

فالشاعر في هذه الأبيات يحاول أن يقرن اسم الدولة بأكملها باسمه افتخارا بقيامها على يده،

كما يعبر في قصيدة أخرى لامية عن مدى انتصاراته على أعدائه في الحرب. (2) ويعبر في ميمية

أخرى عن شجاعة فرسانه في ساحة الوغى، ومنها الأبيات الآتية:

هَامَا الْخَيْلُ نَظُّبَالِ الْخَيْلِ فَلَيْ مِثْلَهَا فَكَانَ عَلَيَّ الْأَعْدَاءُ الْهَكَزَائِمِ
حَمَلْنَا رَاغِيْلَيْقَهُمْ خَوْلَةً وَطُشِرَ رَادًا مِثْلَ جَفَلِ النَّعَائِمِ
إلى أن يقول:

أَدِي مَلَالٌ لِهَشَائِمِ مِنْ الْقَوْمِ صَرَّ عَى لِمَنْسُورٍ وَ الْقَشَاعِمِ (3)

وما يمكن قوله عن الفخر بصفة عامة، فيكاد ينحصر فيما أورده هذا السلطان عن نسبه

وانتصاراته على أعدائه المرينيين.

3. الرثاء:

يظهر الرثاء كذلك عند أبي حمو، وذلك أثناء وفاة والده؛ فلم يجد بدا من الشعر ليعبر عن مدى

لوعته وحسرتة على أبيه، والفاجعة التي أصابته، وهذا مطلعها:

قَلْبِي مَكَانَا عَلِيَّيْ فِي الدُّنَا فُلْبَارَ تَحْتِ الثَّرَى فِي لَحْدِهِ أَكْتَنَفَا
لِ نَعْمَ مَا مَدَزْدَمْتَنِي فِي ظ - وَ نَلَمْتُ مِنْ رِفْدِهِ فِي دَهْرِ التُّحَفَا
يَا كَلْبِدْبَ الْيَدِي هَرِي وَالْثِيرِبِي لِي كَلِي فِي نَيْلِ الْعُلَا سِي غُرْفَا

1_ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص: 291.

2_ عن هذه القصيدة. ينظر: حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى حياته وآثاره، ص: 278، 279.

3_ المرجع نفسه، ص: 279.

سِرَّتْ فِي يَتَسَرُّفُهُ إِنْ وَيَسْتَزِيدُ عَلَيَّ الْأَعْدَاءِ بِي صَلَفًا
وَأِنْ رَأَى مَذَامِلَ غُشٍّ سَاهُ مَبْنِيَّ دَوْرَقٍ وَأَضْحَى يَشْتَكِي لَهْفًا (1)

وله قصائد أخرى تدور حول نفس الموضوع، فمرة يلوم الزمان على غدره له الذي أخذ له والده على حين غفلة، ومرة أخرى يرى أن حتى المنازل والديار قد اشتاقت إلى هذا الشخص العزيز عليها، ولكن يطول بنا المجال إلى ذكرها هنا. (2)

4. الهجاء:

من بين الشعراء الذين تميزوا بأدائهم هذا الفن ابن خميس، (3) والذي يحاول في قصائد كثيرة أن يربط مدى شوقه وحنينه إلى مدينة تلمسان (4) بملوكها الزبانيين، والذين في نظره هم السبب في تسلط المرينيين عليها، ومما أورده:

مُورٍ فِي شَقَّةٍ شَدِيدَةٍ نَا فَمَتَّاجِرُكُمْ رِيحٌ وَلَا عَيْشٌ نَارِيخٌ
تَجَرِّي مِنْ صَلَاةٍ جِثْمِهِمْ إِلَى مَ فَرَدَكُمْ التُّعُجْرُفُ وَالْجَمَحُ (5)

وما نلاحظه عن الشعر في هذا المجال بالذات هو أن كتابه قد استخدموه للتعبير عن إنجازاتهم من جهة، وبالمقابل الاستهجان والخط من قيمة الآخرين من جهة ثانية، وما يرد في هذه الأبيات يوضح لنا ذلك أكثر؛ بحيث لمَّا دخل السلطان المريني عبد العزيز (6) إلى تلمسان سنة 1370/772م وجد ثلاثة أبيات من نظم السلطان أبي حمو مكتوبة في إحدى جدرانها، وهي:

لَا لِي سَالِي سَعَكُمَا مِهْنًا لَا وَأَيَّامًا تَسُرُّ رَاطِلَ النَّرِيدِ لَا

1 _ حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى حياته وآثاره، ص: 286، 287.

2 _ للإطلاع على هذه القصائد. ينظر: المرجع نفسه، ص: 287، 288.

3 _ ابن خميس: هو أبو عبد الله محمد عمر بن محمد بن عمر الحجري الرعيني الشهير بابن خميس، كان من كبار المتصوفين والشعراء، ولد بتلمسان سنة 645هـ، ونشأ بها وأخذ العلم عن مشيختها، ثم انتقل إلى سبتة، ومنها إلى الأندلس، وتوفي سنة 708هـ. ينظر: نويهض عادل، المرجع السابق، ص: 135، 136.

4 _ وعن اشتياقه لمدينة وتلمسان يقول:

سَبْرِي عَنْهَا فَلَمْ يَدْعُنِي أَوْ دَعْتُ لِمَلِكِ الْبَطَاحِ لَا

عَنْ رُبْعِهِ فَكَأَنَّ لَهُ النَّأْيَ مَوْصُورًا أَحَدًا. ينظر: توات الطاهر، المرجع السابق، ص: 365.

5 _ توات الطاهر، المرجع السابق، ص: 362.

6 _ عبد العزيز: هو عبد العزيز بن أبي الحسن، يكنى أبا فارس، بويع سنة 767هـ، وتوفي 774م، وكانت دولته ست سنين وأربعة أشهر. ينظر: ابن الأحمر، روضة النسر، ص: 33.

بَنَدَ الْهَاجِجَ لَيْلِيَّ الْمَا لَوْلَا كُنْتُ لَمْ أَنْ بَعْضَ الْوَارِثِينَ
الَّذِينَ خَلَعُوا عَنْهُمْ جَالَا زَ تَرَ كُنْهَ الْيَقْوَمِ أَخْرَيْنَا (1)
فقام عبد العزيز بتغييرها، وكتب مكانها:

لَا لَيْلِيَّ سَهْنًا نَفَاهِينَا وَ أَيْ لَامًا تَسْرُطُ الْتَرِينَا
بَنَدَ هَاجِجًا لَيْلِيَّ شَيْخَ الْمَعَاصِي وَ كُنْتُ لَمْ أَنْ شَالُورُ الْتَرِينَا
السَّيِّئُ فَمَلَعْنَا عَنْهَا جَالَا زَ تَرَ كُنْهَ الْيَقْوَمِ غَالِبِينَ (2)

5. الزهد والتصوف:

وجد طبقة المتصوفة من الشعر وسيلة للتعبير عن أفكارهم في انعزالهم عن الخلق، وتخصيص حياتهم كلها لعبادة الله، وهو ما عرف لديهم بالحب الإلهي، ومن بينهم سيدي أحمد بن أحمد الفاسي الشهير بزروق، (3) ومن نظمه ما يلي:

لَمَقَّ وَطَرًا لِيَّ أَنَّهُ جَهَنَّمُ الْخَلْقَ لَعَلِّي أَرَى مَحَبَّةَ حُبِّ قَلْبِي بِمُقْلَةٍ
بَابِي وَ جَارِي وَ تَحْيَا لَمْ أَصُوحِي تَمَّتْ بَحْلِي وَ اعْتَزَلْتُ عَشِيرَتِي
لَمْذِي فَطَرَّ السَّمَا وَ أَعْرَضْتُ عَنْ أَفْلَاكِهَا الْمُسْتَنِيرَةِ
إلى أن يصل إلى قوله:

أَعْطَيْتُ حَوَاطِلَهُ وَ وَحُزْتُ مَقَامَاتِ الْعُلَمَى الْمُسْتَنِيرَةِ
يَقِ وَ هَانِمًا كُنْزُ عِلْمِي وَ قَلْبُ كَسِيرٍ ثُمَّ سَقَمَ وَ فَاقَقَ
سَرِيعَ بَحْوٍ طَلْفُورَةٍ ثُمَّ أَفْنَادَ أَيْ زَارُوقَ آتِ بِسُرْعَةٍ
لِي إِذَا ذُكِرَ فَكَلِّمْ نَكْرًا بَ وَ كَمْ ثَمَرَةٌ تَجْنِي بِإِفْرَادٍ صَحْبَتِي (4)

¹ _ ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي (ت 807هـ/1405م)، أعلام المغرب والأندلس (نشير الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان)، تح وتقر: محمد رضوان الدايدة، مؤسسة إقرأ، (د.م.ن)، (د.ط)، (د.ت)، ص: 111.

² _ ابن الأحمر، روضة النسر، ص: 56.

³ _ أحمد بن أحمد الفاسي: هو أحمد بن أحمد بن محمد الفاسي الشهير بزروق، ولي صالح زاهد، ولد سنة 846هـ، تعلم على يد الزهوني والمجاصي والمجدولي وغيرهم من العلماء، توفي سنة 899هـ. ينظر: التنبكي، نيل الإبتهاج، ص: 130-132.

⁴ _ ابن مريم، المصدر السابق، ص: 48.

فيحاول الإشارة هنا إلى انعزاله عن الخلق، ومدى تعلقه بالله - سبحانه وتعالى -، إلى جانب الكرامات التي خصّه بها جلّ جلاله -.

ومن الشعراء الذي تركوا بصمتهم في مثل هذا المجال ابن خميس، ومن بين ما أورده:

وَمَـا أَسَفَ عِـلَـالَـهُ شَبَابِي وَشَدِيدُ أَبِي إِلَّا نَصُولُ خَضَابُ
حُلِّ مَنَّهُ بِطَائِلٍ سَوَى مَا خَلَى مِنْ لَوْعَةٍ وَنَصَابِي (1)

فالشاعير بصدق عما ينتابه من شعور، فهو يتأسف على شبابه الذي مضى، ولم يستغلّه فيما ينتفع به في الآخرة.

6. الغزل:

يعتبر الغزل أيضا من الأغراض الشعرية الذي عرف لدى العرب منذ القدم، وهو نوعان: العذري والمالحن، ومن الشعراء الذين اشتهروا في هذا الميدان نجد محمد الحوضي (2) الذي ألّف قصيدة في الغزل يقول فيها:

وَلِـلَّـوَمِ إِنِّي شَدَائِقُ رَقَّ طَبْعِي دُونَ صُنْعِي فِي الْأَزَلِ
سَيِّئَ الْعَهْدِ قَلْبٌ دَنَقُ وَهَوَايَ قَبْلَ لَهْفِي هُ نَزَلِ
دُونَ عِلْمِي عَلَا ذِلَّةٌ - فَيُسَمِّعُنِي صَحْمٌ عَمَّنْ عَذَلِ
أَرَاهُ وَكَأَنَّمَا جَلَّتْ لِي لَوْ عَلِمْتَ الْخَبْلَ مِنْكُمْ هَلْ
قَلْبِي أَمَّ بِالْقَرَوَاعِ فَإِنَّتِ ظَارُ الْوَعْدِ قَرُبَ إِنْ حَصَلَ (3)

فالشاعر يعبر من خلال هذه الأبيات عن مدى شوقه لمحبوته الذي يرجو وصالها بعدما أضنى الفراق فؤاده.

كذلك العفيف التلمساني الذي يشكو مدى لوعته وفراقه عن محبوبته، وأنه لا معنى لحياته من دونها، فيقول: (4)

¹ _ توات الطاهر، المرجع السابق، ص: 440.

² _ محمد الحوضي: هو محمد بن عبد الرحمان الحوضي شاعر وعالم أصولي، توفي سنة 910هـ. ينظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص: 252.

³ _ سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ج1، ص: 80.

⁴ _ العفيف التلمساني: هو سليمان بن علي بن عبد الله بن علي بن ياتين، ولد سنة 620هـ، وتوفي سنة 690هـ، من قبيلة كومية، برع في العديد من العلوم منها النحو، الأدب والفقه. حميش عبد الحق، المرجع السابق، ص: 293.

2_1. الأزجال والموشحات:

وهناك فرق واضح بين الرجل والموشح؛ فالرجل هو عبارة عن شعر يصاغ في شكل فقرات تسمى أبياتا، وتبدأ مقطوعته بيت يسمى المركز أو السمط تليه أغصان تنتهي بقافية واحدة ووزن واحد، ويتكون الغصن من ثلاثة مصاريع أو أكثر، ثمّ يعقبها بيت في نفس وزن المركز وقافيته، وتكون كلماته دارجة.⁽⁵⁾ وأما عن الموشح فيطلق إن صحّ التعبير على المهذب من الرجل؛ أي أنه ينظم بالعربية الفصحى، والموشحة هي نظم تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين؛ أي أنّها تتألف من فقرات تعرف بالأبيات، وكلّ فقرة تتكون من عدد معين من أشطار البيوت في قافية واحدة، وكلّ فقرة تعقبها ما يسمى بالخرجة في بحر أشطار الغصن، ولكن في قافية أخرى، ويلتزم في هذه الخرجة على قافية واحدة في كل خرجات الموشحة، أما الأغصان فقد تكون كل منهما على قافية بشرط أن تكون على بحر واحد.⁽⁶⁾

⁶ آنخل جنثالث بالنشيا، المرجع السابق، ص: 143.

وهناك من الشعراء والأدباء من بلغوا شأوهم في قول الموشحات أمثال: أبو عبد الله بن أبي جمعة

التالسي الذي نظم موشحة بمناسبة المولد النبوي الشريف لسنة 767هـ/1365م، ويقول فيها:

سَعْدَهُ مَنْ يَزَارُ قَبْرَ النَّبِيِّ الْمُسْتَفْصِي
الْمُخْتَارِ مُحَمَّدٍ قَطْبُ الْمَعَالِي وَالْوَفَا
هَ وَفْدٌ مُحَدَّرٌ الْحَلَقِ طَرًّا وَكَفَى
الْقُرْآنِي مُحْكَمٌ وَشَرِّحَهُ وَالسَّيْرُ
فَضْلُهُ الرَّحْمَانَ عَمَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ (1)

ومن بين الذين برعوا في هذا المجال كذلك المولى أبو حمو، والذي له موشحة منها هذه الأبيات:

حُبِّي شَفِيعٌ لِلْمَحْضَيْلِبِ إِنْ وَالْحُسْبُ بَابٌ لِلشَّفَاعَةِ وَالرَّضَى
مَا قَدْ مَضَى لَكَ رُمْتَ الْمَسِيرِ فَلَمْ يُسَاعِدْنِي الْقَضَا
وَلَكُمْ نَشَرْتُ إِلَى الرَّحِيلِ قُلُوعِي
وَفِي قَضَيْتِي عُمْرِي فَيَلْعَبُ بِلَعْلٍ رَغَبٌ فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ
وَالدَّمَعُ مُنْحَدِرٌ كَمَا لِيَ نَبُوعِ (2)

وما يدخل في إطار الموشحات ما يسمى بالتخميس، (3) وأبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري

الأندلسي واحد من الذين اشتهروا في قول التخميسات، ومنها التي نظمها بمناسبة مولد سنة

764هـ/1360م، فيقول في مدح السلطان:

حَمْدُ سَيِّفِ السُّلْطَانِ عَائِدٍ بِهِ نَجْمٌ فِيهِ لَشَنِيَهَاطٍ يَحْمُ
زَالَ بِسَطْوَتِهِ يَسْمُو يَعْفُو وَيَعْفُو وَيَنْتَقِمُ
جَذَلَ مُفْتَلَلَامَتِ مِنْكَ بَخِيرٌ وَلِي وَأَعَدَّتْ لَهُ أَسْنَى الدُّوَلِ
عَادَتٌ لِعَوَائِدِهِ لَوَ الْأَوَائِلِ عَنْ سَاحَتَيْهَا الْعَدَمِ (4)

1 _ المقرئ، أزهار الرياض، ج1، ص ص: 247 - 249.

2 _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج2، ص ص: 120، 121.

3 _ سمي بالتخميس لأن عدد أسماطه خمسة، وهذا ما سبق الإشارة إليه في التعريف بالموشحات. ينظر: ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، ص: 817.

4 _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج2، ص: 124.

وأما عن الزجل فقد ازدهر هو الآخر، وذكره ابن خلدون باسم عروض البلد، إذ انتقل من الأندلس إلى مدن من فاس وتلمسان، واشتهر بها علي ابن المؤذن، فمما جاء عنه في قصيدة يصف فيها رحلة أبي الحسن المريني إلى إفريقية، وهزيمتهم أمام الحفصيين، ويعزّيهم في ذلك، فيقول:

لَكَ خَوْسَطُ بَرِّ الْإِيمَانِ مَرَّالاً وَنَوَاصِيهِمَا فِي كُلِّ وَحْزَةٍ مَانِ
إِنْ طَعَنَ نَهْضُهُ رَأً لَمْ لَدَيْنَا نَعَصَ يَنْدَاهُ عَاقِبَ بِكُلِّ هَوَانِ
إلى أن يقول:

وَمُءَارِيهِ الْإِلَافَ قَلَّ سِتْرَا مَجْهَلُ لَوَامِيْنِ كَانُ وَلَا إِمَّكَانِ
فَإِصْصَ مَوَّيَا وَكَدْسُ وَهْكَي وَكَيْفَ دَخَلُوا مَدَ يَلْقَيْتَهُ رَوَانِ
يَ أَبُ الْحَسَنِ خَطِيبُ الْبَابِ قَضِيَّةُ سَرِيضَا إِلَى تُونُس⁽¹⁾

وما يمكن أن يقال عن الشعر بصفة عامة هو أنه قد ازدهر مع أواخر العصر الوسيط، وخاصة فيما يتعلق بالجانب الديني منه، كما أن جلَّ الشعراء كانوا لا يلتزمون غرضاً واحداً، ففي القصيدة الواحدة نجده يجمع بين فروع المدح، فغالبا ما يبدأ الشاعر بمدح النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم يثني إلى تمجيد السلطان، وذكر أعماله وبطولته، ومنها إلى وصف المدينة وطبيعتها الساحرة، ثم ينتهي إلى الدعاء ورجاء شفاعته -صلى الله عليه وسلم- في خلقه يوم القيامة.

¹ _ ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص ص : 833_836.

ثانياً الفنّ الموسيقي:

تعريف الغناء:

أ. **لغة:** الفعل غنىّ ، وهو التطريب والترنمّ بالكلام الموزون، ويكون مصحوباً بالموسيقى أو بدونها.⁽¹⁾

ب. **اصطلاحاً:** هو تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة عند نهايته يكون نغمة، ثمّ تتألف وتتناسق هذه النغم فيما بينها فيلذّ سماعها.⁽²⁾

¹ _ المعجم الوسيط، ص: 64.

² _ ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص: 534.

وظهر هذا الفن عند مختلف الأمم كالفرس والعجم، وكذا العرب الذين عرفوه قبل الإسلام، حيث كان في البداية عندهم عبارة عن شعرهم¹ أضافوا إليه شيئا من النغم والترنم² وأطلقوا عليه اسم الغناء، وعنه تناقلته الأمم والأجيال، واستمر لديهم حتى بعد ظهور الإسلام، فبرز العديد من الفنانين خاصة مع الفترة العباسية، وأشهرهم إسحاق الموصلي وزرياب، ثم انتقل إلى الأندلس، ومع بداية تراجع الحضارة في الأندلس انتقل إلى المغرب مع الهجرات الأندلسية المتتالية،⁽¹⁾ وتأسست مدرسة أندلسية هناك كان لها الأثر البارز في الحفاظ على هذا التراث الثمين.⁽²⁾

ويرجع تاريخ دخوله للمغرب الأوسط إلى العهد الحمادي، غير أن انتشاره ظل محدودا لا يتعدى بجاية، ومع سقوط الإمارات العربية في الأندلس زاد توافد الهجرات الأندلسية إلى السواحل المغربية، ولا شك في أنها حملت معها الحضارة الأندلسية، ومنها الغناء الذي نتحدث عنه،⁽³⁾ فانتشر بذلك انتشارا واسعا ممتزجا بالموسيقى البربرية والزنجية بحكم الموقع الجغرافي، ومن بين الفئات التي اهتمت بالموسيقى، نجد اليهود الذين توافدوا إلى المغرب عبر مراحل مختلفة من التاريخ، خاصة بعد سقوط قشتالة سنة 1391/794م، حيث برزت شخصيات يهودية لامعة في مجال الغناء في المغرب عموما والمغرب الأوسط بالخصوص،⁽⁴⁾ فامتزج بذلك الفن الأندلسي بالفن المغربي، لهذا نجد أن الفن الجزائري لحد الساعة ذو صبغة أندلسية.⁽⁵⁾

وقد أخذ الملوك الزيانيون على عاتقهم الاهتمام بهذا الفن؛ بحيث عرفت المنطقة آنذاك حفلات غنائية في مختلف المناسبات،⁽⁶⁾ كالختان والمولد النبوي الشريف، وكذا الأعراس التي كانت تقام في النهار على أنغام المزامير والدفوف، ومشاهدة سباق الخيل، وفي الليل تحضر فرق الإنشاد وتقوم الجوّاري بغناء أغاني زنازية والرقص أيضا؛ لذا كانت تجارة الجوّاري المطربات رائجة آنذاك، على الرغم

¹ _ القاضي علي، مفهوم الفن الإسلامي بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، (د.م.ن)، ط1، 1423هـ/2002م، ص: 23. ينظر: ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، ص: 538 - 540.

² _ بوفلاقة سعد، أوراق تلمسانية، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م، ص: 156.

³ _ عزي بوخالفة، تلمسان منارة إشعاع فكري وحضاري، ص: 388.

⁴ _ سعد الله فوزي، صفحات مجهولة من تاريخ الغناء الأندلسي بتلمسان ومدن أخرى، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م، ص: 39، 41، 65.

⁵ _ سفطي أحمد، دراسات في الموسيقى الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1988م، ص: 52.

⁶ _ عزي بوخالفة، تلمسان منارة إشعاع فكري وحضاري، ص: 388.

من نهي الفقهاء عن ذلك،⁽¹⁾ كما كان المغنّون يرافقون السلاطين في خرجاتهم، وهذا ما تحدّث عنه ابن بطّوطة في رحلته، فقال: «يخرج السلطان من ركن من باب القصر [أي المشور]...، ويخرج بين يديه المغنّون بأيديهم قنابر الذهب والفضّة وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد... ثمّ يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر، وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق».⁽²⁾

وعليه فقد كان الغناء من إنشاد الرجال وكذا النساء، ويتضح ذلك من خلال تنديدات العقباني المتكررة حول اجتماعهن في الملهي للغناء والرقص،⁽³⁾ ولعدّى ذلك تلقينهن عن رجل كنّ يذهبن إليه: «قلت وأما ما يقع في بلدنا ووطننا من اجتماعهن على احتفال أو تزويج فيحلّقن دائرة على رجل غير مَحْرَم يهنّ ويطنهن»⁽⁴⁾، كما أشار النميري إلى انتشار ظاهرة الغناء بتلمسان، وبالضبط في مدينة المنصورة عاصمة المرينيين، وكان من قبل الجوّاري اللّائي عبرّ ن عن فرحتهنّ بقدم السلطان أبي عنان.⁽⁵⁾

وعليه فلم يلتزم المجتمع التلمساني بالأخذ بالآراء والفتاوى التي أوردها الفقهاء والعلماء حول تشدّد دهم في تحريم الغناء، وإنّما استقبلوا الغناء الأندلسي بكل رحابة صدر،⁽⁶⁾ لذلك ظهرت أسماء لامعة في مجال الغناء والموسيقى، ومن بينهم عبد الواحد الونشريسي (880_955هـ/ 1475_1548م) الذي كان محبا لهذا النوع من الفن، على الرغم من تشدد والده الفقيه أحمد الونشريسي في موضوع الموسيقى والغناء، ولم يكتف بسماع الموسيقى فحسب، بل تعدّاه إلى تأليف كتاب في مجال الغناء سمّاه: «في الطبائع والطبوع والأصول».⁽⁷⁾

¹ _ بودالية تواتية، وسائل الترويح عن النفس في المغرب الأوسط، مجلة العصور الجديدة، العدد: 14، 15، أكتوبر 1435هـ/2014م، ص ص: 170، 171.

² _ ابن بطّوطة، المصدر السابق، ص ص: 239، 240.

³ _ العقباني، المصدر السابق، ص: 269.

⁴ _ المصدر نفسه، ص: 264.

⁵ _ النميري، المصدر السابق، ص ص: 496، 497.

⁶ _ بوعياذ محمود آغا، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن 9هـ/15م، منشورات شالة، الأبيار (الجزائر)، ط2، 2011م، ص: 86.

⁷ _ سعد الله فوزي، المرجع السابق، ص: 195.

وقد أخذ الغناء الأندلسي عدّة تسميات، فكان بالمغرب الأوسط يعرف باسم غرناطي، أما في المغرب الأقصى فحافظ على تسميته الأصلية الموسيقي الأندلسية.⁽¹⁾

ويتألف كل نوع من هؤلاء من نوبة تدوم حوالي ساعة كاملة مقسّمة إلى مقاطع موسيقية تبدأ بمدخل كتمهيد للموضوع، ويعزف جماعيا وبدون إيقاع، ثمّ يتبعه مقطع موسيقي يسمى بالتوشية (البشراف)؛ والذي يمكن الموسيقيين من الدخول في جو الموسيقى، ثمّ يليه الاستخبار؛ وهنا يرفق الغناء بالعزف دون إيقاع، وبهذا يتمكن المغني من إظهار قدراته الصوتية، وبعد الاستخبار يأتي المصدر؛ وفيه تشترك الفرقة الموسيقية في أداء المقطع، ويكون على إيقاع ثقيل، إما بصوت فردي أو جماعي، يأتي بعده مقطع البلطجي؛ ويكون بإيقاع أخفّ، تليه مرحلة الدرج تعود فيه الفرقة إلى الإيقاع الثقيل، يأتي بعده الانصراف؛ ويكون مصحوبا بالآلة والصوت، والخلاص؛ ويؤدي بإيقاع سريع وراقص.⁽²⁾ واشتهرت هذه النوبات الإيقاعية بتلمسان خلال العصر الوسيط، والتي حافظت على النظام الإيقاعي العباسي.⁽³⁾

وكانت هذه النوبة مقسّمة إلى أربع وعشرين نوبة، لم يصلنا منها إلا اثنا عشر نوبة كاملة، نذكر منها: الرمل، ورمل الماية، الذيل، رصد الذيل، الحسين، المجنب، الغريب، الزيدان، المزموم والرصد، وهناك نوب أخرى ناقصة.⁽⁴⁾

ومن الطبوع الغنائية التي انتشرت ببلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط: الغرناطي، الحوزي والحوفي.

1. الغرناطي:

انتقل هذا النوع من الغناء إلى تلمسان بفعل التبادلات الثقافية بينها وبين غرناطة، وانتشر في بعض مدن المغرب الأوسط، تحت تسميات أخرى، ومنها الصنعة،⁽⁵⁾ ويعتمد على مفهوم النوبة والتي

¹ - الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، 1406هـ/1986م، ص: 264.

² - سعد الله فوزي، المرجع السابق، ص: 27، 28.

³ - ابن قلفايط فيصل، الموسيقى الكلاسيكية في الدول المغاربية "مقاربة تاريخية"، ج1، Editions New Sound، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م، ص: 43، 44.

⁴ - شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ج1، ص: 140.

⁵ - سعد الله فوزي، المرجع السابق، ص: 110.

والتي يقدر عددها بإثني عشر نوبة تستوفي جميع المراحل الإيقاعية، بالإضافة لبعض المقاطع الاختيارية تعزف بشكل فردي أو جماعي.⁽¹⁾

2. الحوزي:

وهو نوع من أنواع الشعر الشعبي، ويطلق عليه في مناطق أخرى "الشعر الملحون" لعدم خضوعه لقواعد الإعراب،⁽²⁾ وشاع هذا النوع من الغناء بتافلات خلال القرن 8هـ/14م، ومنها انتقل إلى تلمسان،⁽³⁾ ويقال أنه ورث عروض البلد الذي ذكرناه سابقاً، وهو غناء بلهجة تلمسان يتناول عدة جوانب من الحياة الاجتماعية، وكذلك الجانب الديني المعروف بـ"الصوفي"، كما تعرض إلى وصف مدينة تلمسان ومناظرها الخلابة.⁽⁴⁾

3. الحوفي:

وهو من بين الأنواع الغنائية التي تمحضت عن الحضارة الأندلسية المغربية، اشتهر خلال القرن 9هـ/15م وهو خاص بالفتيات يتغنين به عند خروجهن للتمتع بالمناظر الطبيعية، ويعبرن من خلاله عن الحب والشكوى، والتشوق إلى الغريب والحبيب.⁽⁵⁾

وتنقسم الآلات الموسيقية المستعملة في الغناء إلى ثلاثة أنواع: الآلات الوترية، والآلات الإيقاعية، وآلات النفخ.

1. الآلات الوترية:

أ- العود: يعتبر من أقدم الآلات الموسيقية بحيث يعود إلى الألفية الثانية قبل الميلاد، أي مع حضارة بلاد ما بين النهرين، وهو نوعان؛ الأول يكون وجهه مصنوع من الجلد؛ شاع عند باقي الأمم

¹ _ بن سنوسي كمال، الطرب الغرناطي بمدينة تلمسان "الشيخ العربي بن صاري أنموذجاً"، موفم لنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص: 40.

² _ أبو مدين شعيب، الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان، تق وتحت وتغ: عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.م.ن)، (د.ط)، 1394هـ/1974م، ص: 15.

³ _ قلفاط أمين ورفال، مدرسة تلمسان "مختارات من الموسيقى الكلاسيكية (مجموعة أشعار وأزجال موسيقى: الصنعة، الحوزي، العروبي، المديح والسماع)"، Editions New Sound، (د.ط)، 2011م، ص: 17.

⁴ _ سعد الله فوزي، المرجع السابق، ص: 131. قلفاط أمين ورفال، المرجع السابق، ص: 17.

⁵ _ بوعيايد محمود آغا، المرجع السابق، ص: 87، 88.

من غير العرب، بينما الثاني يصنع من الخشب (خشب اللوز) وهو العود العربي، وتسمّى به العرب قديماً المَزْهَر، وشكله كمثري؛ أي نصف حبة إحصاء، رأسه مائل إلى خلفه، يتألف من اثني عشر إلى عشرين ضلعاً مغزلياً، له مقبض يقدر طوله بحوالي 25 سم، ومشدّ التنغيم تعلوه دعامة تثبت فيها الأوتار التي كانت من قبل أربعة⁽¹⁾ قبل أن يضيف زرياب الوتر الخامس، هذا ما جعل للعود نغمة حادة بعيدة المدى، ويعزف بقطعة صغيرة من الخشب.⁽²⁾

وقد استعملت هذه الآلة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني في مختلف مدنه، ومنها دلس وهو ما أشار إليه الوزان من خلال قوله: «وهؤلاء السكان [دلس] ذو بشاشة ومرح، يحسنون تقريباً كلهم العزف على العود والفثيار».⁽³⁾

ب- الرباب: هو آلة موسيقية عربية ظهرت منذ القرون الأولى قبل الميلاد، كانت تحتوي على وتر واحد، ثم أصبحت ذات وترين، لتصبح في الأخير بأربعة أوتار،⁽⁴⁾ أما الذي دخل إلى المغرب فهو الرباب ذو الوترين، وكان ذلك مع بداية القرن 6هـ/12م عن طريق الأندلسيين الوافدين إلى المنطقة.⁽⁵⁾

يصنع الرباب من الحطب المجفف المنحوت من الوسط، وهذا ما يعطي تموّجاً في الصوت، يغطّي الجزء العلوي منه بنحاس أصفر، أما السفلي فيغطّي بجلد رقيق، ويثبت على سطحه وتران أحدهما غليظ ويسمى "الذكر"، أما الثاني رقيق ويدعى "الأنثى"، يعزف عليه بشعرٍ من ذيل الحصان يثبت

¹ _ بن سنوسي كمال، المرجع السابق، ص: 86.88.

² _ القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، صبح الأعشى، ج2، المطبعة الأميرية، القاهرة، (د.ط)، 1333هـ/1915م، ص: 143. بن عبد الحليل عبد العزيز، الموسيقى الأندلسية المغربية، عالم المعرفة، الكويت، (د.ط)، 1988م، ص: 221.

³ _ الوزان الحسن، المصدر السابق، ج2، ص: 42. شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 64.

⁴ _ بن سنوسي كمال، المرجع السابق، ص: 115.

⁵ _ سعد الله فوزي، المرجع السابق، ص: 119.

في طرفي قوس،⁽¹⁾ مهمة هاته الآلة دعم النظام الإيقاعي للفرقة الموسيقية له صوت أبح يشعر بالمتعة.⁽²⁾

ج- القانون: يعود تواجده إلى حضارة مابين النهرين، عرفه العرب في القرن 10م، وانتقل من الأندلس إلى المغرب وسائر البلدان الأوربية في القرن 12م.

يتكون القانون في المغرب من عدة أجزاء نذكر منها: الصندوق المصوت؛ وشكله شبه منحرف،⁽³⁾ يتراوح طول قاعدته الكبرى ما بين المتر و75سم، وعرضه حوالي 44سم، وسمكه 10سم، أما قاعدته الصغرى فتسمى القبلة،⁽⁴⁾ يوضع على سطح الجهاز أوتار مشدودة في رأس الآلة؛⁽⁵⁾ أي على ما يطلق عليه اسم مسطرة الملاوي؛ وهي مسطرة خشبية تلتصق بالصندوق وتحتوي على ثمانية وسبعون ثقباً، والملاوي هو تلك القطع الخشبية الأسطوانية الشكل، بها الثقوب التي تثبت عليها الأوتار، وهنالك أيضاً ما يعرف بالأنف؛ وهو قضيب خشبي مثبت فوق مكان اتصال الصندوق المصوت بمسطرة الملاوي، لعدة حزر تمر من خلالها مجموعات، كل مجموعة على ثلاثة أوتار، أما الرقبة؛ فهي إطار خشبي مجزأ إلى أربعة أو خمسة أجزاء، كل جزء منها يسمى الكيلة يشد عليها الجلد من أجل تضخيم الصوت.

هذا وهناك مكونات أخرى⁽⁶⁾ لهذه الآلة.⁽⁷⁾ وعند العزف على القانون يشد العازف على يديه يديه حلقتين من النحاس أو فضة مثبت عليهما ريشتان، وهكذا يكون العزف باستعمال كلتا اليدين، ويخجل للسامع أنه يستمع لآلتين معا.⁽⁸⁾

¹ _ الغوثي أبو علي محمد، كتاب كشف القناع عن آلات السماع، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 1995م، ص: 201، 203.

² _ سعد الله فوزي، المرجع السابق، ص: 119. زغيب سميرة، المؤلف من الأندلس إلى قسنطينة النشأة والخصوصيات، دار مداد بيونيفارسييتي براس، قسنطينة، ط1، 2009م، ص: 163.

³ _ أما ابن خلدون فيقول أنه مربع الشكل أجوف، ربما تكون آلة القانون التي شاعت في المغرب آنذاك تختلف بشكل بسيط نوعاً ما عن القانون في عصرنا الحالي. ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص: 535.

⁴ _ بن سنوسي كمال، المرجع السابق، ص: 122، 123.

⁵ _ ابن خلدون، المقدمة، ص: 535.

⁶ _ ومنها الشمسية، العُرب، الركيزة والإستبان. ينظر: بن سنوسي كمال، المرجع السابق، ص: 124.

⁷ _ المرجع نفسه، ص: 123.

⁸ _ زغيب سميرة، المرجع السابق، ص: 164، 165.

وفي الجمل يمكننا القول أنه من أجمل الآلات الموسيقية التي حظيت بشعبية واسعة سواء عند العرب عامة أو سكان المغرب بصفة خاصة وهذا طبعا لروعة الصوت المتناغم، الذي تنفرد به هاته الآلة.

2. آلات النفخ:

أ- المزمارة: هو من الآلات الموسيقية التي تعتمد على النفخ في قصبة مجوّفة منحوتة من الجانبين، ويسمى أيضا الزلامي، ينفخ فيها بقصبة صغيرة،⁽¹⁾ وله سبعة ثقوب⁽²⁾ أو ثمانية، تغلق هاته الثقوب وتفتح بالأصابع بعد نفخ الهواء فيها، وهذا ما يعطي نغم موسيقي.

ب- الناي: ويسمى الجواق أو الفحل، مصنوع من الخشب أجوف له أبخاش معينة، يعزف عليه بوضعه على الفم بشكل مائل بعيدا قليلا عن الشفتين.⁽³⁾

ج- الشبّابة: وهي تشبه إلى حد كبير المزمارة⁽⁴⁾ أو الناي، وتسمى بالقصبة لأنها تصنع من القصب، ولها سبعة ثقوب، وهي الأخرى يتم العزف عليها عن الطريق النفخ وإغلاق الأمشاج وفتحها.⁽⁵⁾

د- البوق: يصنع من النحاس يكون أجوف يبلغ طوله حوالي ذراع، يحتوي هو الآخر على ثقوب، ويتم العزف عليه مثل المزمارة والشبّابة.⁽⁶⁾

3. الآلات الإيقاعية:

أ- الطار:⁽⁷⁾ وهو دائرة خشبية تغطّى من جهة بجلد رقيق، وعلى حوافّ الدائرة نجد قطع معدنية صغيرة دائرية الشكل مصنوعة من النحاس.

¹ _ ابن خلدون، المقدمة، ص: 535.

² _ سعد الله فوزي، المرجع السابق، ص: 120.

³ _ زغبب سميرة، المرجع السابق، ص: 166.

⁴ _ ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، ص: 535.

⁵ _ الغوثي أبو علي محمد، المرجع السابق، ص: 209.

⁶ _ ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، ص: 535.

⁷ _ يسمى في تلمسان بالخشخاش، لكن لا ندري فيما إذا كانت هاته التسمية قديمة أو حديثة. ينظر: زغبب سميرة، المرجع السابق، ص: 166.

وهو ذو أصل فارسي دخل إلى المغرب عن طريق الهجرة الأندلسية مع أواخر القرون الوسطى. أما طريقة استعماله فيتم القرع عليها بيد واليد الأخرى تقوم بهز الطار⁽¹⁾ وتدويره، لذا يتطلب أن يكون صغير الحجم و خفيف الوزن، وهذا التدوير يتطلب مرونة ومهارة.⁽²⁾

ب- الطبل: يعتبر من أقدم الآلات الإيقاعية، وهو على شكل صندوق خشبي أسطواني الشكل، يصنع من خشب الزان، تغطيه من الجهتين جلدتين مربوطتين ببعضهما عن طريق رباط يدور على كافة الطبل، يكون استعماله بتعليقه على الكتف، ويقرّع على الجلد بواسطة مطرقة أو قضيب مقوّس⁽³⁾

كان ملوك الدول يستعملونه للتبليغ عن خبر يهيم الدولة أو الخليفة أو المجتمع بصفة عامة، واشتهر خلال العهد الزياني، فتحدث عنه يحيى بن خلدون في عهد السلطان أبي حمو الأول فقال : «وفي سنة عشر وسبعمئة شرق فنزل تفرجينت من وطن تجين فأطاعوه عن آخرهم، فأخذ مراهينهم وأعطى إرث ملكهم للحشم من قبيلهم سياسة فرقت بين فصلتين إلى آخر الدهر، واستعمل فيهم يوسف بن حيان الهواري، وأعطاه الطبل والبند، واستعمل علجه مسامحا بشلف وبلاد مغراوة بالطبل والبند أيضا».⁽⁴⁾

ج- الدف: وهو آلة مصنوعة من غشاءين من جلد الماعز، مشدودين ببعضهما إما بمسامير أو خيط، اشتهر بالأندلس ثم دخل إلى المغربين الأوسط والأقصى.⁽⁵⁾

وبصفة عامة فقد أشار العقباني إلى بعض هذه الآلات، وهو دليل على تواجدها بتلمسان في عهده، ومنها:البوق، العود الكبير، الكير، المزمار والدفّ، وأورد الخلاف بين العلماء حول إجازتها أو مكروية استعمالها في الأعراس.⁽⁶⁾

¹ _ الغوثي أبو علي محمد، المرجع السابق، ص: 211.

² _ زغب سميّة، المرجع السابق، ص: 166.

³ _ بملول إبراهيم، الآلات الموسيقية التقليدية في الجزائر، تس: عثمان تاجنانت، دار الخلدونية، الجزائر، (د.ط)، 2007م، ص: 66.

⁴ _ ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، مج1، ص: 128.

⁵ _ بملول إبراهيم، المرجع السابق، ص: 72.

⁶ _ العقباني، المصدر السابق، ص ص: 241، 242.

ورغم أننا لم نعثر على قصائد غنائية تعود إلى العهد الزياني، إلا أننا من خلال ما وجدناه في الكتابات نستنتج أن أبا مدين شعيب هو واحد من هؤلاء البارعين في هذا المجال، ويعود إلى أواخر القرن 6هـ/12م، ومن بين ما أورده:

أَلْحَسْبُ أَعْلَى الْخَطِّ بَابَ لَأْفِي نَكَقَاءَ الْأَحْبَابِ فِيهِ مَنَافِعُ
رَّةَ الْعَيْنِ نَدْلَيْنَ نَاقَتُ اللَّهِ إِنْ دَنِي عَمَلِي عَهْدُكُمْ بِالْوَفِيِّ طَامِعُ
يَبَ الْحَيِّ عَمِيَّتِي تَبْرَأَ عَكُمْ وَأَسْمُوعُ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلِ نَدَاكُمْ
يَدُ اشْتِيَا قِي كَلَّمَ مَرَّ ذَكَرْ جُكُمُ ذَكَرَ أَهْلَ الْغَيْرِ حِينَ يَزِيدُ
تِ إِلَّا فِي الْفَهْمِ وَأَنْ. إِنْ. لَأ. مَغِيْبُكَ عَنْ عَمِيَّ عَمَلِي شَدِيدُ
وَطَرَفِي وَمُوسَمُكُمْ عَقْلًا وَرُوحِي وَأَحْشَاءِي وَكُلِّي بِأَجْمَعِي
فِي بَدْوَيْتِي تِلْكَ كُمْ وَلَمْ لَأَدْرِي بِحَرْفِ الْيُونِ مَوْضِعِي
وَنِي لَأَوُصُوحُ تَبْرَأَ كُمْ فَبَاحَ بِمِ الْخَفْفِضِ أَدْمُوعِي
طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرْبَتْ كَرُ لَأَلَامٌ وَغَرْبُونَ بَيْنَ أَنْفَاسِي
عَ قَوُومًا أَحْجَلْتُ هُمُ إِلَّا وَكُنْتُ الْحَدِيثَ بَيْنَ حُلَا سِي
وَلَا شَرِبْتُ لَنْطِيشِ الْمَاءِ إِمْلَانُ رَعَايَتُ خِيَالِ الْوَجْهِ فِي الْكَاسِ (1)

فأبو مدين من خلال هذه القصيدة يشكو وصال محبوبه، ويعبر عن اشتياقه له، ويرجو لقاءه بفارغ الصبر.

ومن بين الذين اشتهروا في مجال الغناء خلال العصر الوسيط نجد ابن خفاجة (576-631هـ/ 1180-1234م)، أبو الحسن الششتري (608-667هـ/ 1212-1269م)، ولسان الدين بن الخطيب (713-775هـ/ 1313-1374)، (2) ومن بين القصائد المدونة عن الششتري قوله المأثور:

لَأَحْبَبُوبُ عَنْ قَلْبِي الْغَطَا وَتَجَلَّى جَهْرَ قِي مِلْنِي
سَنَّهُ غَيْرِي وَيَلْمُ هَادِي بَقِ الدَّيْرِ سَوَى الْمَشْهُودِ فِي
سِي عَنِّي حَجَّ كَابِجًا كُنْتُ تَهْ وَتَلَا شَى الْكَوْضُ نَاجِ الْبَدِي
مَ سَابَدَا إِلَّا أَيْ حَسَنٌ قَدْ طَوَى الْعَقْلُ مَعَ الْكُونِ طِي

1 - سري سيد أحمد، الطرب الأندلسي "مجموعة أشعار وأزجال موسيقى الصنعة"، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2007م،

ص: 3، 4.

2 - ابن قلفاط، المرجع السابق، ص: 52.

شَيْءٌ سَاوٍ وَحَرَكَلَى الْأَشْيَاءَ بَلْ رَأَى الْوَاحِدُ وَتَرَّادُونَ شَيْءٌ (1)

فمن خلال هذه القصيدة نستنتج أن الشاعر يعدّ د محاسن محبوبه، فبمجرد لقائه ذهب عنه الكرب الذي كان به.

هذا وهناك بعض القصائد كانت تقال باللغة العامية، وهي من الأغاني التراثية التي تتناول كغيرها من القصائد مواضيع مختلفة، وأغراض أخرى متعدّدة، ولكن لا نعرف إلى أي فترة تعود، وربما كانت متداولة خلال العهد الزياني، ومنها تلك التي تتضمن الحديث عن المدينة تلمسان، وهي كالاتي:

أَقِيَّةٌ بِأَبِ الْجِيَادِ فِي الصَّيْفِ مَا أَحْلَاهَا
كَبِيَّةٌ خَدَايَ الْحَبِيبِ فِي السَّرِّجِ مَا أَعْلَاهَا
كَلِمَةُ خَدَايَ الْحَبِيبِ فِي السُّوقِ مَا أَعْلَاهَا
تَخْلَمُحَ السُّعْقُومُولَانَ كَيْ يَقُولَ أَهْلًا (2)

فصاحب هذه القصيدة يتغنى بمدح المدينة، وما تزخر به من آثار.

كما تناولت هذه القصائد مختلف المواضيع الاجتماعية، فمن خلالها يشكو القائل ما يعيشه من

مشاكل وهموم في حياته، ومنها هذه التي بين أيدينا:

دَاشْ نَصْبَ رِقْوَةٍ قَتَاشْ نَكُونُ هَانِي
سَامْ طَالَتْ وَأَنَالَ خَبْرُ مَا جَانِي
صَابَرُ نَسْتَنَّاكَ بَلَاكَ تَنْسَ سَانِي (3)

وبهذا نستنتج أن الغناء بالمغرب الإسلامي كان أندلسيا بنسبة كبيرة، وانتشر في كامل ربوعه، ومنها المغرب الأوسط الذي عرف عدة طبوع غنائية عُرفَت مع الهجرات الأندلسية إلى السواحل المغربية.

وقد اهتم سكان المغرب بالموسيقى والغناء والرقص، خاصة في المناسبات الاجتماعية كالأعراس والختان، و الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وغيرها، باعتبارها وسيلة للتعبير عن الفرح وكذا الترفيه عن النفس، هذا ما أدى بالضرورة إلى انتشار العديد من الآلات الموسيقية، ومجالس اللهو، على الرغم

¹ _ قلفاط أمين وروفال، المرجع السابق، ص: 239.

² _ عدو غزلان، تلمسان أغاني ومعاني، منشورات أمال، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م، ص: 43.

³ _ عدو غزلان، المرجع السابق، ص: 42.

من موقف الشريعة الإسلامية الواضح تجاه هاته الأمور، والتي يمكننا القول أنها خرجت عن ما هو جائز.

خلاصة:

لقد كانت حقبة الدولة الزيانية حقبة تطور حضاري للمغرب الأوسط، على الرغم من الظروف السياسية المضطربة، التي عرفت المنطقة آنذاك، والشواهد المعمارية بما اكتنفها من زخرفة، وتصميم معماري فني يثلج الصدر لخير دليل على ذلك، فعندما يجتمع الفن الإسلامي الأندلسي والفن البربري، يخلص لنا فنا إبداعيا، يستحق منا الوقوف عليه.

ولم يتوقف التميز الزياني عند هذا الحد، بل نراه أيضا في المجال الصناعي، بحيث تعددت الحرف والصنائع من خزف وفخار وتليين للمعادن، وكذا النسيج، التي أحبها أصحابها وسعوا لإتقانها، فإتقان العمل من الأمور المهمة التي تدعو إليه الشريعة الإسلامية، لذا نجد الحرفي في العصور الوسطى قد تفنن في مصنوعاته، فأعطى لنا تحفا فنية لم تنزل إلى الآن تنافس ما بلغت إليه الحداثة في مجال الصناعة، ومن ذلك لباس الكراكو، وحتى بعض الحلي التقليدية التي لاتزال تحافظ على بعض لمسات ذلك العصر.

وعندما نتحدث عن الفن الصناعي، فهذا لا يختلف كثيرا عن فن الصناعة اللفظية، والمتمثل في الأدب بشقيه الشعر والنثر، الذي شغل حيزا مهما في تلك الفترة، وهذا ما أدى إلى ظهور نخبة من الشعراء أثبتوا جدارتهم في قول الشعر بمختلف أغراضه ولا سيما مدح الرسول _ صلى الله عليه وسلم _، وهذا راجع لانتشار التصوف آنذاك، كما دخلت الموشحات والأزجال التي تعتبر فنا أندلسيا خالصا عن طريق المهاجرين الأندلسيين، وشاعت الموسيقى والغناء في كل ربوع المغرب، وظهرت العديد من الآلات الموسيقية، كالعود والقانون والرباب وغيرها من الآلات المشرقية.

هذه هي الفنون في المغرب الأوسط خلال القرون الوسطى، فهل مجتمعا الآن يعي تماما المعنى الحقيقي للفن؟ وهل هذا الفن مازال محافظا على معانيه السامية؟ أم أصبح محصورا بين الرقص والغناء؟

خاتمة

من خلال ما سبق التطرق إليه يمكننا القول أن الدولة الزيانية من الناحية السياسية عاشت ظروفًا صعبة؛ إذ أنها كانت تتوسط قوتين تكالبتا عليها بالغزو المتكرر، ورغم ذلك عمّرت أكثر من ثلاثة قرون، وهذا راجع إلى عدّة أسباب أولها العامل الطبيعي؛ والمتمثل في حصانة المنطقة وموقعها الجغرافي المتميز عن غيرها، وكذلك إصرار ملوكها على النهوض بدولتهم، على الرغم من أنها فلتت من أيديهم أكثر من مرّة، إلى جانب الازدهار الذي شهدته في المجال الاقتصادي؛ الأمر الذي جعلها تواجه الحصار المربني لمدة ثماني سنين.

فرغم الظروف السياسية غير المستقرة التي طالما رافقتها طيلة فترة تواجدها، إلا أنها أعطت الجانب الحضاري حقّه من الاهتمام، وإذا اعتبرنا أن الدولة الزيانية شهدت تطورًا ملحوظًا في المجال الحضاري بصفة عامة، فهذا مما ينعكس إيجابًا على الجانب المعماري فإلى اللذين يعتبران جزءًا لا يتجزأً منه والجانب المعماري بدوره واسع المجال، فيشمل بذلك أهمّ المدن التي كانت تابعة للدولة، والتي نجدها قد فاقت العشرين مدينة، اكتفينا بتلمسان قاعدة المغرب الأوسط، وعاصمة ملك الزيانيين، إلى جانب بعض المدن التي كانت تابعة لها، وركزنا اهتمامنا على التي شهدت تطورًا في المجالين الفني والمعماري، وخاصة على العهد الزياني، ومن الملاحظ أنه لم تكن المدن الداخلة في إطارها كلها زيانية، بل أن منها ما تشهد على حضارة المربنيين وتاريخهم هناك، وأبرز دليل على ذلك مدينة المنصورة التي توفرت على كامل عناصر المدينة الإسلامية، ولا تزال شاهقة بأطلالها، ومركزًا سياحيًا للزوار.

وفيما يدخل في إطار المنشآت المدنية فإلى جانب المدن نجد الدور التي اتخذها الإنسان للوقاية من قساوة الطبيعة، والمتمثلة في المنازل والقصور، وقد توزعت هذه المساكن حسب الطبقات الاجتماعية، وكذا المستوى المادي لكل عائلة، فنجد الملوك والوزراء وأرباب الدولة قد اتخذوا القصور الأنيقة مساكن لهم، وهذا حسب وظيفة كل فرد في البيت الحاكم، فقد كانت قصور الملوك أكثر فخامة وفنا عن بقية قصور مختلف رجال الدولة.

أما الطبقات الاجتماعية الأخرى، فأغلبها ينتمي إلى طبقة العامة، والتي كانت تتخذ من البيوت مسكنًا لها، وحتى هذا إنما متوقف على المستوى المعيشي لكل منها، فقد كانت مساكن الميسوري الحال منها واسعة، وربما تتألف من أكثر من طابق، بينما البسطاء منهم كان بيته لا يتعدى الغرفة الواحدة أو الاثنين، كما اتخذت بعض البقائل منها الخيام كمأوى لها.

كما لا ننسى الحمامات، بحيث عرفت الدولة الزيانية عدة حمامات منها ما هو راجع لفترات سابقة عنها، وامتدّ حتى إلى عهدها، ومنها ما كان حديث العهد بها. بالإضافة إلى الفنادق، فمن كون أن الدولة الزيانية قد عرفت رواجاً في المجال التجاري، وكانت من الدول المتعاملة معها الأوربية، فقد قامت ببناء فنادق لهؤلاء التجار والقناصل وغيرها، ولم تكن الفنادق خاصة بالأجانب فقط، بل أن منها ما هو خاص بالسكان المحليين.

ولعل الشيء المميز هنا هو أن العمران بالمغرب الأوسط على العهد الزياني قد زاد عمّا كان عليه في الدويلات السابقة، لا من حيث العدد، ولا من حيث الفن، حتى أصبح من المنجزات الشائعة في المغرب الإسلامي ككل وحتى في المشرق، وخاصة الدينية منها من المساجد، الزوايا والكتاتيب، وقد أدّت هذه المؤسسات إلى جانب مهمتها الدينية دوراً بالغاً في تطوير الجانب الفكري، إلى جانب المدارس التي لا تقل أهمية عنهم؛ كانت تلمسان حاضرة علمية، ساهمت في تخريج الكثير من العلماء، مما انعكس إيجاباً على ازدهار العمران بها، ولم يقتصر الجانب الديني على المساجد فحسب، بل تعداه إلى الأضرحة؛ بحيث بلغت مكانة الأولياء الصالحين والعلماء مكانة هامة لدى الخلفاء الزيانيين وحتى المرينيين، فقاموا ببناء أضرحة على قبورهم، واتخذت مزارات للتبرك بها، وهي عادة علفت بالمتجمع منذ القديم، ولا زالت حتى الآن.

والشيء الملاحظ هنا هو تأثير الملوك الزيانيين بالفن الأندلسي، لا في البناء والتشييد، ولا في الزخرفة، كما أن هذه المنجزات لم تكن كلها من طرف بني زيان، فحتى المرينيين ساهموا في تطوير تلمسان، وما أتيح لهم من المناطق أثناء دخولهم المغرب الأوسط، فهناك الكثير من المنجزات تحمل بصمتهم هناك.

وإذا صرّحنا بالقول أن الدولة الزيانية عاشت في عداء مستمرّ مع جيرانها من الشرق والغرب، فإنّ هذا ما يستلزم منهم تحصين منطقتهم، وبالفعل ساهموا في تزويدها بكافة المنشآت العسكرية من الأسوار التي كان غالباً ما يتبعها بناء الأبواب، وهذا ما ينطبق أيضاً على الأبراج. كذلك الحصون والقلاع التي كانت تقام عند إخضاعهم لمنطقة معينة، فرغم التخريب الذي شهدته هذه المنشآت من قبل المرينيين خاصة، إلا أن هذا لم يزدحم إلا إصراراً على التشييد المحكم لهاته المنشآت، وتجديدها بعد أفولها العديد من المرات.

أما ما يدخل في إطار الجانب العمراني، ولم نجد من المؤرخين إشارات لذلك فهي المستشفيات أو ما عرف خلال العصر الوسيط بالبيماريستانات، فمن غير المعقول أن تكون دولة بهذه الفخامة، ولم يكن من اهتمامها ما يتعلق بهذا المجال، خاصة وإذا اعتبرنا أن هذه الدولة عرفت الحروب متواصلة، فهي بذلك تحتاج إلى مراكز مثل هذه للتداوي ومعالجة المصابين من أثر الحروب.

أما عن الجانب الفني فيتفرع إلى عدة تخصصات، أولها ما اندرج في إطارها ما هو خاص بالفن المعماري، وما تضمّنته عن الزخرفة بتفرعاتها: وما هو أهم في موضوعنا، وهو ما يربط بين جزئي الموضوع العمارة والفن، ويتمثل في الزخرفة المعمارية بأنواعها الثلاثة: النباتية، الهندسية والكتائية، وهي الزخارف التي قام الفنان المعماري بتنفيذها على المنشآت المعمارية من المساجد، المدارس، القصور وغيرها من المنشآت، والتي تأثرت فيها الزبانيون تأثرا بالغا بالأندلسيين، فقد أضاف هؤلاء كثيرا إلى الخبرة التلمسانية، ولهذا استعان بهم الخلفاء في العمارة والتشييد.

أما ما يتعلق بالجانب الصناعي من الفن فيمكن في صناعة الفخار والنسيج، وكذا الحلبي والمعادن، فقد ازدهرت كلها خلال العصر الوسيط، ولكن نحن ما يهمنا في الأمر هو زخرفة هذه المنتجات سواء تلك التي يستعملها الإنسان للترزين بها، أو لمختلف الأغراض في حياته اليومية، خاصة الحلبي التي تفنن الصائغ في ترزينها، و حتى الملابس قد أبدع الخياطون في تفصيلها، وفي بعض الأحيان تطرز بالذهب، وفي الغالب تكون لباس الملوك والأميرات، وهذا ازدهرت العديد من الصناعات التي عبرت عن معنى الإبداع الحقيقي للحرفي في ذلك العصر ومنها صناعة المعادن وزخرفتها بما في ذلك النحاس الذي صنعت منه الثريات المستعملة في المساجد والقصور، وكذا الوراقة وما يتبعها من تحسين للخط وزخرفة للكتب.

ومما هو ملاحظ بصفة عامة هو التطور الذي بلغه بنو زيان في مجال العمران، وما تميّزوا به من إبداع فني، وحتى المربين لا يقلوا عنهم أيّ شيء في ذلك، فكلّا منهم تأثر بالحضارة الأندلسية، لذا لم تختلف منشآتهم كثيرا، إلا في بعض النقاط، التي تظهر جليا من خلال منجزات كلا الطرفين وبالأخص الدينية منها، التي إن صح القول اقتصرت على مدينة تلمسان وبعض المناطق المجاورة، خاصة الدولة الزبانية، التي عرفت اتساعا في رقعتها الجغرافية أحيانا كثيرة، لكن لم يحرص سلاطينها على التعمير خارج العاصمة، فأغلب المنشآت التي أقاموها على الحدود الشرقية كانت ذو طابع عسكري المهدف منها إحكام السيطرة على المنطقة.

كما يعتبر ولا شك الجانب الأدبي من الجوانب الفنية الراقية، والتي بلغ فيه العلماء والشعراء مبلغهم، فكان بعض خلفاء الدولة شعراء، ساهموا في إنماء الجانب اللغوي فيها، هذا إلى جانب شعراء آخرين، منهم ذوي أصل أندلسي، ومنهم المحليون، برعوا جميعهم، بحيث تعددت الأغراض الشعرية، فمنها: الشعر الديني؛ وهو أكثر الأغراض ازدهارا في هذه الفترة على وجه الخصوص، بحيث عرف الزبانيون ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي، وذلك منذ عهد أبي حمو الثاني.

ثم تليها الجوانب الأخرى من المدح؛ الذي تجلّى خاصة في التغني بالمنطقة تلمسان وجمال مناظرها الطبيعية، هذا إلى جانب مدح سلاطينها الذين ساهموا بكل ما في وسعهم من أجل استرجاع مدينتهم، خاصة بعدما فقدوها أكثر من مرة. أما الفخر فلا يخرج عن إطار إبراز السلطان أبي حمو لما قام به من مساهمته في إعادة إحياء الأثر الزباني بعدما انمحي من المنطقة. أما الهجاء فيمكن مما كان من قبل أعدائهم المرينيين الذين يعتبرون سقوطهم ليس قدرا، وإنما ضعفا منهم، كما يتجلى ذلك عند ابن خميس الذي يعبر^{١٢} عن شوقه وحنينه لمدينة تلمسان بعتابه لملوكها الزبانيين، كما عرف الغزل أيضا، بحيث وجد بعض الأشخاص كانوا يعبر^{١٣}ون عن اشتياقهم إلى من يحبون، ويشكون بعدهم عن طريق الشعر.

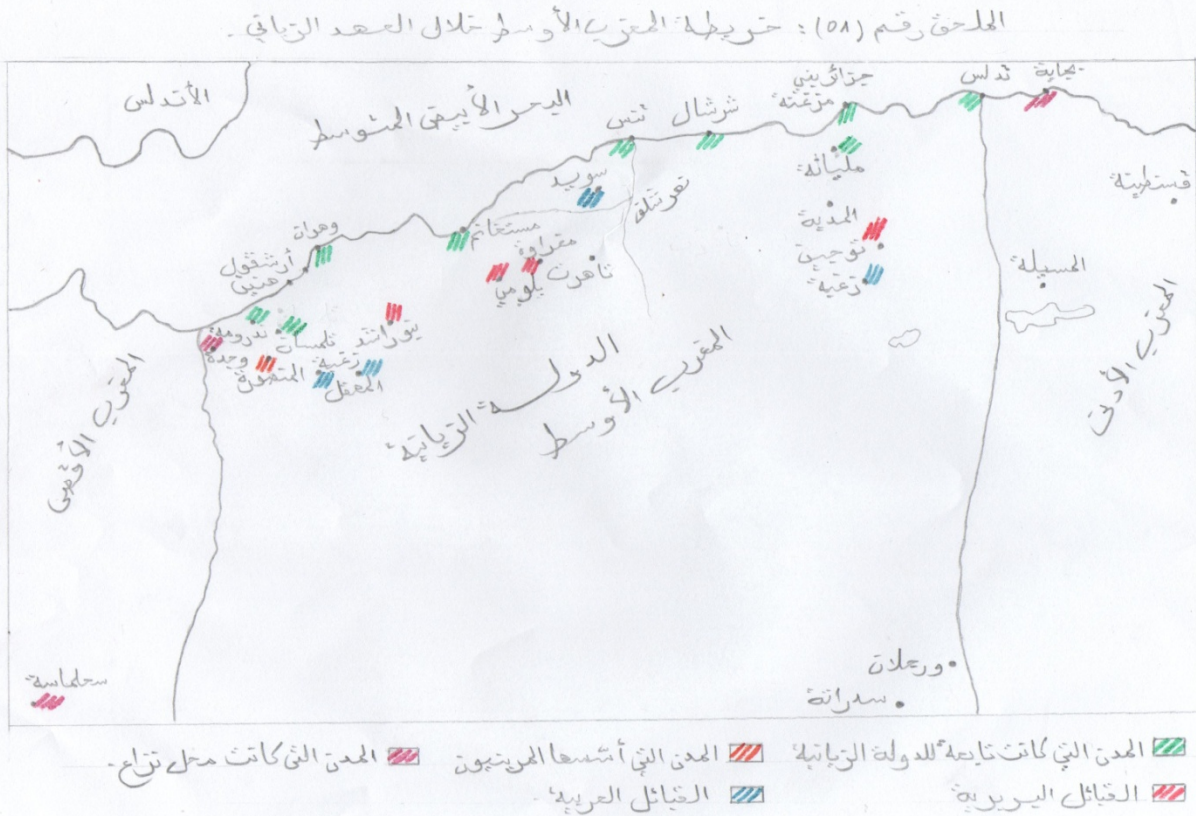
ولا ننسى أن ننو^{١٤}ه بنوع آخر يأخذ من الشعر ميزة تتمثل في القافية، ويخرج عنه في الوزن، وهو ما عرف بالموشحات والأزجال، والذي عرف هو الآخر ازدهارا مثله مثل الشعر، بحيث لاقى إقبالا كبيرا من قبل شعراء تلمسان، وحتى خلفائها، وعرف مثله مثل الشعر أغراضا متعددة تمثلت في شعر المولديات، المدح، الفخر.

والفنون الصوتية كما هو معروف متعددة، فإلى جانب الفن الأدبي نجد الفن الموسيقي، وحسب ما وجد من إشارات المؤرخين فإنه قد ازدهر ما بعد العهد الزباني، أي بعد الهجرة الأندلسية التي شهدها المغرب الإسلامي بعد سقوط غرناطة، أما خلال الفترة الوسيطة، فلم نجد إلا بعض ما أشير إليه من اهتمام بعض الخلفاء الزبانيين بالغناء وأصحابه، وبعض الآلات الموسيقية التي وجدت هناك.

وختاما يمكننا القول أن^{١٥} موضوع العمران والفنون واسع المجال، والفترة الزمنية، وكذا الإطار الجغرافي، وعليه فلم نستطع الإمام بكافة العناصر التي تدخل في هذا الإطار، ولهذا اكتفينا في معظم الأحيان بدراسة بعض النماذج، والتي من خلالها نتعرف على العنصر المدروس.

ملاحق

الملحق رقم (1): خريطة المغرب الأوسط خلال العهد الزياني



من رسم الطالبتين

عن: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص: 167.

لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية، ص: 307.

بواشي نشار خديجة، العناصر الزخرفية على المسكوكات المغربية من القرن 10م إلى القرن 14م،

ص: 210.

الملحق رقم (02): مئذنة مسجد المشور.



من تصوير الطالبتين

الملحق رقم (03): مئذنة مسجد العباد.



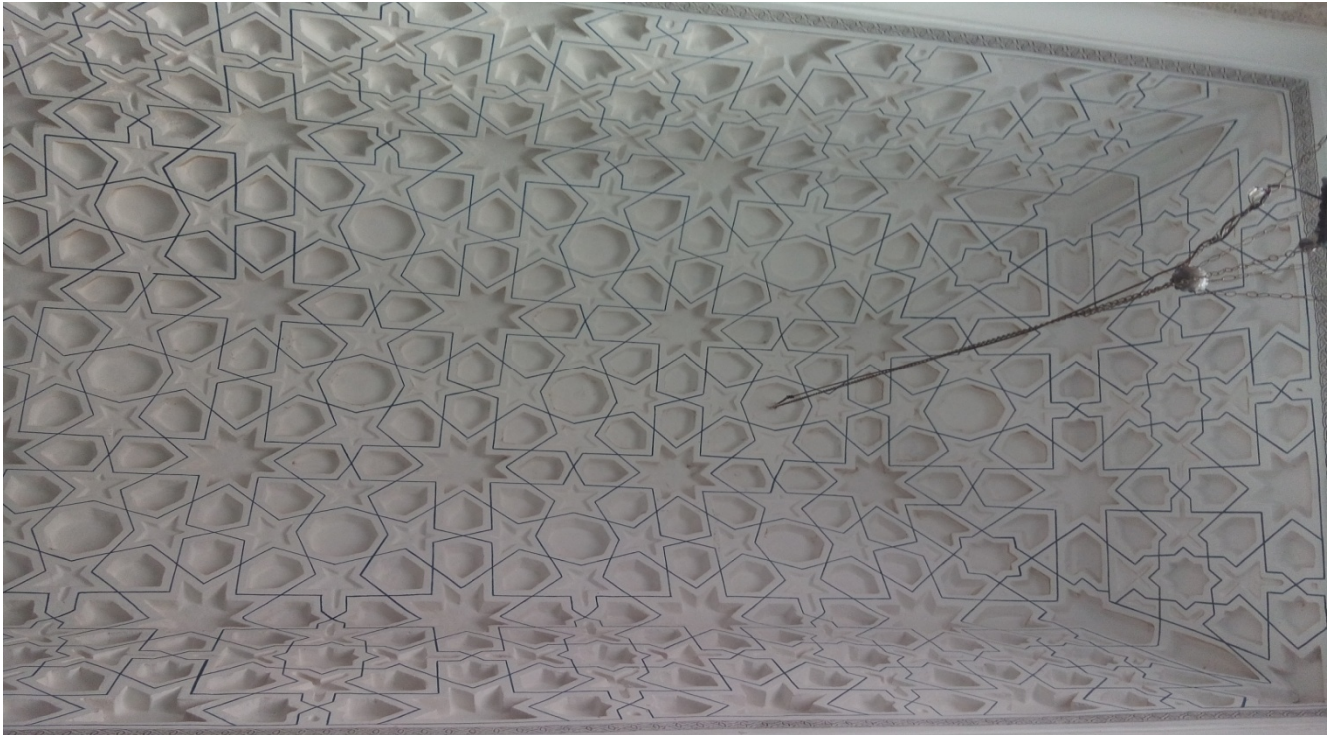
من تصوير الطالبتين

الملحق رقم (04): نافورة مسجد العباد.



من تصوير الطالبتين.

الملحق رقم (05): سقف مسجد العباد



من تصوير الطالبتين

الملحق رقم (06): القبة التي تعلو قاعة الدروس في مدرسة العباد



من تصوير الطالبتين

الملحق رقم (07): القبة المقرنصة التي تعلو محراب مسجد العباد



من تصوير الطالبتين

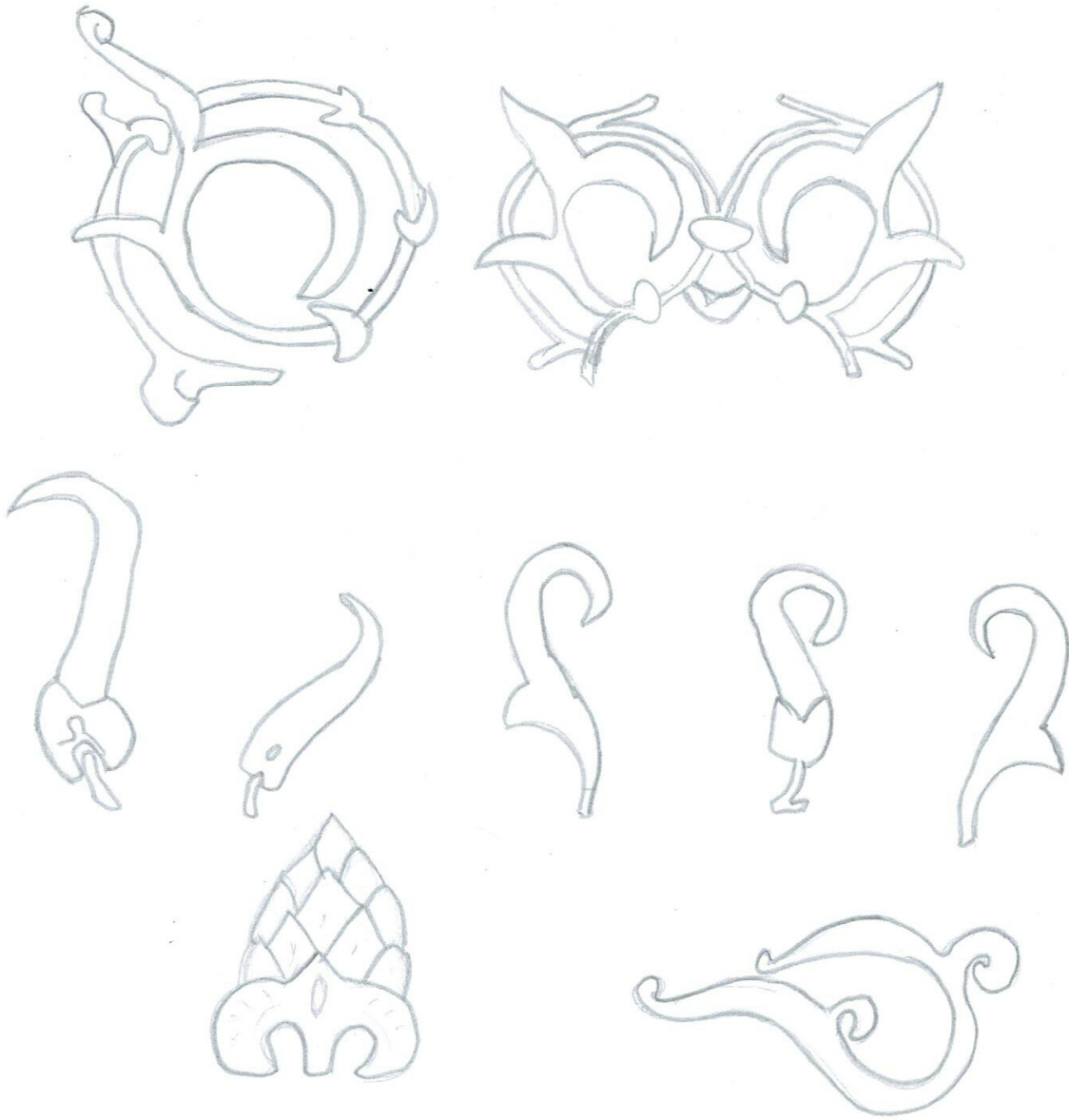
الملحق رقم (07): نماذج عن الزخرفة النباتية الزبانية



من رسم الطالبتين

عن: موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص ص: 52، 53.

الملحق رقم (08): نماذج عن الزخرفة النباتية التي استخدمها المرينيون في تزيين مسجد العباد

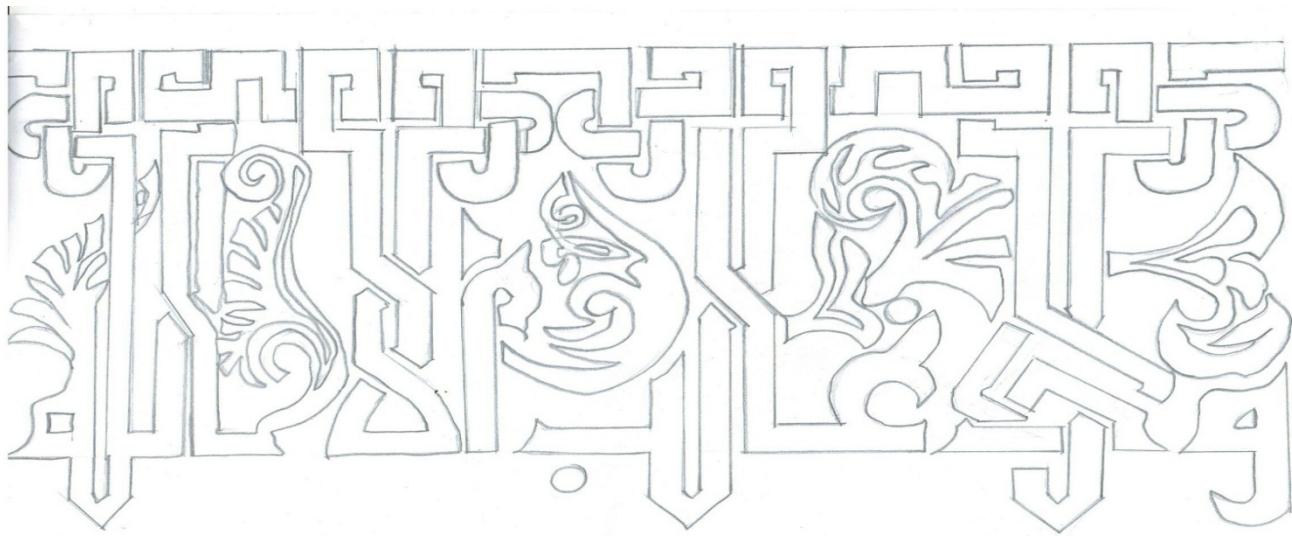


من رسم الطالبتين

عن: موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 163.

بوطارن مبارك، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 359.

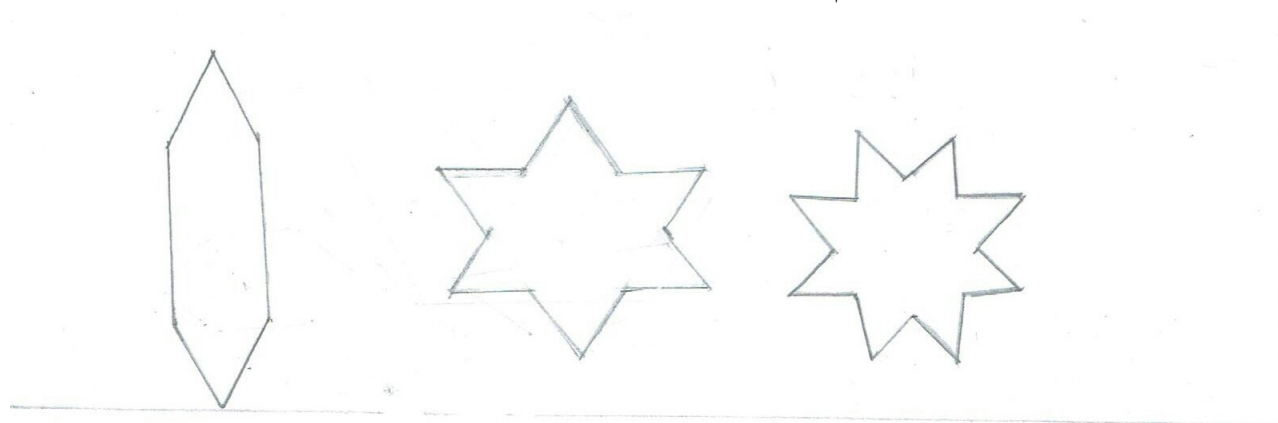
الملحق رقم (09): عبارة "لا غالب إلا الله" بالخط الكوفي المورق والمزهر بمسجد سيدي إبراهيم المصمودي



من رسم الطالبتين

عن: موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ص: 194.

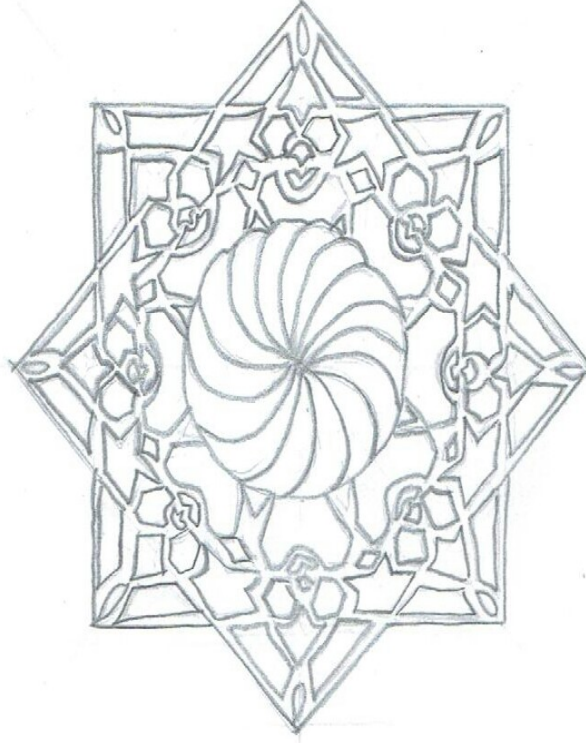
الملحق رقم (10): نجمة سليمان ومشتقاتها



من رسم الطالبتين

عن: موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 85.

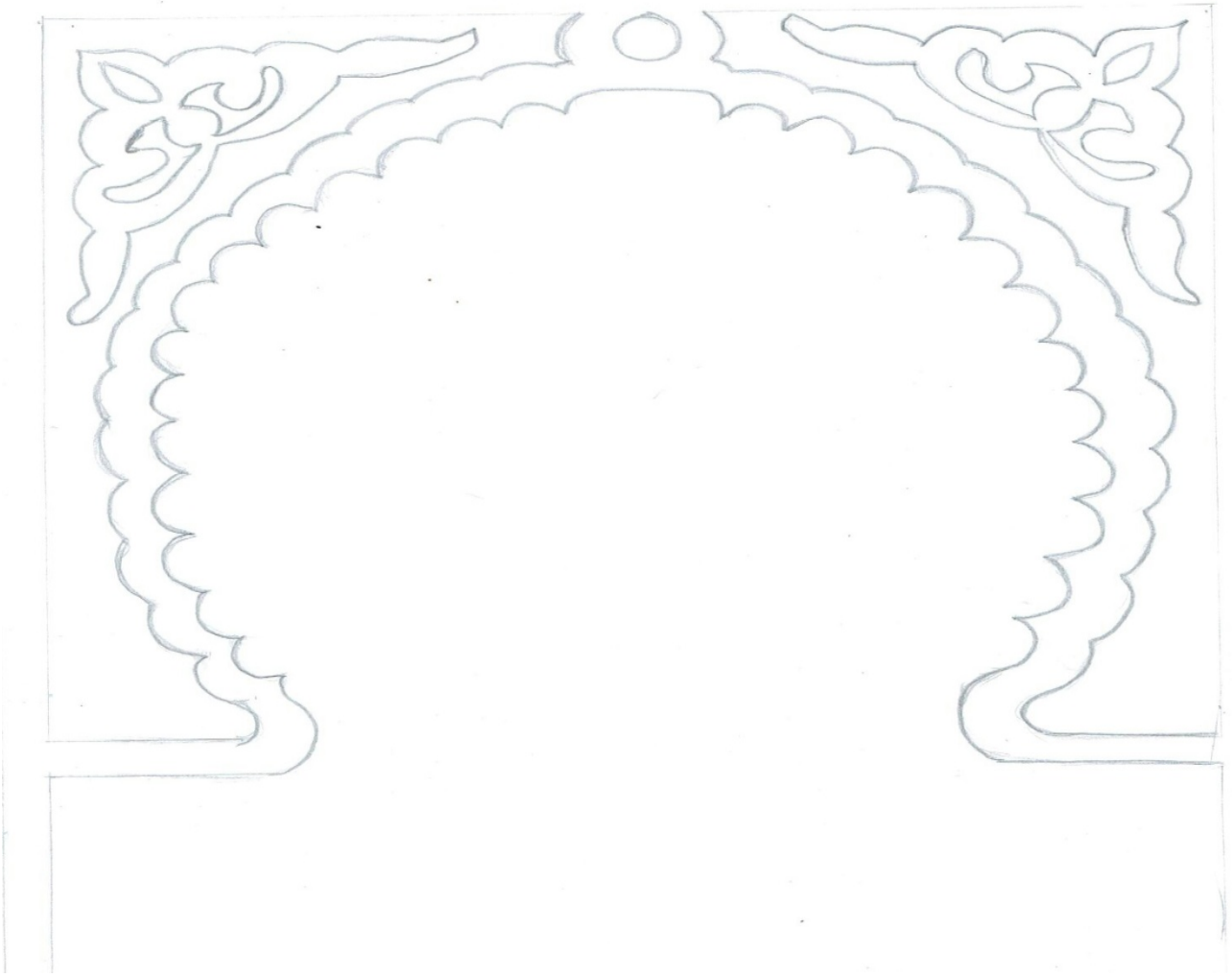
الملحق رقم (11): محارة تحيطها بها زخارف هندسية بضريح سيدي إبراهيم المصمودي



من رسم الطالبتين

عن: مهتاري فائزة، الزخارف في المساجد الزيانية والمرينية، ص: 27.

الملحق رقم (12): قبر الملكة مَـلُوْةُ يحوي عقد مفصص تحيط به زخارف نباتية متناظرة



من رسم الطالبتين

عن: موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية بتلمسان، ص: 132.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

الحديث النبوي الشريف:

1. الترمذي محمد بن عيسى بن سورة (ت 279هـ)، سنن الترمذي، تح وتع: محمد فؤاد عبد الباقي، ج3، مكتبة البابي الحلبي، مصر، ط2، 1395هـ/1975م.
2. الكنتي باي بن سيدي عمر الوافي، السنن المبين في شرح أحاديث أصول الدين، إع:مالك كرشوش، وحيمد الكنتي، ج4، مركز الإمام الثعالبي لدرسات والنشر والتراث، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م.

أ- المصادر:

أ- التاريخية:

3. ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي (ت 807هـ/1405م)، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تق وتح وتع: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، بور سعيد (الظاهر)، ط1، 1421هـ/2001م.
4. _____، روضة النسر في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، (د.ط)، 1382هـ/1962م.
5. _____، أعلام المغرب والأندلس (نشر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان)، تح وتق: محمد رضوان الداية، مؤسسة إقرأ، (د.م.ن)، (د.ط)، (د.ت).
6. ابن الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي (ت 486هـ)، وثائق في شؤون العمران في الأندلس (المساجد والدور مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى)، تح: محمد عبد الوهاب خلاف، مر: محمود علي مكي ومصطفى كامل إسماعيل، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ط1، 1983م.
7. الجزنائي علي (من علماء ق 8هـ)، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تح: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1411هـ/1991م.
8. الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 914هـ)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج5، ج7، ج11، إشر: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ط)، 1401هـ/1981م.

9. ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت 617هـ/1221م)، التصوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م.
10. ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (كان حيا ما بين 710هـ-731هـ/1310-1331م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، (د.ط)، 1972م.
11. _____، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، (د.د.ن)، الرباط، (د.ط)، 1392هـ/1972م.
12. ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي (ت 852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، سف3، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، 1414هـ/1393م.
13. ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن سعيد (ت 456هـ/1064م)، جمهرة أنساب العرب، تح وت: ليفي بروفينسال، دار المعارف، مصر، (د.ط)، 1948م.
14. أبو حمو موسى الثاني (ت 791هـ/1388م)، واسطة السلوك في سياسة الملوك، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، (د.ط)، 1431هـ/2011م.
15. مجهول، زهر البستان في دولة بني زيّان، ج2، تح وت: بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 1231هـ/2013م.
16. أبو مدين شعيب (ت 594هـ)، الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان، تق وت: عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.م.ن)، (د.ط)، 1394هـ/1974م.
17. المكناسي أحمد بن القاضي (ت 1025هـ)، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، (د.ط)، 1973م.
18. المقرئ أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج7، تح: إحسان عباس، دار الصادر، بيروت، (د.ط)، 1408هـ/1988م.

19. _____، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج1، ضب و تح وتع مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ/1939م، ص: 371.
20. المراكشي عبد الواحد (ت 647هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، (د.د.ن)، القاهرة، (د.ط)، 1383م/1963م.
21. ابن مرزوق أبو عبد الله محمد الخطيب (ت781هـ)، المسند الصّحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، درا وتح: ماريا خيسوس بغيرا، تق: محمود بوعيداد، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، (د.ط)، 1401هـ/1981م، ص ك: 591.
22. _____، المناقب المرزوقية، درا وتح: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 1429هـ/2008م.
23. ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف الملبّي المديوني (ت مابين 1025_1028هـ)، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مرا: محمد بن أبي شنب، المدرسة النّعالبية، الجزائر، (د.ط)، 1326هـ/1908م، ص ك: 315.
24. النّميري ابن الحاج أبو القاسم برهان الدّين إبراهيم بن عبد الله الغرناطي (ت بعد 774هـ)، فيض العباب وإفاضة قدّاح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قسنطينة والزّاب، درا وإع: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م.
25. العقباني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التلمساني (ت 871هـ/1467م)، كتاب تحفة النّاظر وغنّية الذاكر في حفظ الشّعائر وتغيير المناكر، تح: علي الشّنّوفي، Tome XIX، (د.م.ن)، (د.ط)، 1967م.
26. ابن عذاري المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تح ومرا: ج. س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1982م.
- (قسم الموحدين)، تح: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1406هـ/1985م.

27. القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، صبح الأعشى، ج2، المطبعة الأميرية، القاهرة، (د.ط)، 1333هـ/1915م.
28. _____، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح وتقا: إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1402هـ/1982م.
29. القرافي بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر (ت 1008هـ)، توشيح الديباج وحلية الإبتهاج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1425هـ/2004م، ص: 231.
30. أبو راس الناصر (ت 1238هـ)، لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان ملوك تلمسان، درا وتح: حمدادو بن عمر، (د.د.ن)، (د.م.ن)، (د.ط)، 1432هـ/2011م.
31. التنبكتي أبو العباس أحمد بابا (ت 1036هـ/1627م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشر وتق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ج1 وج2، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989م.
32. _____، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج1، درا وتح: أحمد مطيع، مطبعة فضالة، المحمدية (المغرب)، (د.ط)، 1021هـ/2000م.
33. التنسي محمد بن عبد الله (ت 899هـ/1494م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان)، تح وتع: محمود آغا بوعباد، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م.
34. ابن الخطيب لسان الدين ذي الوزارتين (ت 776هـ/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، مج3، تح: محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1393هـ/1937م.
35. _____، رقم الحل في نظم الدول، المطبعة العمومية، المحمدية (تونس)، (د.ط)، 1316هـ.
36. _____، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام)، تح: نجم مختار العبدادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، (د.ط)، 1964م.

37. _____، ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب، مج1، تح: محمد عبد الله عنان، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ط1، 1400هـ/1980م.
38. ابن خلدون أبي زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن خلدون (ت 780هـ/1378م)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: ألفرد بل، مج1، بيدر فونطانة الشرقية، الجزائر، (د.ط)، 1321هـ/1903م.
- ج2، تق وتح وتع: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2011م.
39. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808هـ/1406م)، مقدمة ابن خلدون (وهي الجزء الأول من كتاب: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، مرا: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 1431هـ/2001م.
- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج4، ج6، ج7، مرا: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 1421هـ/2000م.
40. _____، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، 1979م.
41. الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، ج3، تح: محمد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، إشر: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1417هـ/1996م.
- ب- الجغرافية:
42. الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (ت 558هـ/1163م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (وهو جزء من كتاب: المسالك والممالك)، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، (د.ط)، (د.ت).

43. ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 779هـ/1377م)، رحلة ابن بطوطة المسمّاة "لحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، المطبعة الخيرية، مجريه، ط1، 1322هـ.
44. البكري أبو عبيد (ت 487هـ/1094م)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
45. الوزان الحسن بن محمد الفاسي (ت 957هـ/1550م)، وصف إفريقيا، ج1، ج2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م.
46. الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت أواسط ق 6هـ)، كتاب الجغرافية، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدّينية، بور سعيد (الظاهر)، (د.ط)، (د.ت).
47. ابن حوقل أبو القاسم النّصبي (ت 367هـ)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، 1992م.
48. الحموي ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي (ت 626هـ/1228م)، معجم البلدان، مج2، مج4، مج5، مج3، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1397هـ/1977م.
49. الحميري محمد بن عبد المنعم (ت 900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت، ط2، 1984م.
50. ابن الحسين إسحاق (عاش خلال ق 4هـ)، أكاثر المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، تح: فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ، 1988م.
51. مجهول (من علماء ق 6هـ/12م)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نش وتع: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (د.ط)، (د.ت).
52. ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى المغربي (ت 685هـ/1286م)، كتاب الجغرافيا، تح وتع: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1970م.

53. العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود (ت 725هـ/1325م)، الرحلة المغربية، منشورات بونة للبحوث والدّراسات، بونة (الجزائر)، ط1، 1428هـ/2007م.
54. _____، رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كوري، تق: شاكّر الفحام، دار سعد الدين، دمشق، ط2، 2005م.
55. العمري شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت 749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، سف4، تح: حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ضبي، (د.ط)، 1423هـ/2002م.
56. أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت 732هـ)، تقويم البلدان، تص: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، (د.ط)، 1830م.
57. ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله ابن عبد الله، المسالك والممالك، مطبعة بريل المسيحية، ليدن المحروسة، (د.ط)، 1889م.
- II- المراجع:**
- أ- باللغة العربية:**
58. أبو الأجفان محمد بن الهادي، الإمام أبو عبد الله محمد المقرئ التلمساني، الدار العربية للكتاب، طرابلس (الجمهورية العربية الليبية)، الدار العربية للكتاب، تنس، (د.ط)، 1988م.
59. بهلول إبراهيم، الآلات الموسيقية التقليدية في الجزائر، تس: عثمان تاجنانت، دار الخلدونية، الجزائر، (د.ط)، 2007م.
60. بواشي خديجة نشار، العناصر الزخرفية على المسكوكات المغربية من القرن 10م إلى القرن 14م، Sh'farK، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).
61. بوطارن مبارك، الموروث الإسلامي لتلمسان، (د.د.ن)، (د.م.ن)، ط1، 2011م. _____، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2011م.
62. بوطبل عبد القادر، تاريخ مدينة حمو موسى في الماضي والحاضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1986م.

63. بوسماحة حسن، فن الزخرفة، أوراق للنشر والتوزيع، سوق أهراس، ط1، 2012م.
64. بوسماحة عبد الحميد، تلمسان تاريخ وثقافة، (د.د.ن)، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م.
- بوعزيز يحيى، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، منشورات ANEP، الجزائر، (د.ط)، 2011م.
65. بوفلاحة سعد، أوراق تلمسانية، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م.
66. بورويبة رشيد، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م.
67. بلوط عمر، فنادق مدينة تلمسان الزيانية "دراسة أثرية"، مؤسسة الضحى للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م.
68. بلعربي خالد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن "دراسة تاريخية حضارية" (633-681هـ/1235-1282م)، الألفية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).
69. براهيمى نصر الدين، تلمسان الذاكرة، منشورات شالة، الأبيار (الجزائر)، ط2، 2010م.
- الجيلالي عبد الرحمان بن محمد، تاريخ الجزائر العام، ج2، مكتبة الشراكة الجزائرية، الجزائر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1385هـ/1965م.
70. ديب محمد سهيل، الوجوه المجيدة للحضارة الأندلسية بتلمسان، منشورات التفاحات الثلاث، (د.م.ن)، (د.ط)، 1432هـ/2012م.
71. الدكالي محمد بن علي، الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين، تح: محمد أبو الشعراء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط2، 1996م.
72. الدراجي بوزياني، أدباء وشعراء من تلمسان، ج1، دار الأمل للدراسات، الجزائر، 1193هـ/2011م.
73. زيدون نادية وآخرون، تلمسان عاصمة التراث والتاريخ، منشورات CDSP، (د.م.ن)، (د.ط)، 2010م، ص ك: 271.
74. الزركلي خير الدين، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، ج1، ج4، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.

75. زغيب سميرة، المؤلف من الأندلس إلى قسنطينة النشأة والخصوصيات، دار مداد بيونيفارسيبي براس، قسنطينة، ط1، 2009م.
76. حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الزباني "حياته وآثاره"، بني مرابط، (د.م.ن)، ط1، 1432هـ/2011م.
77. _____، تاريخ دولة بني زيان (مقتطف من كتاب ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر وكتاب تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان لابن الأحمر)، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، (د.م.ن)، 2011م.
78. الحياة اليومية في تلمسان، وزارة الثقافة، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م.
79. بن حموش مصطفى، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولوكس والوثائق العثمانية، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007م.
80. حميش عبد الحق، سير أعلام تلمسان، دار التوفيقية، المسيلة، ط1، 1432هـ/2011م.
81. حنفي عائشة، الحلي الجزائرية بمدينة الجزائر في العهد العثماني، ج1، SHFAR، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).
82. حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، ج3، منشورات الحضارة، الجزائر، (د.ط)، 2009م.
83. _____، تاريخ الجزائر الوسيط، ج5، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، (د.ط)، 2013م.
84. الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، 1406هـ/1986م.
85. الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ/1213م) _ (869هـ_1465م)، دار القلم، الكويت، ط2، 1408هـ/1987م.
86. حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، مج2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1398هـ/1978م.

87. كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، (د.ط)، 1996م.
88. لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان (دراسة في الفكر العمراني الإسلامي وتطبيقاته العملية "عمرانا وعمارة وفنا")، شركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، ط2، 2011م.
89. _____، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان (669-869هـ/1269-1465م) دراسة أثرية فنية جمالية"، الملكية، (د.م.ن)، ط1، 2007م.
90. موساوي عبد المالك، دور الزخرفة في الحياة الحضارية في تلمسان، دار السبيل، (د.م.ن)، ط1، 2011م.
91. _____ فنّ الزخرفة في العمارة الإسلامية "المساجد والمدارس"، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2011م.
92. _____، فنيات تصميم الزخرفة الخطية في الطراز المغربي الأندلسي، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2013م.
93. _____، زخارف المنارات الأندلسية في إسبانيا وشمال إفريقيا، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2013.
94. ميدون عز الدين، ندرومة مدينة الفن والتاريخ، دار السبيل للنشر والتوزيع، (د.م.ن)، ط1، 2011م.
95. المليي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق وتض: محمد المليي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د.ط)، (د.ت).
96. مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، مج1، تح: علي زواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م.
97. مقرانطة عابد بختة، صور من ذاكرة تلمسان الوسيطة "جمال وعراقة"، منشورات الرياسية، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م.
98. معزوز عبد الحق، شواهد القبور في المغرب الأوسط بين القرنين (2_13هـ / 8_19م)، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ط1، 2011م.

99. _____، الكوفية في الجزائر ما بين القرنين (2_8هـ)/(8م_14م)، منشورات الإعلام والترجمة والنشر، الجزائر، ط3، 2014م.
100. ماهض عبد الرّزاق القيسي، الفنون الزخرفية العربية والإسلامية، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، (د.ط)، 1429هـ/2009م.
101. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط2، 1400هـ/1980م.
- سالم عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1999م.
102. _____، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
103. المسّلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا في الأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، ج4، تح وتعلّ: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء (المملكة المغربية)، (د.ط)، 1954م.
104. السملالي العباس بن إبراهيم بن الحسن بن محمد (ت 1378هـ/1959م)، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، ج9، ج10، ج4، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1413هـ/1993م.
105. بن سنوسي كمال، الطرب الغرناطي بمدينة تلمسان "الشيخ العربي بن صاري أنموذجا"، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م.
106. سعد الله فوزي، صفحات مجهولة من تاريخ الغناء الأندلسي بتلمسان ومدن أخرى، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م.
107. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م.
108. سفطي أحمد، دراسات في الموسيقى الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1988م.

109. لسّ رحابي غالب، ماذا قدّم المسلمون للعالم؟ "إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية"، ج1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط2، 1430هـ/2009م.
110. سري سيد أحمد، الطرب الأندلسي "مجموعة أشعار وأزجال موسيقى الصنعة"، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2007م.
111. ابن عبد الجليل عبد العزيز، الموسيقى الأندلسية المغربية، عالم المعرفة، الكويت، (د.ط)، 1988م.
112. عبدلي لخضر، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، ط1، 2011م.
113. _____، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان (633هـ-962هـ/1236م-1554م)، دار الأوطان، (د.م.ن)، ط1، 2011م.
114. عبد المطلب جبار عبد الله، القلاع والحصون في المدن الإسلامية، (د.د.ن)، (د.م.ن)، (د.ط)، (د.ت).
115. العبدّة محمد، نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، نصر (القاهرة)، ط1، 2009م.
116. عدو غزلان، تلمسان أغاني ومعاني، منشورات أمال، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م.
- عوف مخالفة، تاريخ الألبسة التقليدية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، (د.ط)، 2007م.
117. عزي بوخالفة، شواهد الإحسان في مآثر المحروسة تلمسان، (د.د.ن)، (د.م.ن)، ط1، 2011م.
118. _____، تلمسان منارة إشعاع فكري وحضاري، دار السبيل للنشر والتوزيع، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م.
119. عموره عمار، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريجانه للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2002م.
120. _____، الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة "ما قبل التاريخ إلى 1962م")، ج2، دار المعرفة، الجزائر، (د.ط)، 2009م.

121. عروة نجة، من وحي التراث المعماري والحرفي في الجزائر، دحلب، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م.
122. عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى (عصر دولة المرابطين)، ج2، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1993م.
123. فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني "دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية"، ج1، ج2، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (د.ط)، 2002م.
124. فريد محمود الشافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، (د.د.ن)، (د.م.ن)، (د.ط)، (د.ت).
125. صاري جيلالي، تلمسان الزيانية، دار القصبة للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م.
- الصلابي علي محمد، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، ج2، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م.
126. القاضي علي، مفهوم الفن الإسلامي بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، (د.م.ن)، ط1، 1423هـ/2002م.
127. قلفاط أمين ورفال، مدرسة تلمسان "مختارات من الموسيقى الكلاسيكية (مجموعة أشعار وأزجال موسيقى: الصنعة، الحوزي، العروبي، المديح والسماع)"، Editions New Sound، (د.م.ن)، 2011م.
128. ابن قلفاط فيصل، الموسيقى الكلاسيكية في الدول المغاربية "مقاربة تاريخية"، ج1، Editions New Sound، (د.م.ن)، (د.ط)، 2011م.
129. بن قربة صالح وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، (د.ط)، 2007م.
130. قريان عبد الجليل، التعليم بتلمسان في العهد الزياني، جسر للنشر والتوزيع، المحمدية (الجزائر)، ط1، 1432هـ/2011م.

131. قرقوتي حنان، **تخطيط المدن (العمارة والزخرفة)**، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1427هـ/2006م.
132. شاوش الحاج محمد بن رمضان، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، 2011م.
133. شامي يحيى، **موسوعة المدن العربية والإسلامية**، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1993م.
- شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)**، دار المعارف، القاهرة، ط1، (د.ت).
134. توات الطاهر، **ابن خميس شاعر تلمسان الأكبر**، دار الأوطان، الجزائر، ط1، 2011م.
- الغوثي أبو علي محمد، **كتاب كشف القناع عن آلات السماع**، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 1995م.
135. غطاس عائشة، **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830م) "مقاربة اجتماعية اقتصادية"**، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، روية، (د.ط)، 2012م.
- ب_ باللغة الأجنبية:
136. Benamar Mohamed Djebbare, **Nedroma et ses grande noons**, Dar essabil, 2011.
137. DJILALI Sari, **Tlemcen la zyanide**, Casbh éditions, 2011
138. M.l'ablé J-L. Bargès, **Complément de l'histoire Des Beni zeïyan Rois de telmcen**, Enag Edition, Algérie, 2011
139. R.P.Gthéry.O.P, **Evocation sur son Passé, Telmcen** . Enag Edition, Algérie, 2011
- ج_ المترجمة:
140. آنخل جنثالث بالثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، تر: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ط)، 1955م.
141. برنشفيك روبار، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، ج2، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م.

142. جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في القرون الوسطى، تر: محمود عبد الصمد هيكمل، مر: مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، 1999م.

143. بروسار شارل، كتابات شواهد وقبور وسلاطين بني زيان الملتقطة من روضاتهم الملكية بمدينة تلمسان، تر وتق: الرزقي شرقي، موفم لنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م.

144. وليم وجورج مرسيه، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، تر: مراد بلعيد وآخرون، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م.

145. وليم مرسيه، مقتنيات متحف تلمسان، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2011م.
كربخال مارمول، إفريقيا، ج2، تر: عماد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، (د.ط)، 1984م.

III - المجالات والدوريات:

أ - باللغة العربية:

146. بودالية تواتية، وسائل الترويح عن النفس في المغرب الأوسط، مجلة العصور الجديدة، العدد: 14، 15، أكتوبر 1435هـ/2014م، ص ص: 163_180.

147. بوحسّون العربي، الحرف والصناعات التقليدية بمدينة ندرومة فضاء للأصالة والتحدي، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجية وذاكرة، ج1، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2011م، ص ص: 373_404.

148. بوروبة لطيفة، نماذج من الزخرفة الهندسية في عمارة جامعي أبي مدين والحلوي، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص ص: 229_250.

149. بوخضار فايزة، مدارس المغرب الأوسط الزيانية والمرينية (دراسة تاريخية أثرية)، رسالة ماجستير، إشر: صالح بن قربة، جامعة الجزائر2، 2011م،

150. بلعربي خالد، الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، دورية كان التاريخية، ع6، ذو الحجة 1430هـ/ديسمبر 2009م، ص ص: 32_38.

151. جاب الله طيب، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، معارف (مجلة علمية محكمة)، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة البويرة، ع14، السنة الثامنة، أكتوبر 2013م، ص ص: 133_150.
152. دحماني صبرينة، المساجد المرابطية دراسة تنميطية، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجية وذاكرة، ج2، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2011م، ص ص: 477_504.
153. حاج عيسى إلياس، الحرف اليدوية في المغرب الأوسط "تلمسان نموذجاً"، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج2، أعمال ملتقى دولي بتلمسان، أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، (د.ط)، ص ص: 25_41.
154. طه ذنون عبد الواحد، التطور العمراني لمدينة تلمسان الإسلامية (دراسة في النصوص الخاصة بأغادير، تآكرات، المنصورة)، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص ص: 9_32.
155. لعرج عبد العزيز محمود، جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجامعة تلمسان الكبير وسيدي بلحسن تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال ملتقى دولي بتلمسان، أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، (د.ط)، ص ص: 205_228.
156. مهتاري فائزة، الزخارف في المساجد الزيانية والمرينية بتلمسان _دراسة مقارنة ومقاربة بين عينات من النموذجين_، مجلة Revisita Argelina، Num : 01، Otono 2015، ص ص: 21_30.
157. منصوري محمد، مقارنة بين مسجدين مرابطين الجامع الكبير بندرومة والجزائر، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجيا وذاكرة، ج1، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2011م، ص ص: 563_608.
158. نقادي سيدي محمد، التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي، مجلة أفكار وآفاق، ع3، جانفي-جوان 2012م، ص ص: 167_178.

159. عاتي لعيبي كريم الخزاعي وحارث علي عبد الله، أنواع الحرف في بلاد المغرب من خلال كتاب المعيار المغرب للنشر والمطبع المتوفى عام 941هـ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، ع22، آب 2015م، ص ص: 412_425.
160. عبد الستار محمد عثمان، أدوات الكتابة بين النشأة والتطور، ع6، 2013م، ص ص: 197_230.
161. عبد العزيز محمد الحسيني، الخزف الإسلامي ذو البريق المعدني، ع184، ربيع الثاني 1400هـ، ص ص: 75-81.
162. عزّوق عبد الكريم، تمزدكت قلعة حصار زيانية على أبواب بجاية، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص ص: 91_98.
163. عزت بن عبد الرحيم محمد بن شاهين، الإبداع المعماري والفني في الأضرحة الجزائرية ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي أنموذجا (786هـ_875هـ / 1383م_1479م)، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان أيام 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص ص: 270-272.
164. العربي لحضر، صناعة المخطوط في المغرب الأوسط على العهد الزياني، مجلة التراث، ع2، فبراير 2014م، جامعة الخلفة. ص ص: 12_26.
165. فاطمي عائشة، الحرف التقليدية بمنطقة ندرومة "الفخار كنموذج"، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجيا وذاكرة، ج1، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2011م، ص ص: 405_438.
166. رزيوي زينب، الكتاتيب في المغرب الأوسط بين القرنين (7_9هـ/13_15م)، دورية كان التاريخية، ع25، ذو القعدة 1435هـ/سبتمبر 2014م، ص ص: 127_133.
167. أبو رحاب محمد السيد، ملامح تخطيط العمائر الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط، "دراسة أثرية مقارنة"، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني

- والمعماري والميراث الفني، ج1، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، أيام: 3، 4، 5 أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، (د.ط)، ص ص: 123_187.
168. شقرون الجيلالي، تلمسان مركز إشعاع حضاري في المغرب الأوسط، مجلة الفقه والقانون.
- IV- المذكرات:
169. بالأعرج عبد الرحمن، علاقات دول المغرب الإسلامي بدول الممالك سياسيا وثقافيا بين القرنين السّابع والثّاسع هجريين (7_9هـ/13_15م)، أطروحة دكتوراه في المغرب الإسلامي، إشر: مبخوت بودواية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1434هـ/2013م.
170. بوشقيف محمد، تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14/15م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، إشر: عبدلي لخضر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1432هـ/2011م.
171. بوخضار فايزة، مدارس المغرب الأوسط الزيانية والمرينية (دراسة تاريخية أثرية)، رسالة ماجستير، إشر: صالح بن قرية، جامعة الجزائر2، 2011م.
172. بكاي هوارية، العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشر: بودواية مبخوت، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2008م.
173. بلبشير عمر، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى من القرن (6_9هـ/12_15م) من خلال كتاب (المعيار) للونشريسي، أطروحة دكتوراه، إشر: غازي مهدي جاسم، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2010م.
174. بريشي درويش، تطور المسكن الإسلامي في مدينة تلمسان "دراسة فنية أثرية"، رسالة ماجستير في الفنون الشعبية، إشر: معروف بلحاج، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2012م.
175. معريش كريمة، نقود سلاطين بني زيان وبني مرين من خلال مجموعة المتحف الوطني للآثار، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، إشر: صالح بن قرية، جامعة الجزائر2، 2012م.
176. نميش سميرة، دور أهل الذمة بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني من القرن (7_10هـ/13_16م)، رسالة ماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، إشر: عبدلي لخضر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1435هـ/2014م.

177. نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي، الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني (685-706هـ/1286-1306م) "دراسة سياسية حضارية"، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، إشر: عبد الواحد ذنون طه، جامعة الموصل، 1425هـ/2004م.
178. قدور منصورية، ندرومة دراسة تاريخية وحضارية بين القرون السابع والعاشر الهجرية (633هـ/1236م - 962هـ/1554م)، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشر: مكوي محمد، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1433هـ/2012م.
179. عياش محمد، الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان "دراسة تاريخية وأثرية"، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، إشر: صالح يوسف بن قرية، جامعة الجزائر، 2006/2005م.
180. عمارة فاطمة الزهراء، المدارس التعليمية بتلمسان (8_9هـ/14_15م)، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشر: محمد بن عمر، جامعة وهران، 1431هـ/2010م.
181. رزقي نبيلة، الزخرفة الجصية في عمائر المغرب الأوسط والأندلس (القرن 7هـ/13_14م) _دراسة تحليلية مقارنة_، رسالة دكتوراه في علم الآثار، إشر: بلحاج معروف، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2015م.
182. شلحاي ريم، الزخارف الجدارية في الآثار الزيرية والمرينية في المغرب الأوسط _دراسة أثرية فنية_، إشر: صالح بن قرية، الجزائر، 2011م.
183. شقدان بسام كامل عبد الرزاق، تلمسان في العصر الزيري (633-962هـ/1235-1555م)، رسالة ماجستير في التاريخ، إشر: هشام أبو رميله، جامعة النجاح الوطنية، نابلس (فلسطين)، 1422هـ/2002م.
184. خالد رشيد، دور علماء المغرب الأوسط في ازدهار الحركة العلمية في المغرب الأقصى خلال القرنين (7_8هـ/13_14م)، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشر: لخضر عبدلي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1432هـ/2011م.
- V- المعاجم:

185. أميلي حسن، معجم البناء والمعمار (عربي-فرنسي-مغربي)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط1، 2014م، (عربي فرنسي)، ص: 15-106. (مغربي فرنسي)، ص: ص:

- 109-132. (Français Marocain)، ص ص: 87-133. (Français Arabe)،
ص ص: 7-83.
186. بيلول جمال، المصطلحات المعمارية المدنية (عربي، فرنسي، أمازيغي)، أفريقيا الشرق، المغرب،
(د.ط)، 2014م.
187. الحداد محمد حمزة إسماعيل، دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، زهراء الشرق،
القاهرة، ط3، 2008م.
188. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، مج4،
مج7، مج8، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
189. المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ/2004م.
- 190نوَّار سامي محمد، الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم، دار
الوفاء، الإسكندرية، (د.ط)، (د.ت).

الفهرست

قائمة المختصرات

أ.....	مقدمة
8.....	مدخل: نظرة عامة عن الدولة الزيانية
8.....	أولاً: الإطار الجغرافي
11.....	ثانياً: الإطار التاريخي
الفصل الأول: البناء والتعمير في المغرب الأوسط على العهد الزياني	
25.....	المبحث الأول: العمارة المدنية
25.....	أولاً: المدن
35.....	ثانياً: القصور والمنازل
35.....	1-2. القصور
41.....	2-2. المنازل
46.....	ثالثاً: الحمامات والفنادق
46.....	1_3. الحمامات
46.....	2_3. الفنادق
50.....	المبحث الثاني: المنشآت الدينية والتعليمية
50.....	أولاً: المساجد والأضرحة
50.....	1-1. المساجد
64.....	2-1. الأضرحة
72.....	ثانياً: المدارس
78.....	ثالثاً: الكتاتيب والزوايا
78.....	1-3. الكتاتيب
80.....	2-3. الزوايا
83.....	المبحث الثالث: التحصينات العسكرية
83.....	أولاً: الأسوار والأبواب

83.....	1-1. الأسوار
86.....	2-1. الأبواب
91.....	ثانيا: الحصون والقلاع
91.....	1-2. الحصون
94.....	2-2. القلاع
96.....	ثالثا: الأبراج
الفصل الثاني: الفنون وتطورها على العهد الزباني	
102.....	المبحث الأول: الفن المعماري الزخرفي
102.....	أولا: الزخرفة النباتية
107.....	ثانيا: الزخرفة الخطية
115.....	ثالثا: الزخرفة الهندسية
119.....	المبحث الثاني: الفنون الصناعية
120.....	أولا: صناعة الفخار والخزف
125.....	ثانيا: صناعة النسيج
132.....	ثالثا: صناعة الحلبي والمعادن
132.....	1-3. الحلبي
134.....	2-3. النحاس
135.....	3-3. صك النقود
138.....	المبحث الثالث: الفنون الصوتية
138.....	أولا: الفن الأدبي
138.....	1-1. الشعر
147.....	2_1. الزجل والموشحات
150.....	ثانيا: الفن الموسيقي
162.....	خاتمة

169.....	الملاحق
178.....	قائمة المصادر والمراجع
201.....	فهرس الموضوعات